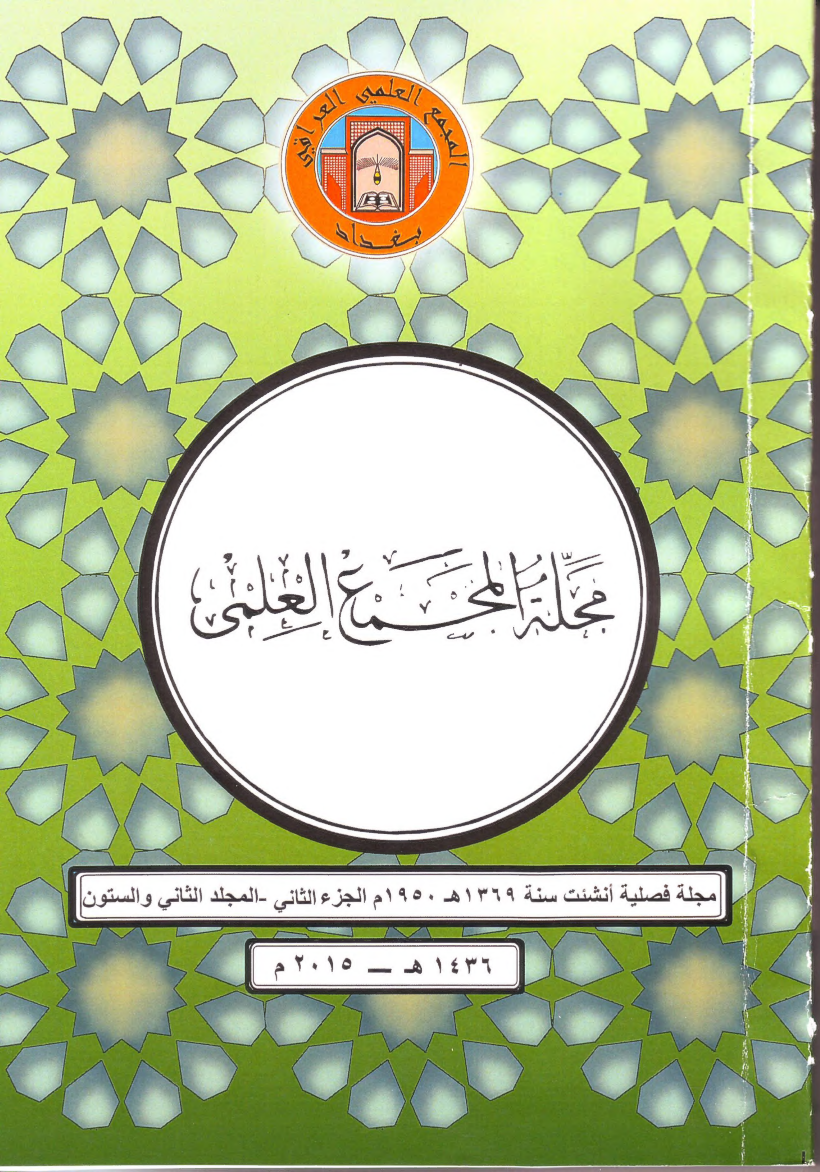
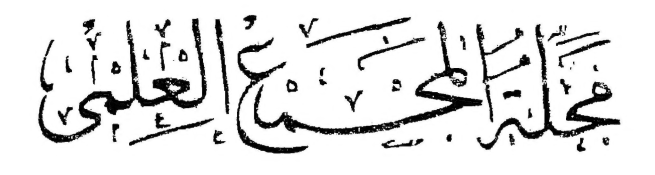

المجمع العلمي العراقي
بغداد
مجلة المجمع العلمي
مجلة فصلية أنشئت سنة ١٣٦٩هـ ١٩٥٠م الجزء الثاني -المجلد الثاني والستون
١٤٣٦ هـ ــ ٢٠١٥ م





فصلية محكمة أنشئت سنة ١٣٦٩هـ / ١٩٥٠م

الجزء الثاني - المجلد الثاني والستون

١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م



(شروط النشر وضوابطه)

١- تنشر المجلة البحوث العلمية ذات السمة الفكرية والشمولية وبما يسهم في تحقيق اهداف المجمع .

٢- لغة المجلة هي اللغة العربية ويراعي الباحثون والكتاب في صياغتهم الوضوح وسلامة اللغة .

٣- يشترط في البحث أن لا يكون قد نشر أو قدم للنشر في مجلة اخرى ورفض لعدم صلاحيته او انه مسروق .

٤- تعرض البحوث المقدمة للنشر في المجلة على محكمين من ذوي الاختصاص لبيان مدى أصالتها وجودتها وقيمة نتائجها وسلامة لغتها وصلاحيتها للنشر .

٥- هيئة تحرير المجلة غير ملزمة برد البحوث الى أصحابها في حالة عدم قبولها للنشر.

٦- لاتنشر المجلة الدراسات السياسية التي تمس كيانا معينا اوتنظيما خاصا .

٧- لاتنشر المجلة البحوث الدينية التي تمس العقائد لان هذا مجال نشره المجلات الخاصة.

٨- لاتنشر المجلة بحوثا تتحدث عن الفساد لاي من الموسسات .

٩- لاتنشر المجلة بحوثا مضطربة اللغة والاسلوب ولايمكن اصلاحها .

١٠- يرسل البحث الى المجلة بالمواصفات الاتية :

أ. ان يكون مطبوعا على الحاسوب ومخزونا على قرص CD ومرفق بنسخة ورقية .

ب. ترسل نسخة واحدة من البحث تحمل إسم الكاتب وعنوانه كاملا باللغة العربية .

ت. يجب أن لايزيد عدد الصفحات على (٣٠) ثلاثين صفحة وبما لا يتجاوز (٧٥٠٠) سبعة الآف وخمسمائة كلمة.

ث. أن يكون مستوفيا للمصادر والمراجع ، موثقة توثيقا تاما حسب الاصول المعتمدة في التوثيق العلمي .

ج. يرفق بالبحث ما يلزمه من أشكال أو صور أو رسوم أو خرائط أو بيانات توضيحية أخرى ، على ان يوضح على كل ورقة مكانها من البحث ويشار إلى المصدر إذا كانت مقتبسة .

ح. يرفق بالبحث ملخص باللغتين العربية والانكليزية بحدود نصف صفحة لكل ملخص .

خ. تكتب الكلمات الدالة باللغة الإنكليزية .

د. ان تستخدم في البحث المصطلحات المقرة عربيا .

١١- يعطى صاحب البحث (عند نشره) ثلاث نسخ من المجلة مع عشر مستلات من بحثه ومكافأة تقديرية على وفق نظام المكافآت المعمول به في المجمع العلمي .

البحوث لا تعبّر بالضرورة عن رأي المجمع العلمي

توجه البحوث والمراسلات الى رئيس تحرير مجلة المجمع العلمي

iraqacademy@yahoo.com
journalacademy@yahoo.com

الاشتراكات : داخل العراق (٢٠٠٠٠) الف دينار سنويا .

خارج العراق (١٠٠) دولار امريكي سنويا .

محتويـــات

الجزء الثاني / المجلد الثاني والسـتون

الطاقات المتجددة المستدامة

الدكتور داخل حسن جريو
عضو المجمع العلمي العراقي

الملخص :

أدى الاستخدام المفرط لمصادر الطاقة التقليدية إلى إلحاق أضرار فادحة بالبيئة وصحة الإنسان وسائر الكائنات الحية . تشير بعض الدراسات إلى أن ملوثات الهواء مثلا تتسبب بوفاة ما يزيد على مليون إنسان سنويا ، وخسارة العالم ما يزيد على (٥) خمسة مليارات دولار أمريكي سنويا بسبب تأثير الهواء الملوث على المحاصيل الزراعية ، فإحتراق المواد العضوية ومشتقات النفط، يؤدي إلى انبعاث الكثير من الغازات السامة مثل غاز أول وثاني أكسيد الكربون ، ويؤدي احتراق الفحم الحجري والغاز الطبيعي إلى انبعاث غاز ثاني أكسيد الكبريت ، وتنتج أكاسيد النيتروجين من احتراق المواد العضوية وعوادم السيارات ، وهذه جميعها تسبب بعض أمراض الجهاز التنفسي والجهاز الهضمي والسرطان وضعف المناعة وغيرها ، وتلويث بيئة الأرض والمياه ببعض المركبات الخطرة مثل مركبات الفينول والسيانيد وايونات المعادن السامة ، التي تؤدي إلى تدمير الأراضي الزراعية الخصبة وموت النباتات والحيوانات على حدّ سواء . لذا أصبح ضروريا البحث عن مصادر طاقة بديلة للتنمية البيئية المستدامة والحفاظ على صحة الإنسان . تسلط هذه الدراسة الضوء على الجهود الدولية المبذولة بتطوير الطاقات الجديدة والمتجددة المستدامة والصديقة للبيئة .

المقدمة :

الطّاقة المتجددة المستدامة والصديقة للبيئة هي الطّاقة المستمدة من الموارد الطبيعية التي تتجدد ولا تنضب . وهي تختلف جوهريا عن الوقود الأحفوري من بترول وفحم وغاز طبيعي ، أو الوقود النووي الّذي يستخدم في المفاعلات النووية . ولا تنشأ عن هذه الطّاقة عادةً مخلّفات ، كغاز ثاني أكسيد الكربون أو غازات ضارة تؤدي إلى زيادة الاحتباس الحراري ، كما يحدث عند احتراق الوقود الأحفوري أو المخلفات الذرية الضّارة النّاتجة من مفاعلات القوي النوويّة . تنتج الطّاقة المتجددة من الرياح والمياه وأشعة الشمس ، كما يمكن إنتاجها من حركة الأمواج والمد و الجزر ، أو من طاقة حرارية أرضية ، وجميعها مصادر طاقة طبيعية متجددة ومستدامة ولا تلحق أية أضرار بالبيئة أو بصحة الإنسان ، كما يمكن إنتاجها من المحاصيل الزراعية والأشجار المنتجة للزيوت ، إلاّ أن تلك الأخيرة لها مخلفات تؤدي إلى زيادة الاحتباس الحراري .

ولهذا الغرض دعا الأمين العام للأمم المتحدة ، بان كي مون في مؤتمر الطاقة المتجددة الذي انعقد في المكسيك عام ٢٠١١ ، دول العالم إلى الاستثمار في مشاريع الطاقة المتجددة الخضراء الصديقة للبيئة . يقصد بالطاقة الخضراء ، الطاقة التي تتولد من مصادر طبيعية وبصورة مستدامة منبعها الطبيعة كالإشعاع الشمسي والمياه ودوران الأرض وحرارة جوف الأرض . تساعد الطاقة الخضراء في المحافظة على البيئة والحد من الإنبعاث الحراري ، والحد من تراكم النفايات الضارة ، وتقليل آثار الكوارث

الطبيعية الناجمة عن الإحتباس الحراري ، وحماية صحة الإنسان والكائنات الحية المختلفة ، وحماية المياه والثروة السمكية من التلوث .

لذا اهتم كثير من الدول بموضوع الطاقة الخضراء ، حيث قام بعضها ببناء مدن خضراء خالية من التلوث ، كما دعت منظمة الأغذية والزراعة للأمم المتحدة "فاو" إلى خفض اعتماد إنتاج الغذاء على الوقود الأحفوري لما ينجم عنه أكثر من (٢٠ ٪) من الغازات المسببة للاحتباس الحراري ، حيث يستهلك قطاع إنتاج الغذاء نحو (٣٠ ٪) من استهلاك الطاقة العالمي ، وتستخدم هذه الطاقة بضخ المياه وزرع المحاصيل وتدفئة المحاصيل المحمية والتجفيف والتخزين والنقل والاستهلاك ، مما يتطلب إعادة نظر شاملة بأساليب إنتاج الغذاء المتبعة حاليا بتقليل الاعتماد على الوقود الأحفوري وذلك باستخدام الطاقة الشمسية وطاقة الرياح والطاقة المائية والطاقة الحرارية الأرضية وموارد طاقة الكتلة العضوية والاستفادة من النفايات العضوية للمزارع ومصانع إنتاج الغذاء في توليد الطاقة .

الإهتمام الدولي بمصادر الطاقة المتجددة :

إزداد الإهتمام بمصادر إنتاج الطاقة المتجددة في العقدين الأخيرين بسب تصاعد أسعار النفط والغاز المصدرين الرئيسين لإنتاج الطاقة في العالم ، فضلا عن تزايد الوعي بضرورة الحفاظ على البيئة من التلوث ، لذا وضعت بعض البلدان خططا لزيادة نسبة إنتاجها للطّاقة المتجددة بحيث تغطي احتياجاتها من الطّاقة بنسبة (٢٠٪) من استهلاكها عام ٢٠٢٠. وفي مؤتمر كيوتو باليابان اتّفق معظم رؤساء الدّول على تخفيض إنتاج ثاني أكسيد الكربون في الأعوام القادمة وذلك لتجنب التّهديدات الرئيسة لتغيّر

المنـاخ بسـبب التلـوث واسـتنفاد الوقـود الأحفـوري ، بالإضـافة للمخـاطر الاجتماعية والسّياسية للوقود الأحفوري والطّاقة النووية.

تشير بعض الدراسات إلى أن الاستثمار في الطاقة المتجددة في العالم عام ٢٠١١ ، بلغ نحو (٢٦٠) مليار دولار، شكلت الاستثمارات في الطاقة الشمسية معظمها حيث بلغت (١٣٦,٦) مليار دولار ، في حين بلغت الاستثمارات في توليد الطاقة من الرياح (٧٤,٩) مليار دولار . تعد الولايات المتحدة الأمريكية في مقدمة البلدان المستثمرة في مجال الطاقة المتجددة ، حيث بلغت إستثمارتها في العام المذكور أكثر من (٤٨) مليار دولار أمريكي . أظهر تقرير حديث للأمم المتحدة أن إستثمارات القطاع الخاص في تقنية الطاقة المتجددة يمكن أن يرتفع إلى (٤٥٠) مليار دولار هذا العام وإلى (٦٠٠) مليار دولار بحلول عام (٢٠٢٠) . وتسعى ألمانيا إلى التحول الكامل إلى مصادر الطاقة المتجددة والتخلي عن الطاقة النووية بحلول عام (٢٠٥٠) ، وتسعى الصين إلى زيادة نسبة إستهلاكها من الطاقة المتجددة إلى (١٥٪) في نهاية عام ٢٠٢٠.

وعلى الرغم مما تتمتع به البلاد العربية من موارد طاقة متجددة ضخمة ، إلاّ أنه يلاحظ عدم الاستفادة منها على الوجه المطلوب، حيث يقع جزء كبير من البلدان العربية ضمن ما يعرف بحزام الشمس الذي يستفيد من معظم أشعة الشمس الكثيفة الطاقة على الكرة الأرضية من حيث الحرارة والضوء على السواء ، وتتراوح مصادر الطاقة الشمسية في البلدان العربية بين (١٤٦٠) و (٣٠٠٠) كيلو واط ساعة في المتر المربع في السنة .

دعا المشاركون في مؤتمر الاقتصاد الأخضر في البلدان العربية المنعقد في العاصمة اللبنانية بيروت عام ٢٠١١ إلى إرساء إستراتيجيات وطنية وإقليمية في مجال كفاءة استخدام الطاقة وإدارة الطلب عليها وبخاصة ما يتعلق بمصادر الطاقات المتجددة ، والعمل على الاستثمارات المستدامة في مجال الطاقة الخضراء وإجراءات كفاءة الطاقة ، ووضع إستراتيجيات منخفضة الكربون للتنمية .

إزدادت في السنوات الأخيرة تجارة الطاقة المتجددة التي هي نوع من الأعمال التي تتدخّل في تحويل الطّاقات المتجددة إلى مصادر للدخل والتّرويج لها . وعلى الرغم من وجود الكثير من العوائق الّتي تمنع انتشار الطّاقات المتجددة بشكل واسع مثل كلفة الاستثمارات العالية البدائية وغيرها . إلاّ أن ما يقارب (٦٥) دولة تخطّط حاليا للاستثمار في الطّاقات المتجددة ، ووضع السّياسات اللّازمة لتطوير الاستثمار وتشجيعه في الطّاقات المتجددة، ومنها بعض دول الشرق الأوسط ، ولاسيما دولة الإمارات العربية المتحدة ، والمملكة العربية السعودية حيث بدأ القطاع الخاص السعودي بضخ مبالغ كبيرة للإستثمار في قطاع الطاقة المتجددة .

الوكالة الدولية للطاقة :

تجسد إهتمام الكثير من الدول بالطاقة الجديدة والمتجددة ، بزيادة إستثمارتها المالية في هذا القطاع ، والتعاون والتنسيق مع الدول الأخرى وتبادل الخبرات فيما بينها ، وعقد الإجتماعات والمؤتمرات ، حيث عقدت مؤتمرات دولية عديدة ، كان أولها مؤتمر الأمم المتحدة للطاقة الجديدة

والمتجددة في مدينة نيروبي الكينية عام ١٩٨١، وفيه أقترحت أول مرة فكرة إنشاء وكالة دولية للطاقة الجديدة والمتجددة ، تم تطوير هذه الفكرة فيما بعد من قبل منظمات دولية مهتمة بشؤون الطاقة المتجددة ، أبرزها المنظمة الأوربية للطاقة الشمسية . عقدت بعدها عدة إجتماعات ومؤتمرات ، أبرزها قمة التنمية المستدامة في جوهانسبرغ بجمهورية جنوب أفريقيا عام ٢٠٠٢ ، والمؤتمر الدولي للطاقة المتجددة في مدينة بون الألمانية عام ٢٠٠٤ ، والمؤتمر الدولي للطاقة المتجددة في مدينة بيجين الصينية عام ٢٠٠٥، وذلك إستجابة للشعور المتزايد بضرورة تطوير مصادر بديلة للطاقة التقليدية المعتمدة على الوقود الأحفوري أو في الأقل تقليل الإعتماد الكلي عليها ، وزيادة التعاون الدولي لتطوير تقنيات وإعتماد سياسات مناسبة لهذا الغرض .

أثمر هذا التعاون بعقد المؤتمر الأول التحضيري لإنشاء الوكالة الدولية للطاقة المتجددة في مدينة برلين عام ٢٠٠٨ وذلك بعد أربع سنوات من إقتراحها أول مرة في مدينة بون . حضي مشروع إنشاء الوكالة بموافقة (١٧٠) مشاركا يمثلون (٦٠) بلدا . عقدت بعدها بأشهر قليلة ورشتي عمل في برلين بمشاركة (١٠٠) شخص يمثلون (٤٤) دولة لمناقشة تحديد أهداف الوكالة وبرامجها وآليات عملها وسبل تمويلها التي أعتمدت لاحقا في المؤتمر الدولي الذي عقد في مدريد في العام نفسه بمشاركة (١٥٠) شخصا يمثلون (٥١) بلدا ، بعدها تم تشكيل هيئة تحضيرية للوكالة في مؤتمر بون التأسيسي عام ٢٠٠٩ الذي شارك فيه ممثلون عن (٧٥) بلدا .

عقدت هيئة الوكالة خلال الأعوام(٢٠٠٩ – ٢٠١١) خمس إجتماعات ، الأول في مدينة بون عام ٢٠٠٩ ، والثاني في شرم الشيخ في

منتصف عام ٢٠٠٩ ، وثلاثة إجتماعات في مدينة أبو ظبي في السنوات اللاحقة ، حيث أختيرت مدينة أبو ظبي مقرا للوكالة في الإجتماع الثاني المنعقد عام ٢٠٠٩ . وفي شهر نيسان عام ٢٠١١ أعلن عن تشكيل الوكالة رسميا كمنظمة دولية . يبلغ حاليا عدد أعضاء الوكالة (١٣٨) دولة ، ويتزايد عدد الدول الراغبة بالإنضمام إليها بصورة مستمرة .

انطلقت في أبو ظبي منتصف شهر كانون الثاني من العام ٢٠١٥ أعمال الدورة السنوية الخامسة للوكالة الدولية للطاقة المتجددة ، بحضور ممثلين عن (١٥١) دولة ، إضافة إلى الاتحاد الأوروبي ، بينها (٦٦) دولة ممثلة على مستوى وزاري ، وذلك في إطار اسبوع فعاليات أبو ظبي للإستدامة الذي تضمن إقامة معارض وفعاليات مختلفة ومؤتمرات ، أبرزها مؤتمر القمة العالمية لطاقة المستقبل بمشاركة عدد من قادة الدول ، حول الطاقة المتجددة والبيئة في ظل مخاوف من التأثير السلبي لانخفاض أسعار النفط العالمية على جهود تعزيز استخدام مصادر الطاقة النظيفة ، وبحث سبل توسيع نطاق انتشار حلول الطاقة المتجددة ومناقشة التطورات السريعة في صناعة الطاقة وتحديات النمو الاقتصادي المستدام وإدارة النفايات ، في وقت يستعد فيه العالم لقمة المناخ نهاية سنة ٢٠١٥ في باريس . وتضمنت الفعاليات أيضا عقد مؤتمر القمة العالمية للمياه لبحث مشكلة ندرة المياه التي تعاني من آثارها بلدان كثيرة في مقدمتها دول الخليج العربي والجزيرة العربية .

أشار تقرير الأمين العام للوكالة عن وضع الطاقة المتجددة في العالم ، إلى إن إجمالي الاستثمارات العالمية في الطاقة المتجددة بلغ (٢٦٤)

مليار دولار في عام ٢٠١٤ بزيادة (٥٠) مليار دولار عن العام ٢٠١٣، وأن قطاع الطاقة المتجددة يؤمن وظائف لنحو (٦.٥) مليون شخص في العالم ، حسب أرقام العام ٢٠١٢ ، بزيادة نسبتها (١٤٪) عن السنة السابقة . ويعد تعزيز توليد الطاقة المتجددة أساسيا في إطار المساعي العالمية للحد من الانبعاثات الكربونية والتغير المناخي . إلاّ أنه يخشى تراجع الإهتمام بتطوير مصادر الطاقة الجديدة والمتجددة في المرحلة القادمة في ضوء الإنهيار السريع والحاد في أسعار النفط في الأسواق العالمية . وهنا يتبادر إلى الذهن سؤال مشروع هل في مصلحة الدول المنتجة للنفط الإستمرار بدعم أنشطة الوكالة الدولية وبرامجها للطاقة الجديدة والمتجددة بمستوى دعمها لها في السنوات السابقة ، لاسيما أن هذه الدول تعتمد إعتمادا كبيرا في مداخيلها على مواردها المالية المتأتية من صادراتها النفطية ، فضلا عن أنها لا تمتلك مقومات وعناصر إنتاج الطاقة الجديدة والمتجددة المتمثلة بالرياح والموارد المائية اللازمة لإقامة السدود ، أما الشمس فهي متاحة لجميع دول العالم . وفي جميع الأحوال يتوقع أن تستمر الدول الصناعية بالعمل الجاد على تطوير التقنيات اللازمة لإنتاج الطاقة الجديدة والمتجددة وتخفيض تكاليفها للحد من إعتمادها على الطاقة التقليدية المستوردة من بلدان أخرى ، والتخفيف من بعض آثارها البيئية . وخلاصة القول أن على الدول المنتجة للنفط والغاز إنتهاج سياسة متوازنة تجمع بين حماية مصالحها النفطية من جهة ، والتواصل مع مستجدات وتطورات تقنيات إنتاج الطاقة الجديدة والمتجددة .

الطاقة الحيوية :

تعد الطاقة الحيوية أحد مصادر الطاقة البديلة المستدامة . يقصد بالطاقة الحيوية (وتعرف أحيانا الكتلة الحيوية) الطاقة المستحصلة من مادة عضوية . عرف الإنسان الطاقة الحيوية منذ فجر التاريخ عند قيامه بحرق الخشب لطهي طعامه أو لغرض التدفئة ، وما زال الخشب في عصرنا الراهن يمثل المصدر الرئيس للطاقة للحيوية . ساعدت التقنيات الحديثة على استخراج الوقود الحيوي المنتج للطاقة الحيوية ، على شكل سائل أو صلب أو غاز ، حيث يمكن استخدام كل منها لأغراض مختلفة :

١. تحويل الكتلة الحيوية إلى وقود سائل لإستعماله بوسائط النقل المختلفة من سيارات وطائرات وقطارات وغيرها .
٢. حرق الكتلة الحيوية مباشرة أو تحويلها إلى وقود غازي أو زيت لتوليد الطاقة الكهربائية .
٣. تحويل الكتلة الحيوية إلى مواد كيماوية لتصنيع منتجات تصنع في العادة من البترول .

أدى الطلب المتزايد على الطاقة والارتفاع المستمر بأسعار النفط الذي يعد المصدر الرئيس للطاقة ، والرغبة بالحفاظ على البيئة بالحد من آثار التلوث الذي تسببه مصادر الطاقة التقليدية ، إلى السعي لإيجاد مصادر طاقة جديدة ومتجددة وغير ملوثة للبيئة . ولأن الطاقة الحيوية طاقة متجددة ولا يؤدي استخدامها إلى انبعاث الغازات الدفيئة حيث يتم التخلص من ثاني أوكسيد الكربون الناجم من احتراق الكتلة الحيوية بامتصاصه من قبل المحاصيل الزراعية المنتجة للكتلة الحيوية إلى حد كبير ، وأن تكلفة هذه

الطاقة قليلة مقارنة بمصادر الطاقة التقليدية المعروفة . لذا فقد حظيت الطاقة الحيوية باهتمام الدول الصناعية الكبرى ، حيث يمكن الحصول على هذه الطاقة من الوقود الحيوي الذي يمتاز برخص تكلفة إنتاجه بسبب توفر مواده الأولية في كل مكان وعدم ارتباطها بأية عوامل جغرافية ، ويستخرج بالتحليل الصناعي للمزروعات والفضلات وبقايا الحيوانات التي يمكن إعادة استخدامها مثل القش والخشب والسماد ، وتحلل نفايات المنازل والمعامل والمصانع ، ومخلفات الأغذية ، وتحويلها إلى الغاز الحيوي عن طريق الميكروبات ذات الهضم اللاهوائي .

تمد الطاقة الحيوية التقليدية من الخشب والمخلفات العضوية نحو (٩٥ ٪) من احتياجات الطاقة في البلدان النامية وتشكل مصدر طاقة لنحو (٢,٤) مليار شخص . تتوقع منظمة الأغذية والزراعة للأمم المتحدة (الفاو) أن العالم سيشهد تحولا من النفط إلى مصادر الطاقة الحيوية المتجددة في ظل الأسعار المتصاعدة للنفط وتنامي القيود البيئية الخاصة بارتفاع درجة حرارة الأرض فيما بات يعرف بألإحتباس الحراري ، والقيود المفروضة بصدد انبعاث غاز ثاني أوكسيد الكربون والغازات الأخرى المنبعثة من البيوت المحمية .

يعد الوقود الحيوي أحد أهم مصادر الطاقة في دول كثيرة أبرزها البرازيل حيث يوفر ما نسبته (٣٠ ٪) من إجمالي احتياجات البرازيل من الطاقة . تعمل في البرازيل نحو مليون سيارة بوقود حيوي مشتق من قصب السكر، وأن الغالبية العظمى من السيارات الجديدة تعمل بواسطة المحركات ذات الوقود المرن . وتعد البرازيل حاليا من الدول الرائدة في مجال الطاقة

الحيوية حيث تمتلك خبرات تقنية واسعة في موضوع الوقود الحيوي ، لاسيما باستخدام الأثينول كوقود للنقل .

تعود بداية استخدام الأثينول كمادة مضافة للنفط في البرازيل إلى عقد العشرينات من القرن المنصرم . وفي خضم أزمة النفط العالمية عام ١٩٧٥ بدأت الحكومة البرازيلية برنامجها الوطني لبناء صناعة السكر والأثينول بهدف خفض إستيراداتها من النفط الذي يعد أهم مصادر توفير الطاقة في العالم ، وتطوير صناعة الأثينول لتكون الطاقة البديلة للنفط ، بإنتاج النفط المهدرج وصناعة المركبات التي يمكنها استخدام النفط المهدرج . وقد تم تطوير البرنامج عام ١٩٧٥ لتصنيع مركبات تستخدم الأثينول فقط ، كما حظي الوقود الحيوي السائل المستخدم في النقل في الآونة الأخيرة بالقسط الأكبر من النمو حيث يشكل نحو (٢ ٪) من الوقود المستخدم في النقل في العالم ، ويتوقع أن ترتفع هذه النسبة إلى (٥ ٪) بحلول العام ٢٠٣٠ . ألزم الإتحاد الأوربي الدول الأعضاء بأن يشكل الوقود الحيوي نسبة (١٠ ٪) من إجمالي وقود النقل بحلول العام ٢٠٣٠ في إطار خطة خفض إنبعاثات غازات الدفيئة بنسبة (٢٠ ٪) .

تعد الولايات المتحدة الأمريكية والبرازيل أكبر الدول المنتجة للأثينول بنسبة (٩٠ ٪) من إجمالي الإنتاج العالمي ؛ وتتوزع النسبة الباقية على كل من كندا والصين وفرنسا وألمانيا والهند . وتركز إنتاج الديزل الحيوي في دول الإتحاد الأوربي بنسبة (٦٠ ٪) من إجمالي الإنتاج العالمي ، تليها الولايات المتحدة الأمريكية والصين والهند واندونيسيا وماليزيا . تسد الطاقة الحيوية عموما نحو (١٠٪) من إجمالي احتياجات الطاقة في العالم .

أدى نمو أسواق الطاقة الحيوية وتوسعها ، والرغبة بإيجاد مصادر طاقة نظيفة ، إلى التوسع في زراعة المحاصيل المنتجة للوقود الحيوي على حساب المحاصيل الزراعية ، حيث يشير تقرير منظمة غذاء بلا حدود إلى ازدياد نسبة المزارع التي تحولت إلى منشآت لإنتاج الوقود الحيوي بنسبة (٤٨٪) في الولايات المتحدة الأمريكية نظرا للأرباح العالية الناتجة عن تخفيض الضرائب على منتجي الوقود الحيوي ، فقد ازداد حجم الذرة المستخدمة في إنتاج الأثينول بنسبة (٣٠٠ ٪) منذ العام ٢٠٠١ ، ولا يختلف الحال كثيرا في الصين والبرازيل . لذا يحذر صندوق النقد الدولي من مغبة التوسع بزراعة المحاصيل المنتجة للوقود الحيوي على حساب تقليص زراعة محاصيل المواد الغذائية ، لما لذلك من مخاطر قلة المواد الغذائية وارتفاع أسعارها وحرمان أعداد كبيرة من الناس الحصول عليها . وهذا أمر يتسبب بإلحاق أضرار بيئية واجتماعية جسيمة لا تقل أهمية عن الأضرار الناجمة من ارتفاع درجة حرارة الأرض وانبعاث غاز ثاني أوكسيد الكربون إن لم تكن تفوقها ، تتمثل هذه الأضرار بتدمير الغابات واقتلاع الأشجار والنباتات ، واستبدالها بمزارع قصب السكر ونخيل الزيت والصويا .

وقدر تعلق الأمر ببلداننا العربية فإننا لا نرى جدوى كبيرة بالتوجه نحو الطاقة الحيوية إذ ما زالت مثار جدل واسع في الأوساط الدولية من ناحية استدامتها من جهة ، ومدى خطورتها من جهة أخرى على الأمن الغذائي للكثير من البلدان لما يسببه تخصيص مساحات واسعة من الأراضي لزراعة المحاصيل المنتجة للوقود الحيوي بدلا من زراعة المحاصيل الغذائية ، مما يلحق أضرارا فادحة بالأمن الغذائي في عالم يشهد تناقصا

واضحا في المواد الغذائية ، يقابله تزايد كبير بأعداد سكان الكثير من الدول لاسيما الدول النامية ومنها البلدان العربية ، كما تعاني البلدان العربية من تناقص الأراضي الصالحة للزراعة بسبب التصحر والجفاف وشح المياه ، فهي بذلك أحوج ما تكون إلى المزيد من الأراضي الصالحة لزراعة المواد الغذائية وتأمين أمنها الغذائي ، ناهيك عن امتلاك بلداننا العربية مصادر طاقة بديلة أبرزها النفط والغاز مرتكز إقتصادات الكثير منها، وامتلاكها جميعا مصادر الطاقة المتجددة المتمثلة بالطاقة الشمسية الهائلة التي لم تستثمر بعد .

توليد الطاقة بتدوير النفايات :

لم تعد النفايات مجرد عبء ثقيل على الدول ، لما ينجم عنها من أضرار بالغة على البيئة ، نتيجة الإنبعاثات الكربونية الناجمة عنها التي تسهم بتفاقم ظاهرة الإحتباس الحراري ، بل أصبح الآن بالإمكان إستخدامها لتوليد الطاقة المتجددة التي غالبا ما تكون طاقة كهربائية أو حرارية ، وذلك بفصل القمامة وتدويرها وحرقها في أفران ومراجل لإنتاج وقود غازي لغرض توليد الطاقة الكهربائية أو إنتاج ماء ساخن لأغراض التدفئة . يتوقع حرق نصف القمامة مستقبلا لتحويلها إلى وقود سائل أو وقود غازي . تقوم تقنيات تحويل النفايات إلى طاقة بتحويل النفايات إلى أنواع مختلفة من الوقود ؛ منها : الغاز الحيوي والوقود الحيوي السائل والهيدروجين النقي التي يمكن إستخدامها مباشرة أو لأغراض توليد الطاقة الكهربائية . تعد التقنيات الفيزيائية التي تقوم بمعالجة النفايات لتجعلها أكثر فائدة كوقود ، والتقنيات الحرارية التي يمكن أن تولد الحرارة أو زيت الوقود من النفايات العضوية

وغير العضوية ، والتقنيات الحيوية التي تستخدم تخمير البكتريا لهضم النفايات العضوية لغرض إنتاج الوقود ، أبرز تقنيات تحويل النفايات إلى طاقة في الوقت الحاضر. يمكن استخدام التقنيات المتقدمة لتحويل النفايات إلى طاقة لإنتاج الغاز الحيوي (الميثان وثاني أكسيد الكربون) ، أو الغاز الاصطناعي (الهيدروجين وأول أكسيد الكربون) ، أو الوقود الحيوي السائل (الإيثانول والديزل الحيوي) ، أو الهيدروجين النقي ؛ ويمكن بعد ذلك تحويل هذه الأنواع المختلفة من الوقود إلى طاقة كهربائية .

تشير التقارير إلى زيادة كمية الطاقة المولدة من النفايات خلال الفترة الممتدة من (٢٠٠١ إلى ٢٠٠٧) بمعدل أربعة ملايين طن سنويا . تعد اليابان أكبر مستخدم لمعالجة النفايات الصلبة حراريا بحجم يقدر بنحو (٤٠) مليون طن . بدأت اليابان نشر ثقافة "فصل النفايات" ، كخطوة أولى نحو مشروع إنتاج الكهرباء من النفايات وإعادة التدوير ، فكانت الأُسرة اليابانية الواحدة تمتلك في منزلها أكثر من صندوق للنفايات ، كل منها مخصص للمخلفات بأشكالها ، منها الزجاجية والحديدية والورقية . وقد تم إنشاء أول محطة لإنتاج الكهرباء من النفايات عام ١٩٨٦ في موقع المكب داخل ميناء طوكيو ، وكانت تعمل تلك المحطة بقدرة (٩٦٠) كيلو واط ساعة ، ومنذ عام ١٩٩٧ وهي تعمل بقدرة إجمالية مقدارها (٣٤.٨) جيجا واط ساعة من الطاقة ، وقد أثبت المشروع نجاحا كبيرا في اليابان .

أدركت الصين حجم الخطر البيئي الذي تشكلها النفايات الصلبة المتراكمة أكواما في مكبات النفايات الكبيرة ، فعالجت بنفسها وبأساليب بسيطة بيئتها ، مستفيدة من عدد سكانها الضخم . دعت الحكومة الصينية

المواطنين في بادئ الأمر إلى العمل في فرز النفايات مقابل القليل من المال ، الذي زادت نسبته مع تطور الصناعة في الدولة التي اعتمدت في موادها الخام على المعاد تصنيعه . يوجد حاليا في الصين أكثر من (٥٠) مصنعا لتوليد الطاقة إلى نفايات .

يقدر عدد مصانع توليد الطاقة من النفايات في الدول الأوربية أكثر من (٤٣١) مصنعا . تولد أوربا وحدها أكبر نسبة من الغاز الحيوي أو الميثان المستخلص من النفايات أو مخلفات الحيوانات وغيرها من المواد العضوية حيث تمثل ألمانيا وحدها (٧٠٪) من السوق العالمية . وفي بريطانيا فان الغاز المستخرج من مواقع النفايات يمثل ربع الطاقة المتجددة المنتجة في البلاد ويولد كهرباء تكفي نحو (٩٠٠) ألف منزل . كما تم تشغيل اول ناقلة ركاب بسعة (٤٠) راكبا بين مدينتي برستل وباث الإنجليزيتين ، بإستخدام غاز الميثان الحيوي الناتج من تدوير الفضلات وبقايا الطعام . تستطيع الحافلة قطع مسافة (٣٠٠) كيلو متر لكل خزان وقود. ونظر النجاح تشغيل هذا النوع من الحافلات ، فقد افتتحت في مدينة ريدنج الإنجليزية محطة تعبئة غاز الميثان الحيوي الناتج من تدوير الفضلات ، لتشغيل (٣٤) حافلة غاز ميثان حيوي و(١١٣) سيارة نقل أجرة عاملة في المدينة ، وذلك بكلفة مليون جنيه أسترليني.

تعالج الدنمارك حاليا نسبة من نفاياتها تفوق ما يعالج في أي بلد آخر ، إذ يذهب نحو(٥٤٪) منها إلى محطات تحويل النفايات إلى طاقة. وتعالج السويد وبلجيكا وألمانيا وهولندا وإسبانيا وفرنسا واليابان أكثر من ثلث

نفاياتها في محطات مماثلة ، بالمقارنة مع (١٤٪) في الولايات المتحدة الأمريكية.

وفي الولايات المتحدة الأمريكية توجد تقنية توليد الكهرباء من النفايات منذ السبعينيات كما تشير بذلك بعض التقارير، حيث قامت باستخدام النفايات المحتوية على مواد عضوية التي يسهل تخمرها بواسطة البكتريا مثل الورق والقماش والخشب وبقايا الطعام لإنتاج غاز الميثان، ومن ثم إنتاج الطاقة الكهربائية . قامت بعض الشركات في الولايات المتحدة باستغلال هذا التفاعل الذي يحدث طبيعيا في مستودعات النفايات لإنتاج الميثان بطاقة تصل إلى نحو(١٤٠) ألفا من الأمتار المكعبة في اليوم ، وتتم الاستفادة من المخلفات الصلبة في الريف بطريقة مماثلة فتجمع المخلفات النباتية ، مثل حطب القطن وقش الأرز وتخلط بنفايات الحيوانات ، ثم يعرض هذا الخليط لفعل البكتريا في آبار متوسطة العمق ، ويستخدم غاز الميثان الناتج الذي يسمى في هذه الحالة باسم الغاز الحيوي في عمليتي التسخين وطهي الطعام أيضا ، وقد استخدمت هذه الطريقة في أكثر من (٩٠) مصنعا لتحويل النفايات إلى طاقة في كثير من المناطق الريفية في الولايات المتحدة الأمريكية .

وفي بلداننا العربية بدأت بلدية دبي تنظر إلى النفايات كمصدر للطاقة البديلة ، حيث يقدر حجم النفايات الصلبة التي تنتجها دول الخليج بنحو (٧٠) ألف طن يوميا إلا أن نسبة ما يعالج منها تقدر بنحو(٢٠٪) فقط. يقدر مختصون حجم خسائر دول مجلس التعاون الخليجي الناجمة عن عدم تدوير النفايات بمبلغ يتراوح بين (٥ إلى ٧) مليارات دولار سنويا. ومن

أجل استغلال هذه النفايات وتحويل الغازات المنبعثة منها لإنتاج طاقة بديلة صديقة للبيئة ، أطلقت إمارة دبي أول مشروع من نوعه في المنطقة يتم من خلاله الاستفادة من الغازات المستخرجة من النفايات بتحويلها إلى طاقة كهربائية نظيفة . تنتج هذه المحطة في الوقت الحاضر ميغا واطا واحدا من الطاقة الكهربائية . ومن المتوقع أن ينتج النظام الجديد (٢٠) ميغا واط من طاقة غاز مكبات النفايات بحلول عام ٢٠٢٠.

وقعت شركة أبو ظبي الوطنية للطاقة (طاقة) ومركز إدارة أبو ظبي للنفايات مذكرة تفاهم لبناء محطة حرارية لتحويل النفايات إلى طاقة كهربائية بقدرة (١٠٠) ميغا واط بحلول العام (٢٠١٥ - ٢٠١٦) ومعالجة مليون طن من النفايات البلدية سنويا . كما تعتزم الشركة بناء محطة لتحويل النفايات إلى طاقة بكلفة (٨٥٠) مليون دولار ، قادرة على توفير الطاقة الكهربائية بمقدار (١٠٠) ميغا واط ، تكفي لسد إحتياجات أكثر من (٢٠) ألف منزل ، يتوقع تشغيلها في العام ٢٠١٧ ، كما ستساهم بالحد من إنبعاث غاز ثاني أكسيد الكربون بأكثر من مليون طن سنويا. ويعتقد أن تكون هذه المحطة بعد إكتمالها أكبر محطة لتوليد الطاقة الكهربائية من النفايات في العالم.

أنشأت الحكومة القطرية مركزا لإدارة النفايات الصلبة المحلية بتكلفة (٢) مليار دولار . تم تصميم المركز بحيث يتم تحقيق أقصى قدر من استعادة الموارد والطاقة من النفايات عن طريق تثبيت تقنيات لفصلها ، ومعالجتها وإعادة تدويرها ، ومن ثم تحويل هذه النفايات إلى طاقة . من المتوقع أن يقلل المركز من كمية النفايات المحلية التي تدفن لتصل إلى

(٣٪ - ٥٪) مما سيقلل من نسبة النفايات التي يتم التخلص منها بهذه الطريقة بشكل عام إلى (٦٤ ٪ - ٩٢٪) .

وفي البحرين يتم تطوير محطة حرارية قرب المنامة قادرة على معالجة (٣٩٠) ألف طن من النفايات المنزلية سنويا ، وتوليد (٢٥) ميغا واط من القدرة الكهربائية التي ستغذي الشبكة الوطنية . تنفذ أمانة عمان الأردنية حاليا مشروعا لتوليد الطاقة الكهربائية من النفايات ضمن مشروع إدارة النفايات الصلبة في عمان على مراحل ، بتمويل من البنك الدولي بقيمة (٤٠) مليون دولار . وتبذل دول عربية أخرى جهودا حثيثة لإنشاء محطات توليد الطاقة من النفايات بالتعاون مع الدول الأخرى التي قطعت شوطا مهما في هذا المجال ، يؤمل أن ترى النور مشاريعها في المستقبل القريب.كما يتوقع أن تقوم معظم المدن الكبرى في العالم بحرق أكثر من نصف القمامة وتحويلها إلى وقود سائل أو وقود غازي لإستخلاص الطاقة ، وذلك لقلة المساحات المخصصة للردم والكلفة العالية لنقل القمامة .

الخاتمـــة :

أدى تزايد إستخدام الطاقة التقليدية المتمثلة في الوقود الأحفوري من نفط وغاز في الأنشطة الصناعية والزراعية والخدمية المختلفة ، ووسائل النقل وغيرها ، إلى تدهور خطير في البيئة وصحة الإنسان ، نظرا للإنبعاثات الغازية الضارة الناجمة من عمليات إحتراق الوقود ، فضلا عن مصادر الطاقة التقليدية معرضة للنفاد بمرور الوقت جراء إستنزافها الشديد ، وهو أمر دفع الكثير من البلدان إلى السعي لإيجاد مصادر طاقة بديلة نظيفة ومستدامة وصديقة للبيئة .

المراجع العلمية :

١. تقرير مجلس إدارة برنامج الأمم المتحدة للبيئة / المنتدى الوزاري البيئي العالمي/ نيروبي / كينيا / شباط /٢٠١٢ .
٢. تقارير برامج الأمم المتحدة الإنمائية للسنوات ٢٠١٢ – ٢٠١٤.
٣. توصيات مؤتمر قمة الأرض / ريو دي جانيرو / البرازيل /حزيران / ٢٠١٢.
٤. مؤتمر القمة العالمي لطاقة المستقبل المصاحب لأعمال الدورة السنوية الخامسة للوكالة الدولية للطاقة المتجددة / ابو ظبي / كانون الثاني /٢٠١٥.
٥. وقائع أعمال القمة الحكومية الثالثة / دبي / شباط / ٢٠١٥.
٦. جريو ، داخل حسن
التقنية الخضراء... تقنية صديقة للبيئة
جريدة عمان ٢٠١٢/٧/١٤ ، www.omandaily.om
٧. جريو ، داخل حسن
الطاقة الحيوية .... هل نحن بحاجة إليها ؟
جريدة عمان ٢٠١٣/٣/١٦ ، www.omandaily.om
٨. جريو ، داخل حسن
الطاقة الجديدة والمتجددة .... وتأثيراتها على الدول المنتجة للنفط
جريدة عمان ، ١/ ٢/ ٢٠١٥.www.omandaily.om
٩. جريو ، داخل حسن
توليد الطاقة بتدوير النفايات
جريدة عمان ، ١٨/ ٢/ ٢٠١٥. www.omandaily.om

مرحلة التموج في حركة السكان في مدينة بغداد الكبرى

الازدهار والتراجع

١٧٠ – ٦٥٦ هـ / ٧٨٦ –١٢٥٨ م

٦٥٦–١٢٨٦ هـ \ ١٢٥٨–١٨٦٩م(*)

الدكتور عبد علي الخفاف

جامعة الكوفة / عميد معهد الفارابي للدراسات العليا

الملخص :

يتنـاول هـذا البحـث فتـرة طويلـة مـن تـاريخ السـكان "التـاريخ الديموغرافي" لمدينة بغداد تمتد الى اكثر من ألف عام (١٧٠–١٢٨٦هـ) ويصعب البحث فيها عن واقع السكان "الواقع الديموغرافي "بفعل ضعف المصادر والمراجع . لقد تناولنا هذه الفترة في مرحلتين هما مرحلة التموج في حركة السكان ومرحلة التراجع التي اتسمت بالتراجع المستمر لواقع السكان .

(*) هذه هي المقالة العلمية الثالثة التي تناولنا فيها تاريخ السكان (التاريخ الديموغرافي) لمدينة بغداد الكبرى ... ،

أولا :- مرحلة التموج في حركة السكان :

١٧٠-٦٥٦هـ \ ٧٨٦- ١٢٥٨ماستمرت هذه المرحلة التاريخية لبغداد ٤٨٧ عاما حكم فيها ٢٥ خليفة هم :

- هارون الرشيد - ١٧٠ - ١٩٣ هـ
- محمد الامين - ١٩٣ - ١٩٨
- المأمون - ١٩٨ - ٢١٨
- محمد المعتصم - ٢١٨ - ٢٢٧ وبخلافته بدا العصر العباسي الثاني حسب تقسيم المؤرخين لتاريخ الدولة العباسية . لقد دام مقامه في بغداد اكثر من عامين بقليل ، بعدها اضطر الى الانتقال الى "سر من رأى - سامراء" التي حكم فيها ٧ خلفاء ابتداءً منه وقد جاء من بعده الخليفة الواثق هارون بن المعتصم وانتهاءَ بالخليفة المعتمد بن احمد بن المتوكل الذي عاد بالخلافة الى بغداد ، وبذلك بقيت سامراء عاصمة للخلافة العباسية نحو ٥٨ عاما .

بعد الحكم في سامراء عادت بغداد عاصمة الخلافة العباسية وحكم فيها ٢٢ خليفة هم :

- احمد المعتضد - ٢٧٩ - ٢٨٩ هـ
- علي المكتفي - ٢٨٩ - ٢٩٥
- جعفر المقتدر بالله - ٢٩٥ - ٣٢٠

- محمد القاهر بالله – ٣٢٠ – ٣٢٢
- محمد الراضي بالله – ٣٢٢ – ٣٢٩
- ابراهيم المتقي لله – ٣٢٩ – ٣٣٤
- عبد الله المستكفي بالله ٣٣٤-٣٣٨
- الفضل المطيع لله ٣٣٨-٣٦٣
- عبد الكريم الطائع لله ٣٦٣-٣٨١
- احمد القادر بالله ٣٨١-٤٢٢
- عبد الله القائم بامر الله ٤٢٢-٤٦٧
- عبد الله المقتدي بامر الله ٤٦٧-٤٨٧
- احمد المستظهر بالله ٤٨٧-٥١٢
- الفضل المسترشد بالله ٥١٢-٥٢٩
- منصور الراشد بالله ٥٢٩-٥٣٠
- محمد المقتفي لامر الله ٥٣٠-٥٥٥
- يوسف المستنجد بالله ٥٥٥-٥٦٦
- الحسن المستضيء بالله ٥٦٦-٥٧٦
- احمد الناصر لدين الله ٥٧٦-٦٢٢
- محمد الظاهر بامر الله ٦٢٢-٦٢٣

- منصور المستنصر بالله ٦٢٣-٦٤٠

- عبد الله المستعصم بالله ٦٤٠-٦٥٦. [1]

انها مرحلة تاريخية مهمة اقتصاديا واجتماعيا انعكست اثار التقدم الاقتصادي الاجتماعي فيها على نمو السكان و تطور العمران الذي توقف ببداية الدور البويهي حيث دخلت بغداد فترة طويلة من التدهور السياسي.

شهدت المرحلة انتقال العاصمة / مركز الخلافة / الى سامراء وقد استمرت ٥٨ عاما فيها كما اشرنا ، وذلك ما بين (٢٢١ - ٢٧٩ هـ) (٨٣٦ - ٨٩٢ م) . ولاشك في ان انتقال مركز الخلافة تسبب في تراجع بغداد اقتصاديا واجتماعيا ومن ثم سكانيا .

اتسم مطلع هذه المرحلة بالنمو الاقتصادي وبالتطور الاجتماعي مما تسبب في نمو السكان وتقدم العمران ، فقد جاء نمو السكان بشكل مطرد وسريع وذلك بفعل اسباب الجذب السكاني الى المدينة ، فبغداد ذات موضع يتسم ببيئة جغرافية مشجعة على الهجرة إليها ، كما ان مكانتها مركزا للخلافة جعلت منها مدينة ذات نشاطات اقتصادية متنوعة و الى جانب ذلك فان

---

[1] تم الاعتماد في تحديد سنوات حكم الولاة علي مرزة ، منذر جواد (٢٠٠٧) بغداد وحاكموها عبر العصور – مطبعة الغري الحديثة – النجف – ص٢٣٢ – ص٢٣٦ (وعند مراجعتنا : اتضح ان المؤلف اعتمد على) :-

- الحافظ جلال الدين عبد الرحمن بن ابي بكر السيوطي – تاريخ الخلفاء .
- كمال الدين الدميري – حياة الحيوان الكبرى .
- الطبري ، ابو جعفر محمد بن جرير – التاريخ .
- ابن الاثير ، ابو الحسن علي بن الكرم الشيباني الجزري – الكامل في التاريخ .

العباسيين الغوا قيود الهجرة وهي القيود التي وضعت نهاية العصر الاموي.[٢]

نحن نرى أن إلغاءهم قيود الهجرة الى بغداد يعود الى التلاشي النسبي للتعصب القومي ، العربي ، الذي ميز اليات العمل السياسي في الدولة الاموية ، لقد فتح العباسيون ابواب بغداد على مصراعيها للمهاجرين الوافدين الباحثين عن مدارس العلم والمعرفة والباحثين عن اسباب الرزق . يضاف الى ذلك، ما هو معروف ، عن اعتماد العباسيين على عناصر الاعاجم من مختلف الاثنيات في اسقاط الدولة الاموية .

أدى العامل الاقتصادي ، حيث اتسعت اسواق بغداد لأعمال الصناعات والحرف وللخدمات بأنواعها المختلفة وللتجارة ، دورا مهما في اتساع سوق العمل بدءا بأعمال البناء والحدادة والنجارة وإنتهاءً بأعمال التجارة والصيرفة . ولابد ان تزايد الطلب على الايدي العاملة في بغداد تسبب في حصول اول تيارات الهجرة الريفية اليها ، الى جانب الهجرة من حواضر العراق الاخرى وهذه جميعها هي تيارات الهجرة الداخلية .

يؤشر " اليعقوبي " دور هذه الهجرة في نمو السكان وتزايد اعدادهم في بغداد، فيذكر انتقال الناس اليها من جهات مختلفة من العراق ، ومن بين ما هاجر اليها وجوه واعيان من مدينتي البصرة والكوفة وكانتا يومذاك هما

---

[٢] محمد علي ، ابراهيم ميرزة (٢٠٠٨) مدينة بغداد ، الابعاد الاجتماعية وظروف النشأة ، دراسة بنائية تاريخية – الطبعة الاولى – الحضارية للطباعة والنشر – بغداد – ص ١٦٩ .

العراق[٣]. ولم تقتصر الهجرة الى بغداد على داخل العراق بل توجهت اليها اعداد من الوافدين من العديد من بلدان العالم لاسيما تلك المحيطة بالعراق والقريبة منه ، حتى وصفت بغداد بالمدينة الدولية بفعل تنوع الاثنيات التي تعيش فيها ، فقد كان مجتمع بغداد خليطا اثنيا يتعايش الناس فيه من امم شتى ومن مختلف الاجناس ، ممن وفدوا اليها طلبا للعلم و للعمل وكسب الرزق او ممارسة المهن المتنوعة او من الارقاء والمجندين .

لقد لعب العامل الثقافي (العلمي) الى جانب العامل الاقتصادي دورا مهما في الهجرة فلم تقتصر الهجرة على الباحثين عن مصدر للرزق بل توجه الى بغداد عدد كبير من الراغبين في متابعة العلم والمعرفة في مدارس بغداد ومجالسها. ولابد من التنويه الى تنامي نشاط اقتصادي مهم وهو ما يطلق عليه اليوم باقتصاد المالية ، فتؤشر المصادر تطور النظام المصرفي واتساع اعمال الصرافين والجهابذة وكانت لهم اسواق خاصة في القسم الغربي من المدينة (جانب الكرخ) .[٤]

أن للخلفاء العباسيين دورهم في تنمية اقتصاد المدينة وازدهاره ، فقد ارادوا لبغداد مكانة اقتصادية متميزة مثل مكانتها السياسية حتى أصبحت

---

[٣] اليعقوبي ، احمد بن ابي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح – البلدان -- (وضع حواشيه محمد امين ضناوي) الطبعة الاولى (٢٠٠٢) (منشورات محمد علي بيضون) دار الكتب العلمية / بيروت / ص ٤٦ .

[٤] في موضوع النشاطات والمهن المالية ، الصيرفة والجهبذة ، ينظر الى : الدوري ، عبد العزيز (١٩٩٩) تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري (مركز دراسات الوحدة العربية) الطبعة الرابعة ، ص ١٨٣ – ١٩٨ .

مركزا دوليا كبيرا للتجارة. فباتت الاسواق من معالم الحياة في جانبي المدينة الكرخ والرصافة ، وكان لكل تجارة سوقها الخاص بها ، ومن بين هذه الاسواق : سوق العطارين وسوق باعة القماش وسوق الصاغة وسوق الوراقين وسوق باعة الغنم وغيرها من الاسواق ، وثمة اسواق معروفة للتجار الاجانب تتركز في باب الشام .

لم تكن هذه الاسواق صغيرة فسوق الوراقين ، على سبيل المثال ، كانت تضم اكثر من مائة حانوت ، على ان هذه الأسوق تعد من الاسواق التخصصية التي لا يعنى بها سوى النخبة من المؤلفين والكتّاب . ولابد من الاشارة ان لكل تجارة ولكل حرفة شيخ تعينه السلطة (الحكومة) ولكل حرفة صانع واستاذ كما يقول بذلك "اخوان الصفا " .[٥]

لقد نتج عن الواقع الاقتصادي الجديد ، واقع التجارة والصناعات ، المهن والحرف ، مجتمع جديد تبدلت فيه العلاقات القبلية الى علاقات مدنية وعلاقات أساسها مصالح العمل ، وبفعل هذه المصالح انصبت المكونات الاثنية في بوتقة المجتمع الحضري Urban Society حتى برزت ظاهرة "التوليد" او المولدين ، اي الامتزاج بين العناصر العربية واهل البلاد التي تم فتحها من قبل العرب المسلمين ، انها ظاهرة اجتماعية شهدتها المدن العربية نتيجة الاختلاط والزواج كما شهدتها مدينة بغداد.لقد اتسعت هذه الظاهرة في المجتمع العباسي ، فبيوت الخاصة ، من الخلفاء والامراء والتجار تضم مزيجا اثنيا من عدد من الاجناس والقوميات ، من ذلك اكتسب جيل المولدين

---

[٥] محمد علي ، إبراهيم ميرزة ، المصدر السابق – ص١٦١ .

في المجتمع العباسي البعض من السمات المميزة له ، وكان له دور في خلق انماط اجتماعية متنوعة بفعل التركيبة العربية الاعجمية (الاجنبية) .

تزايدت بشكل كبير ، اعداد اهل الذمة في بغداد ، وفي مدن العراق الرئيسة مثل البصرة والكوفة وواسط ، كذلك تزايدت اعداد الرقيق والعمال الاجانب ، فقد توسع العباسيون في جلب الرقيق ، وكان في بغداد شارع يسمى بشارع "دار الرقيق" [٦]. ان جميع هؤلاء يمثلون عناصر الهجرة الخارجية ، انهم الوافدون من بلاد فارس وبلاد ما وراء النهر ومن تركستان ومن جهات افريقيا . نعتقد ان سنوات حكم الخلفاء هارون الرشيد والامين والمأمون هي سنوات الهجرة الى بغداد ، الهجرة الداخلية والهجرة الخارجية ، فكانت العامل السكاني الرئيس وراء تزايد اعداد السكان في المدينة بصورة مطردة وسريعة .

على وجه التحديد توصف اعوام حكم الخليفة هارون الرشيد بأنها الفترة الذهبية لخلافة بني العباس ، فكانت فترة الازدهار الاقتصادي الذي عكس اثاره في التطور العمراني والتقدم الاجتماعي والثقافي ، ولاشك في ان هذا الازدهار والتقدم يعود الى حالة الاستقرار السياسي . فقد اتسعت بغداد اتساعا كبيرا فقد بلغ العمران في الجانب الغربي من باب قطربل في الشمال حيث تقع الكرخ الى قناة عيسى الكبرى وامتدت العمارة غربا حتى

---

[٦] المصدر نفسه – ص١٧٠ .

المحول ، اما الجانب الشرقي فقد شهد اتساعا من باب الشماسية حتى المحرم .[٧]

ان مؤشرات هذا الازدهار والتقدم هي كثرة الحمامات وكثرة المكتبات وتعدد الاسواق المتخصصة ، مثل سوق الاطعمة وسوق الحيوانات وسوق السلاح وسوق الوراقين وسوق الالبسة وسوق العطور ، كما سبقت الاشارة الى ذلك ، وعبّر عن حالة بغداد العديد من المؤرخين ومنهم المؤرخ الخطيب البغدادي في سفره الشهير " تاريخ بغداد " بقوله : وأكثر ما كانت بغداد عمارة واهلا في ايام الرشيد .[٨]

اننا نقدر المعدل السنوي لنمو السكان في أعوام حكم الرشيد (١٧٠ – ١٩٣) بحدود ١,٥٪ و يمثل المعدل ١٪ النمو الطبيعي الناتج عن الفرق ما بين الولادات و الوفيات ، ويمثل ٠,٥٪ النمو الحاصل بفعل الهجرة الى المدينة .

ان حساب نمو السكان على اساس المعدل ١,٥٪ يعني زيادة عدد سكان المدينة من ٥٠٠٠٠٠ نسمة ، ايام ابو جعفر المنصور ، الى ٧٠٤١٨٨ نسمة ، لقد حصل هذا النمو بمتوسط سنوي مقداره ٣٠٦١٧ نسمة و كان منه بحدود ١٠٢٠٥ نسمة زيادة بفعل الهجرة الى المدينة . لقد نشطت الهجرة

---

[٧] الطبري ، ابو جعفر محمد بن جرير (تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم) ، (١٩٦٦) ، تاريخ الرسل والملوك ، الطبعة الثانية ، ج ٧- دار المعارف – مصر ، ص ٣١٦ .

[٨] حسين ، خليل شاكر (١٩٩٠) التطور التاريخي لمدينة بغداد بعد مرحلة التأسيس (المعالم العمرانية) (ندوة بغداد في التاريخ) جامعة بغداد / كلية التربية الأولى .

الـى بغـداد ، الداخليـة و الخارجيـة ، فـي عهـد حكـم هـارون الرشـيد والامـين والمـأمون ، فكانـت العامـل المهـم وراء زيـادة اعـداد السـكان بشـكل سـريع ومطرد .

نؤشر بعض اقوال الخطيب البغدادي "التي نستدل منها على كبر حجم بغداد ، اي حجم السكان فيها : قال : علي بن المحسن التنوحي : اخبرني ابي ، قال ابو القاسم ابن الحسن الديلمي ، قال : سافرت في الافاق ودخلت البلدان من حد سمر قند الى القيروان ، ومن سرنديب الى بلد الروم ، فما وجدت بلدا افضل ولا اطيب من بغداد " " قال محمد بن سلام : سمعت ابا الوليد يقول : قال لي شعبة : ادخلت بغداد ؟ قلت : لا ، قال : فكأنك لم ترَ الدنيا "

"وسأل الامام الشافعي صاحبه يونس : يا يونس ادخلت بغداد "

"وقال ابو اسحاق الزجاج : بغداد حاضرة الدنيا وما عداها بادية "

"وقدم عبد الملك بن صالح العباسي الى بغداد فرأى كثرة الناس فيها ، فقال : ما مررت بطريق من طرق هذه المدينة الا ظننت ان الناس قد نودي بهم ، فقد ازدحمت بغداد بسكانها واتسعت حتى شملت مساحة واسعة من الارض على جانبي دجلة ، وقامت فيها حارات هي اشبه بمدن ، بجمالها.[٩]

---

[٩] الخطيب البغدادي ، ابو بكر احمد بن علي – تاريخ بغداد او مدينة السلام / منذ تاسيسها حتى سنة ٤٦٣ هـ / المجلد الاول ، ج٥ ، دار الفكر للطباعة والنشر ، مصر ص٦٦– ص٧٠ .

ومما يؤشر تعاظم حجم السكان وتزايد اعدادهم ما حصل من اقتطاع القطائع خارج بغداد المدورة فكان ذلك بمثابه البداية لبناء الضواحي – Suburban – وكانت اولى هذه الضواحي قد بنيت عند ابوابها مثل ضاحية العباسية الغنية ببساتينها ، وكانت هذه الضواحي ذات وظائف خدمية و لاسيما خدمة المسافرين ، ففيها الخانات واصطبلات الخيل ، وبعد تزايد اعداد السكان فيها وتطورها تعددت الوظائف الحضرية التي تقدمها ، ويصبح لها مسجدها الخاص ويتردد اليها الخلفاء فكان المأمون يتردد على ضاحية الشماسية خارج المدينة المدورة .

وتشير مصادر تاريخ بغداد الى ظهور الاحياء الارستقراطية مثل الظاهر والشماسية والمأمونية ودرب عون ، وتوجد فيها احياء الطبقة المتوسطة مثل قطيعة الكلاب ونهر الدجاج ، الى جانب بيوت العامة من الناس . وبشكل عام توصف البيوت بأنها من طابقين ولها حمامات ، وكانت السجاجيد والستائر والوسائد من مفردات الاثاث التي يمكن ملاحظتها ، كما تشير هذه المصادر الى كثرة اعداد المساجد والحمامات .(*)

منذ عام ٢٢١هـ بدأ عدد السكان يتراجع على اثر نقل عاصمة الخلافة الى سامراء فنحو نصف عدد السكان انتقل مع الخليفة ، وهم الحاشية و الجيش وبقي تيار الهجرة مستمراً الى خارج بغداد حتى ٢٣١هـ وفي الاعوام

(*) وصف الرحالة "ابن جبير " بغداد في رحلته ايام الناصر لدين الله (٥٧٦- ٦٢٢هـ) وصفا يدل على مدى تقدمها الاقتصادي الاجتماعي السكاني . صحيح ان هذه الرحلة حصلت في زمن لاحق لمطلع الفترة التاريخية التي نحن بصددها الا ان هذا التقدم الذي وصفه لابد انه كان حصيلة لسنوات طويلة سابقة لرحلته .

٣٢٠ – ٣٦٧ هو الاعوام ٣٧٢ –٤٥٠ هـ شهدت حالات من التوقف او من التراجع في اعداد السكان بفعل الحروب لاسيما ما بين ٢٥٥–٢٧٠هـ فتشير المصادر الى مقتل [١٥٠٠٠٠٠] نسمه [١٠] . على مدى اكثر من ٢٥٠ عاما وقد يكون هذا العدد مبالغ فيه.

ولم يقتصر الامر على ضحايا الحروب والمعارك بل كانت اعوام هذه الحروب اعوام استثنائية ، يتوقف فيها الحراك الاقتصادي وتظهر المشكلات الاجتماعية المتنوعة وتضعف ادارة الدولة وخدماتها وبالتالي يتدهور الوضع الصحي فتنتشر الاوبئة والطواعين بشكل خاص ، وكان اعظمها ما حصل في عام ٢٥٨ هـ فيشير " ابن الاثير " (....... فهلك ...... خلق كثير ببغداد وواسط وسامراء وغيرها ....)[١١]. ويذكر " ابن الجوزي " ان وباء الطاعون قد ظهر في الأحواز ثم انتشر في العراق ... وكان يموت كل يوم ببغداد خمسمائة الى ستمائة .[١٢]

وفي عام ٣٢٠ هـ تعرض سكان بغداد الى الطاعون والى القحط ، ففي ربيع هذا العام كثرت الأمراض الحادة منذ شباط وكثر الموت .....[١٣] واستمرت الفتن وتدهورت الحالة الاقتصادية الاجتماعية وعم الجوع حتى

---

[١٠] ابن الاثير ، أبو الحسن علي بن الكرم الشيباني الجزري (١٩٧٨) الكامل في التاريخ ، ج ٥ ، بيروت ، ص ٧٥ .

[١١] المصدر نفسه ، المجلد السابع -- ص٢٥٦ .

[١٢] ابن الجوزي ، ابو الفرج جمال الدين عبد الرحمن – مناقب بغداد (تحقيق محمد بهجت الاثري) (١٣٤٢هـ) الجزء الخامس ، دار السلام / بغداد / ص ٨ .

[١٣] المصدر نفسه – الجزء السادس – ص٢٤٠ .

عام ٣٦٧هـ فكانت طوال هذه الفترة حالة تراجع سكاني . لقد قضى موت عضد الدولة عام ٣٧٢ هـ - ٩٨٢ م على الاستقرار السياسي والاقتصادي في بغداد وفي العراق عموما ، مما نتج عنه تدهور كبير في الاوضاع الاجتماعية ، فتتوقف في مثل هذه الظروف حركة الزواج وترتفع معدلات وفيات الاطفال الرضع ووفيات ما حول الولادة ، وجميع ذلك عوامل لتراجع عدد السكان . والمعروف ان بغداد شهدت في الاعوام (٣٧٢ -٤٥٠)هـ اوضاعا من الفوضى السياسية والضعف الإداري وحالات الاقتتال بين السلاطين والامراء البويهيين وجيوشهم ، ومن المتوقع ان يصاحب هذه الاوضاع الجوع وانشار الاوبئة ، فقد حصل ان مات كثير من الناس جوعا عام ٣٧٣هـ .[١٤]

واجتاح الجدري بغداد والعراق عموما ما بين ٤٢١-٤٢٣ هـ ويذكر انه في عام ٤٢٥ هـ مات في بغداد اكثر من ٧٠٠٠٠ نسمه [١٥] وفي عام ٤٤٧هـ دخل السلاجقة بغداد ودخل مع السلطان (طغرلبك) افراد جيشة الذين يقدرون ٥٠٠٠٠ مقاتلا [١٦] فكان هذا العدد قد شكل ضغطا سكانيا

---

(١٤) المصدر نفسه - الجزء السابع - ص١٢١ .

(١٥) المصدر نفسه - الجزء الثامن - ص٧٩ .

(١٦) محمد ، خضير جاسم (١٩٧٩) ، بغداد منذ تأسيسها حتى الغزو المغولي ، دراسة في التغيرات السكانية ، مجلة التربية والعلم ، كلية التربية ، جامعة الموصل ، العدد الأول ، ص١٤٦ ، عن : محمد عمراني ، تاريخ ، مخطوطة المكتبة الوطنية بباريس ، ورقة رقم ٣١٢ .

تسبب في الغلاء ونقص المواد الغذائية ، انها زيادة سكانية في ظروف اقتصادية وامنية غير مشجعه .

في مثل هذه الظروف تبرز الاسباب القوية التي تدفع الناس الى الهجرة ، وهذا ما حصل في بغداد فقد هاجرت اعداد كبيرة من الناس الى خارجها عام ٣٧٧ هـ بفعل الغلاء الشديد وبفعل الحرب ما بين الاتراك والديلم عام ٣٧٩ هـ والفتن في الاعوام ٣٨١ - ٣٨٤ هـ والاعوام ٣٩١ - ٣٩٣ هـ فكانت سببا في نزوح الديلم ومغادرتهم لبغداد .[١٧]

كان للعوامل الطبيعية تأثيرها في التراجع السكاني ، وبشكل خاص في النزوح من بغداد ، وهذه العوامل كانت الفيضانات المدمرة مرة والقحط والمجاعات وشحه المياه مرة اخرى .هكذا نلاحظ دور العوامل البشرية ودور العوامل الطبيعية في حركة السكان والتأثير في نموهم وتراجع هذا النمو . نتوقع ان استقرار الوضع الامني والاقتصادي والاجتماعي ، نسبيا ، على مدى١٠ اعوام هي ما بين ٤٧٠-٤٨١ عاما شجع على عوده نمو السكان باتجاه الزيادة وذلك بفعل اثر الزيادة الطبيعية الناتجة عن الفرق ما بين الولادات والوفيات والتي حصلت نتيجة توجه الناس الى الزواج ، فلم تذكر مصادر تاريخ بغداد اية نكبة سياسية او اقتصادية او انتشار لوباء او حصول لفيضانات او مجاعة في هذه الاعوام العشرة . واذا ما توقف النمو السكاني بعد هذا العقد من الاعوام فان ٨٥ عاما التي تلته ، ٥٥٥-٦٤٠ هـ كانت أعوام قد عرفت نمو السكان ، فكان لعامل الهجرة

---

[١٧] ابن الاثير ، – المصدر السابق ص٤٩ .

القسرية الى بغداد اثر واضح في هذا النمو ، والهجرة القسرية حصلت بنزوح اعداد كبيرة من سكان الريف المحيط ببغداد والقريب منها هربا من جيوش المغول التي دخلت هذه المناطق من العراق ، انها هجرة قسرية ، فقد حاولت اعداد المهاجرين الاحتماء ببغداد ، وقد تسببت في حصول الضغط على المواد الغذائية وعلى الخدمات المطلوبة فظهرت المشكلات الاقتصادية والمشكلات الاجتماعية . بشكل عام فأننا نقدر اعداد السكان في بغداد قبل كارثة المغول بحدود ١٠٠٠٠٠٠ نسمة .

إن الاساس السكاني (الديموغرافي) في هذه المرحلة من تاريخ بغداد هو النمو لا سيما في خلافة هارون الرشيد والامين والمأمون ، ونشطت الزيادة الطبيعية مع عامل الهجرة في هذا النمو ، حيث توجهت تيارات الهجرة الداخلية الى جانب الهجرة الخارجية المتمثلة بالوافدين من الفقهاء والعلماء والادباء والكتاب وكذلك الباحثين عن العمل ، من العمال ومن الفنيين .

بشكل عام فان التاريخ السكاني (التاريخ الديموغرافي) لبغداد على مدى هذه المرحلة التي تقترب من ٥٠٠ عاما لم يؤشر اتجاها واحدا لحركة السكان ، بل كان يحصل الاتجاه نحو النمو وزيادة الاعداد وسرعان ما تظهر الاسباب التي تقود الى التوقف والى التراجع.

لقد توالى العباسيون على خلافة الحكم في بغداد في خمسة عصور كما حددها المؤرخون ، وكما تمت الاشارة اليها ، وقد تركز ازدهار مدينة بغداد اقتصاديا واجتماعيا ومن ثم سكانيا في ما حدده المؤرخون بالعصر العباسي الاول (١٤٥ - ٢١٨ هـ) (٧٦٢ - ٨٣٣ م) والذي توالى الخلافة فيه كل من :-

- ابو جعفر المنصور (١٣٦-١٥٨هـ) (٧٥٢-٧٧٥م)
- المهدي (١٥٨-١٦٩هـ) (٧٧٥-٧٨٥م)
- موسى الهادي (١٦٩ - ١٧٠هـ) (٧٨٥-٧٨٦م)
- هارون الرشيد (١٧٠-١٩٣هـ) (٧٨٦-٨٠٩م)
- محمد الامين (١٩٣-١٩٨هـ) (٨٠٩-٨١٤ م)
- عبد الله المأمون (١٩٨ -٢١٨هـ) (٨١٤ -٨٣٤ م)

فأخذت حركة السكان اتجاها واحدا نحو النمو المطرد في مرحلتين حسب تقسيمنا لتاريخ السكان في مدينة بغداد ، هما مرحلة التأسيس والنشأة وبداية مرحلة التموج السكاني لاسيما في الاعوام التي شهدت حكم هارون الرشيد ومحمد الامين وعبد الله المأمون رغم ان حالة الصراع التي حصلت بين الخليفتين الاخوين لا بد وان كان لها تأثيرها على هذا الازدهار ، الا انه يبدو ان محدودية هذا التأثير كانت بفعل قصر فترة الصراع . اننا نقدر عدد السكان عند نهاية فترة الازدهار الاقتصادي الاجتماعي السكاني بحدود ١٠٠٠٠٠٠ نسمه كما تمت الا شارة الى ذلك.

التراجع الذي حصل لبغداد كان بفعل غزو التتار لها وتخريب معالم الحضارة فيها ، فسقطت سياسيا واقتصاديا وتدهورت اجتماعيا وثقافيا وعمرانيا ولكل اشكال السقوط هذه دورها في تراجع حجم السكان فيها فقد تحولت من مدينة مليونيه في القرن العاشر الى قرية متدهورة .

بشكل عام فان الاعوام ما بين ١٧٠ – ٢٢٠هـ هي أعوام نمو مطرد للسكان تلتها أعوام من التراجع المطرد ايضا وذلك بعد نقل مقر الخلافة الى سامراء . استمر التراجع حتى عام ٢٨٠هـ حيث حصلت العودة الى بغداد عاصمة للخلافة العباسية فاتجه مؤشر السكان نحو النمو حتى العام ٣٤٠هـ حيث اصبح المؤشر غير مستقر يتجه نحو النمو و الزيادة مرة و نحو التراجع مرة ثانية حتى دخول هولاكو الى بغداد فحولها الى قرية مخربة. والجدول و الشكل البياني يؤشران حالة النمو والتراجع .

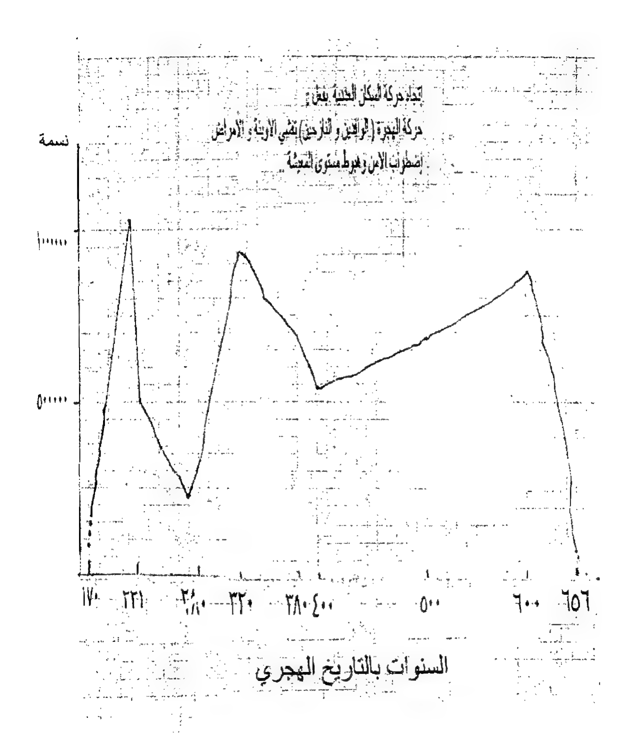
الجدول (٣) حالة النمو و التراجع في سكان مدينة بغداد الكبرى

السنة (هـ)	عدد السكان	الحالة
١٧٠	٥١٥١١٢	هجرة للعمل في دوائر الحكومة ببغداد
١٨٠	٥٩٧٨٠٨	نمو بمعدل ١,٥ ٪
١٩٠	٦٩٣٧٨١	استمرار النمو بنفس المعدل
٢٠٠	٨٠٥١٦١	استمرار النمو بنفس المعدل
٢١٠	٩٣٤٤٢٢	استمرار النمو بنفس المعدل
٢٢٠	١٠٨٤٤٣٥	استمرار النمو بنفس المعدل
٢٢١	٥٤٢٢١٧	انتقال نصف السكان مع انتقال الحكومة الى سامراء
٢٣٠	٢٣٣٤٠٦	تراجع في عدد السكان (-٠,١٠٪)
٢٤٠	٢١٩٧٠٩	تراجع بمعدل (-٠,٦٪)
٢٥٠	٢٣٠٩٤٤	نمو بمعدل (٠,٥٪)
٢٦٠	٢٢٨٦١٧	استمرار التراجع
٢٧٠	٢١٧٤٤٠	استمرار التراجع
٢٨٠	٦٣٢٥٥٤	هجرة الى بغداد وعودة الخلافة (١٪)
٢٩٠	٦٩٨٧٣٣	نمو طفيف
٣٠٠	٧٧١٨٣٦	نمو طفيف

نمو طفيف	٨٥٢٥٨٧	٣١٠
نمو طفيف	٩٢٩٦٦٥	٣٢٠
نمو طفيف	٩٠٢١٤٨	٣٣٠
تراجع طفيف	٨٧٥٤٤٥	٣٤٠
نمو طفيف	٨٨٤٢٣٩	٣٥٠
نمو طفيف	٨٩٣١٢١	٣٦٠
نمو طفيف	٩٠٢٠٩٢	٣٧٠
تراجع طفيف	٧٧١١١١	٣٨٠
تراجع	٦٣١٨٥٣	٣٩٠
تراجع	٥٤٥٥٣٨	٤٠٠
نمو بفعل الهجرة القسرية من الريف (لجوء الى بغداد)	٦٩٥١٤٢	٥٠٠
استمرار الهجرة	٨٨٣٩٠٥	٦٠٠
كارثة المغول	٣٠٠٠٠	٦٥٦

يلخص لنا الجدول واقع السكان على مدى ٤٨٦ عاما من النمو والزيادة ومن التراجع والتناقص العددي وذلك بفعل تأثير العوامل الادارية والامنية والاقتصادية ومدى انتشار الامراض و الاوبئة .

الشكل رقم (٢)



تبدأ حركة السكان الكلية بفعل :
حركة الهجرة (الوافدين والنازحين) تفشي الأوبئة والأمراض
اضطرابات الأمن وهبوط مستوى المعيشة
نسمة
١٠٠٠٠٠٠
٥٠٠٠٠٠
١٧٠
٢٢١
٣٢٠
٣٨٠
٤٠٠
٥٠٠
٦٠٠
٦٥٦
السنوات بالتاريخ الهجري

ثانيا: مرحلة التراجع : ٦٥٦- ١٢٨٦هـ / ١٢٥٨- ١٨٦٩م

امتدت هذه المرحلة من التاريخ السكاني (التاريخ الديموغرافي) لمدينة بغداد نحو ٦٠٠عاما ، بدأت بعد سقوط بغداد على يد "هولاكو" حفيد جنكيز خان قائد المغول الاول الذي زحف بجيوشه من اواسط اسيا واتجه غربا . انها مرحلة السيطرة الاجنبية على العراق ومرحلة الصراع السياسي والتدهور الاقتصادي الاجتماعي والتراجع السكاني ، لا في بغداد فقط ، بل في جميع انحاء العراق .

لقد تولى الحكم على بغداد :

١- الاليخانيون ٦٥٦-٧٣٨هـ / ١٢٥٨-١٣٣٨م .

٢- الجلائريون ٧٣٨- ٨١٤هـ / ١٣٣٨ - ١٤١١ م .

٣- التركمان أسرة مرة ترينلو " دولة الخروف الاسود " ٨١٤ - ٨٧٤هـ/ ١٤١١-١٤٦٨ م .

٤- التركمان اسرة اق ترينلو " الخروف الابيض " ٨٧٤-٩١٤هـ / ١٤٦٨ - ١٥٢٣م .

٥- الصفيون ٩١٤ - ٩٣٠هـ / ١٥٢٣-١٥٣٩م .

٦- الاكراد / أسرة كلهور الكردية ٩٣٠ - ٩٣٦هـ / ١٥٣٩-١٥٤٥.

٧- عودة الصفويين ٩٣٦ - ٩٤١ هـ / ١٦٣٥ - ١٦٥١ م .

٨- العثمانيون (الاتراك)٩٤١ - ١٠٣٢ هـ / ١٥٤٤- ١٦٣٥م .

٩- عودة الصفويين ١٠٣٢- ١٠٤٨هـ / ١٦٣٥ - ١٦٥١ م .

١٠- عودة العثمانيين الاتراك ١٠٤٨ - ١٣٣٥ هـ / ١٦٥١ - ١٩١٧ م .

تنتهي هذه المرحلة من التاريخ السكاني (التاريخ الديموغرافي) لمدينة بغداد قبل ان تنتهي عودة العثمانيين لحكم العراق ثانية ، انها تنتهي في عام ١٢٨٦ هـ / ١٨٦٩م حيث تولى حكم العراق الوالي" مدحت باشا" ، لقد تولى حكم بغداد في هذه المرحلة ١١٨ واليا فكان متوسط اعوام الحكم لكل منهم هو ٥ أعوام فقط ، على ان الواقع الفعلي يؤشر استمرار البعض منهم في الحكم الى اكثر من ٢٠ عاما ومن هؤلاء الحكام :-

- احمد الجلائري / حوالي ٣٢ عاما / ٧٨١ - ٨١٣ هـ/ ١٣٨٢ - ١٤١٤ م .
- جهان شاه بن قره يوسف / اكثر من ٢٣ عاما /٨٤٨ - ٨٧٢ هـ / ١٤٤٤ - ١٤٦٧م .
- سليمان باشا الكبير /٢٣ عاما /١١٩٤ - ١٢١٧ هـ / ١٧٨٠ - ١٨٠٣ م .
- محمد بن قره يوسف /٢٢,٥ عاما / ٨١٤ - ٨٣٦ هـ /١٤١١ - ١٤٣٢ م .
- ابو سعيد بهادر / ٢٠ عاما /٧١٦ - ٧٣٦ هـ / ١٣١٦ - ١٣٣٥ م .
- حسن باشا الجديد / حوالي ٢٠ عاما / ١١١٦ - ١١٣٦ هـ / ١٧٠٤ - ١٧٢٣ م .

بينما تؤشر مراجع التاريخ الى ٤٤ حاكما لبغداد لم يستمر حكم كل واحد منهم اكثر من عام والبعض منهم لم يستمر سوى لبضعة اشهر او بضعة ايام ، فحاكم بغداد " عبدي باشا " لم يحكم بغداد سوى ١٧ يوما فقط من عام ١١٩ هـ /٧٧٦ م . كما ان " شاه منصور بن زينل " لم يستمر في الحكم سوى ٦٠ يوما من عام ٨٧٤ هـ /١٤٦٩ م .

وقد حكم بغداد لبضعة اشهر كل من :

مصطفى باشا ١١٩٠هـ/١٧٧٦م .

حسن باشا ١١٠١ – ١١٠٢ هـ /١٦٨٩ – ١٦٩٠م .

ولي حسين باشا ١٠٥٤ هـ /١٦٤٤م .

صارقجي مصطفى باشا ١٠١٢ هـ /١٦٠٣م .

علي باشا الدرويش ٩٨٢ هـ /١٥٧٤م .

محمد باشا البالطجي ٩٥٩ هـ /١٥٥١م .

فرهاد باشا الصولاق / في ولايته الثانية / ٩٥١ هـ /١٥٤٦م .

حسين علي زينل ٨٧٤ هـ /١٤٦٩م .

بير محمد الطوشي بن زينل /٨٧٣ هـ / ١٤٦٨م .

اربا خان / ٧٣٦ هـ / ١٣٣٥م .

بايدو خان / احد احفاد هولاكو / ٦٩٤ هـ / ١٤٩٤ م .[١٨]

---

[١٨] مرزه ، منذر جواد – المصدر السابق – ص٢٨ .

ان هذا الواقع السياسي يؤشر حالة من عدم الاستقرار فلا يستمر الحاكم سوى بضعة ايام او بضعة شهور او لعام او لعامين ، ولاشك في ان هذا الواقع يعكس اثاره في ادارة مرتبكة وفي حالة امنية ضعيفة وهذا الواقع يعكس اثاره ايضا في تدهور الحالة الاقتصادية والحالة الاجتماعية واللتان يؤدي تدهورهما الى تراجع واقع السكان (الواقع الديموغرافي) الذي يمثل ارتفاع معدلات الوفيات وبشكل خاص ارتفاع معدلات وفيات الاطفال الرضع Infant Mortality وعندما تشير المصادر الى وفيات الاطفال الرضع فذلك يعني بكل فئاتهم العمرية ، فترتفع وفيات المواليد المبكرة Mortality of Still Born وهي التي تقع في الاسبوع الاول من الولادة ، ووفيات المواليد الاولى Mortality of Neantal والتي تقع في غضون ٢٨ يوما بعد الولادة ، ووفيات المواليد المتأخرة التي تقع ما بين ٢٨ يوما بعد الولادة وقبل انتهاء العام الاول .[١٩]

تعد وفيات الاطفال الرضع مؤشرا مهما ، بمثابة البارومتر ، للواقع الاقتصادي الاجتماعي ، كما انها تعد مؤشرا مهما للتغير في النمط الصحي وعلى ضوء ما تصفه مراجع تاريخ بغداد للوضع الاقتصادي الاجتماعي بعد اجتياح "هولاكو " لها فأننا نتوقع ارتفاع كبير لمعدلات الوفيات ولاسيما وفيات الاطفال الرضع .

---

[١٩] الامم المتحدة – اللجنة الاقتصادية والاجتماعية لغربي اسيا / الاتحاد الدولي للدراسات العلمية للسكان – (المعجم / الديمغرافي متعدد اللغات / مصدر سابق / ص٨٨ .

اطلق "هولاكو" (*) اصحابه لنهب بغداد فاستباحوها سبعة ايام وقتلوا الكثير من الناس واشعلوا النيران في ارجائها ، وبعد ذلك امر " هولاكو " بقتل الخليفة مع ولده واعمامه واقاربه وجماعة من الاعيان . وبعد الايام السبعة امر برفع السيف عن الناس [٢٠] على ان بعض المراجع تشير الى ان مدة الاستباحة قد استمرت مدة ٤٠ يوما .[٢١]

تدهورت بغداد كثيرا فتهدمت اكثر عمارتها وتعرضت لنكبات الغرق المتكررة في عهد المستعصم اخر الخلفاء العباسيين ، وقد وقع الموت وانتشر الوباء بين الناس بعد دخول " هولاكو " وكان الناس الذين سلموا من القتل يكثرون من شم البصل لتستريح انفسهم من شم رائحة الجثث المتفسخة ، وكانوا مضطرين لشرب المياه الملوثة بالجثث المتفسخة ، وكثر الذباب لدرجة انه كان يغطي السماء فيسقط على الاطعمة فيفسدها ، وكان اهل الكوفة

(*) هولاكو خان ١٢١٧ / ١٢٦٥م مؤسس سلالة الخانات بفارس ، وهو الحاكم المنغولي الذي نجح بفتح معظم بلدان جنوب غرب اسيا وهو ابن تولوي خان اصغر ابناء جنكيز خان تيمور لنك : يمور ادعى أنه من سلالة جنكيز خان وقد عرف بتيمور الأعرج عن : مرزه ، منذر جواد (٢٠٠٧) مصدر سابق – ص ٢٧٦ .

(٢٠) ابن الفوطي (١٣٨٣ هـ) ، الحوادث الجامعة والتجارب النافقة (منسوب لأبن الفوطي) (حققه وضبط نصه وعلق عليه بشار عواد معروف وعماد عبد السلام رؤوف) الطبعة الأولى ، منشورات رشيد ، قم ، إيران ، ص ٢١٩ .

(٢١) القزاز ، محمد صالح (١٩٧٠) ، الحياة السياسية في العراق في عصر السيطرة المغولية ، مطبعة القضاء ، النجف الأشرف ، ص٣٣٩ .

والحلة والمسيب ينقلون الى بغداد الاطعمة ويبتاعون بأثمانها الكتب النفيسة ومعدن الصفر المطعم .[٢٢]

بعد حكم الاليخانيين وحكم الجلائريين الذي انتهى بانتهاء حكم " احمد الجلائري "، وكانت اعوام حكم شاع فيها الظلم والتعسف وتدهور الاقتصاد والمجتمع وارتفاع معدلات الوفيات ، سقطت بغداد ثانية على يد غاز ثانٍ فدخلتها جيوش " تيمورلنك " عام ٧٩٦ هـ / ١٣٩٣ م ودخلتها ثانية في عام ٨٠٥ هـ / ١٤٠٠ م .[**]

وبذلك تمت استباحة بغداد وقتل عدد كبير من سكانها بمن فيهم كبار السن والنساء والاطفال وتهديم جزء كبير من عمارتها وتحويلها الى قاع صفصفا ، ولقد بقيت جثث الموتى في الشوارع والازقة حتى تعفنت وتلوث الهواء [٢٣] وفي حملته الثانية ذبح تيمورلنك الالاف من الناس وهدم المساكن والجوامع .[٢٤]

صادفت حملة "تيمورلنك" الثانية ودخوله بغداد ايام عيد الاضحى فاراد ان يجعل من اهلها قرابين لهذا العيد ، فامر جنوده بان يأتيه كل واحد منهم برأسين من اهالي بغداد ، ففعلوا ذلك وطرحوا الرؤوس امامه ، وعندما كان

---

[٢٢] ابن الفوطي ، المصدر السابق – ص٢١٩ .

[**] تيمور لنك : تيمور ادعى أنه من سلالة جنكيز خان وقد عرف بتيمور الأعرج
عن : مرزه ، منذر جواد (٢٠٠٧) مصدر سابق – ص ٢٧٦ .

[٢٣] المصدر نفسه ، تلاحظ الصفحات ، ١٠٩ ، ٣١٥ ، ٣٠١٦ .

[٢٤] لونكريك ، س. هـ. (١٩٤٢) اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث (ترجمة جعفر الخياط) – الطبعة الخامسة / مكتبه التحرير / بغداد / ص٢٨ .

يعجز بعضهم عن رؤوس الرجال يلجأ الى قطع رؤوس النساء والاطفال [٢٥]
لقد كانت الفترة ما بين ٦٥٦ – ١٠٤٨ هـ / ١٢٥٨ – ١٦٣٨ م اشد الاعوام في تاريخ العراق ظلاما ، انها حقا الفترة المظلمة Dark period في تاريخ بغداد والعراق عموما ، فقد كانت فيها الادارات السياسية ضعيفة وقلقة والادارات المحلية متخلفة ، انتشر فيها الجوع والامراض لاسيما الطاعون والهيضة (الكوليرا) والجدري والتدرن ، والصراعات العشائرية والنزاعات الطائفية التي تسببت في صراع اقليمي ما بين تركيا العثمانية وايران الصفوية على مدى الاعوام ٩١٤ – ١٣٣٥ هـ / ١٥٠٨ – ١٩١٧ م .

كان القتل الطائفي وضحايا المعارك العشائرية وكذلك ضحايا الجوع والفقر والاوبئة يشكلون النسبة الاعظم من اجمالي الوفيات .لقد استمر التراجع في مدينة بغداد طوال اعوام القرن السابع عشر والثامن عشر الميلادي فتقلصت حدودها بفعل تراجع الاقتصاد واعداد السكان ومن ثم العمران . تشير بعض التقديرات التي تعود الى القرن السابع عشر الى ان محيط بغداد كان حوالي ٧ اميال واكثر من ٨٠٠ خطوة [٢٦] بينما جاءت

---

[٢٥] ابن الفوطي ، المصدر السابق .

[٢٦] الحمداني ، طارق نافع (١٩٩٠) بعض جوانب الحياة الاجتماعية في مدينة بغداد ومصادرها خلال القرنيين السابع عشر
والثامن عشر – (بغداد في التاريخ – الندوة العلمية الاولى التي عقد هاشم التاريخ – كلية التربية الاولى / جامعة بغداد –
ص٥٣٨ .

تقـديرات الرحالـة الفرنسـي " تافرنييـه " بـان محـيط بغـداد لا يتجـاوز ٣ اميال .[٢٧]

لعل الفارق ما بين التقديرات يعود الى الاختلاف في اساس التقدير ، فيأتي التقدير احيانا يستند الى سور المدينة ، في حين يستند التقدير الاخر الى المساحات المسكونة في المدينة ، فالمعروف ان بغداد بعد خرابها انتشرت فيها الكثير من المناطق السكنية المهدمة والمهجورة ، وبذلك يصفها الرحالة " تيفنو" في القرن السابع عشر قليلة السكان بالنسبة الى مساحتها [٢٨] وقد اكد الرحالة " نيبور " هذا الوصف بعد اكثر من قرن من الزمن فأشار ان القسم الاعظم من بغداد مهدم ومهجور[٢٩] ، وبصدد اعداد السكان فهي ٦٨٦٣٦ نسمة عند نهاية القرن السادس عشر كما اشار اليها المؤرخ التركي "باركان" في كتاب التاريخ الاقتصادي للشرق الاوسط الصادر عن جامعة اكسفورد [٣٠] وتقدر هذه الاعداد ما بين ٦٠٠٠٠ – ٨٠٠٠٠ نسمة في القرنيين السابع عشر والثامن عشر [٣١] واشار الرحالة الفرنسي "اوليفية" عام ١٧٩١ م الى ان هذه الاعداد كانت دون ٨٠٠٠٠ نسمة [٣٢].

---

[٢٧] تافرنيه ، باتيست (١٩٤٤) العراق في القرن السابع عشر (ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد) مطبعة المعارف – بغداد – ص ٧٨ .

[٢٨] الحمداني ، مصدر سابق – ص ٥٣٨ .

[٢٩] نيبور ، (١٩٦٥) رحلة نيبور الى العراق في القرن الثامن عشر (ترجمة محمود حسين الامين) – شركة دار الجمهورية للنشر والطباعة – بغداد – ص٢٥ .

[٣٠] الحمداني ، المصدر السابق – ص٥٣٩ .

[٣١] لمصدر نفسه – ص٥٣٩ .

[٣٢] المصدر نفسه – ص٥٣٩ .

كما ان ظروف القهر والفقر وعدم استباب الامن الاجتماعي لا تشجع على التوجه الى الزواج الا بحدود ضيقة ، من ذلك نتوقع ان المعدل السنوي للوفيات يفوق كثيرا المعدل السنوي للولادات ، ولعل وفيات الاطفال الرضع شكلت النسبة الاكبر من معدل الوفيات.

لم يتوجه الباحثون العراقيون ولا الباحثون العرب الى دراسة تاريخ السكان " التاريخ الديموغرافي " الا بجهود محدودة جدا في حين تمت دراسات معمقة كثيرة لدراسة اوروبا ودراسة البلدان الاوربية كل على حده، نحاول ان نستفيد من نتائج هذه الدراسات ، فهذه الدراسات على العموم توصف حركة الوفيات بانها حركة سريعة وبمستوى مرتفع ففي الماضي القريب عند منتصف القرن التاسع عشر كان يموت في المملكة المتحددة شخص واحد من كل ٣ اشخاص بسبب الامراض السارية ، وفي القرن السابع عشر كان معدل الوفيات يصل الى ٤٠ بالألف من اجمالي السكان وذلك وفق ما أشارت اليه الدائرة السكانية العالمية التابعة الى الامم المتحدة .[٣٣]

وفي الوقت الحاضر فان الدائرة السكانية العالمية تشير الى المعدلات السنوية لوفيات الاطفال في المجتمعات المتخلفة الفقيرة اقتصاديا والفقيرة الى الخدمات الصحية ، فهي تصل الى ١٠٠ لكل ١٠٠٠ مولود حي في العديد من بلدان افريقيا جنوب الصحراء وبعض بلدان اسيا ، ويرتفع هذا المعدل في بعض مدن بورما ليصل الى ٣٠٤ لكل ١٠٠٠ مولود ، وكذلك في بعض

---

[٣٣] الخفاف ، عبد علي جغرافية السكان (١٩٩٩) / اسس عامة – دار الفكر / عمان / الاردن / ، ص ١٧٧ .

مدن الهند وفي بعض مدن البرازيل وذلك في عقد الخمسينات وما قبله من القرن الماضي .[٣٤]

في ضوء هذه المعلومات سيكون ليس من المبالغة ان نقدر المعدل السنوي للوفيات بحدود ٣٠٠ بالألف ، كما كان عليه الحال في لندن والمدن البريطانية التي اشرنا اليها، وان نقدر المعدل السنوي لوفيات الاطفال الرضع بحدود ٤٠٠ بالالف وذلك على وفق التوصيف الذي تقدمه مراجع ومصادر تاريخ بغداد في تلك الفترة المظلمة .

في مثل هذا الواقع الاقتصادي الاجتماعي المتراجع والامني المتردي يكون متوسط عمر الفرد قصيرا ، وهذا المتوسط يحسب عادة بقسمة مجموع اعمار المتوفين في جميع الفئات العمرية على عددهم ، من ذلك يرتبط هذا المتوسط بحركة الوفيات . تقدر الدراسات التاريخية للسكان متوسط عمر الانسان في ما قبل القرن التاسع عشر ما بين (٣٠ – ٤٠) عاما كما تشير الدراسات السكانية التي تتناول المجتمعات المتخلفة اقتصاديا واجتماعيا في ١٩ بلدا في افريقيا جنوب الصحراء وفي جنوب شرق اسيا الى ان هذا المتوسط يقل عن ٤٠ عاما ، وهو في ١٨ بلدا في نفس المنطقتين يتراوح ما بين (٤٠ –٤٨) عاما ، ولأجل المقارنة نشير الى ان هذا المتوسط يرتفع في البلدان المتقدمة الى (٧٥ – ٨٠) عاما .[٣٥]

---

[٣٤] المصدر نفسه ، ص ١٩٠ .

[٣٥] المصدر نفسه .

الــى جانــب حركــة الوفيــات الواســعة فقــدت بغــداد ســكانها بفعــل الهجـرة المعاكسـة التـي اتجهـت منهـا الـى الريـف والقصبـات المجـاورة خوفـا مـن موجـات القتـل والوبـاء والغـلاء لاسـيما فـي الفتـرة المحصـورة مـا بـين (٦٥٦ - ٩١٥هـ) (١٢٥٨ - ١٥٠٨ م) فقد كانت اكثر الفترات التي فقدت بغداد فيها سكانها بسبب النزوح عنها . اننا لا نرى في الروايات التي اشارت الى تراجع عدد السكان في بغداد الى اقل من ٣٠٠٠٠ نسمة عند وقوعها تحت السيطرة الصفوية في ٩١٤ هـ ، اية مبالغة ، والى استمرار هذا التراجع ليهبط عدد السكان الى ١٥٠٠٠ نسمة في فترة استيلاء السلطان مراد عام ٩٧٥هـ [٣٦] فهذا امر متوقع في مجتمع تتدهور فيه الظروف الاقتصادية والاحوال الاجتماعيـة ويتـردى الامـن وتتفشـى فيـه الاوبئـة وينتشـر الجـوع والفقر .

لقد حصلت هذه الخسارة السكانية بمتوسط سنوي مقداره ٢٥٠٠ نسمة ، ولاشك في ان هذه الخسارة لم تحصل بصورة منتظمة بل نتوقع انها كانت تحصل على شكل موجات من الموت وذلك ما بين (٦٥٦-١٢٨٦هـ) تتخللها فترات من التوقف والعودة الى حركة الوفيات الاعتيادية .

مع نهاية هذه المرحلة تكون بغداد قد خرجت من مرحلة التراجع المطرد لعـدد السـكان ومـن مرحلـة الاقتصــاد المعاشــي ، التــي اتسـمت بالفوضــى السياسـية والاداريــة والتــدهور الاقتصــادي والاجتمــاعي وهبــوط المســتوى المعيشي الى ادنى مستوياته ، وانتشار امراض نقص وسوء التغذية وسوء

---

(٣٦) المصدر نفسه ، ص ١٩٠ - ١٩٥ .

التغذية والأمراض السارية وكذلك انتشار امراض الاطفال وامراض الانجاب والولادة ، وقد تسبب عن تكرار تفشي بعض الامراض ما يطلق عليها بالامراض المتوطنة ، لا شك في ان هذا الواقع المرضي كان محصلة لهبوط المستوى المعيشي ولعدم توفر الخدمات الصحية والبلدية وتدهور ظروف السكن ، ومن حصيلة هذا الواقع لا بد ان يرتفع المعدل السنوي للوفيات ووفيات الاطفال والاطفال الرضع ، وهو معدل نقدره وفق نتائج دراساتنا السابقة بحدود ٥٠ بالألف يرتفع بين الاطفال الرضع الى ٤٠٠ لكل الف مولود حي واحيانا الى ٥٠٠ لكل الف مولود حي . اذا ما تم تقديرنا للمعدل السنوي للولادات حينذاك بحدود ٥٠ بالألف ايضا [٣٧] تتضح لنا حالة التراجع السكاني والنمو السلبي بفعل ارتفاع معدل وفيات الاطفال الرضع[٣٨] .

مراجع الهوامش :

- رحلة ابن جبير ، محمد بن أحمد بن جبير الأندلسي ، (تحقيق حسين محمد نصار) (١٣٧٤ هـ) ، مطبعة دار مصر .

---

[٣٧] الحموي ، ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي – معجم البلدان – ج ٢ الطبعة الثانية – دار صادر – دار بيروت ، ص ٣٨٣ .

[٣٨] الخفاف ، عبد علي (١٩٩٨) ، واقع السكان في الوطن العربي ، دار الشروق / عمان / الاردن ، ص ٧٠ .

تأثير الآداب الغربية في مدرسة الديوان

سيد ابو الفضل الموسوي فرد(*) الدكتور محمد على طالبي(**) مرتضى باقري فشكجه(***)

الملخص :

من استقرى مدرسة الديوان يكشف له أنّ هذه المدرسة ساهمت في توجيه الأدب العربي في العقد الأول من القرن العشرين توجيها جديدا يميّزها التأثر بالآداب الأجنبيّة ولاسيما الإنجليزيّة منها ، إذ تمّت عمليّة التجديد الشعري على يد رواد مدرسة الديوان من جرائها بحيث لا يمكن تحديد جوانب هذه المدرسة إلا بواسطة الثقافات التي إستفادت منها هذه المدرسة . في هذه الدراسة نشير إلى أهمّ ملامح التأثر لدى مدرسة الديوان ببعض الآداب الأجنبيّة المعروفة .

(*) طالب الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها بجامعة الحكيم السبزواري بسبزوار.

mail:smosavifard@gmail.com

رقم الهاتف : 09151710500

(**) الدكتور محمد على طالبى ، الأستاذ المساعد فى قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة الحكيم السبزوارى بسبزوار .

(***) الماجستير فى اللغة العربية وآدابها .

المقدّمة :

برزت « مدرسة الديوان » إلى ساحة الوجود على يد أعلامها الثلاثة عبدالرحمن شكري وإبراهيم عبدالقادر المازني وعباس محمود العقاد وقد أطلق عليهم إسم جماعة الديوان نسبة إلى الكتاب النقدي المسمّى « بالديوان » الذي قام بإصداره العقاد والمازني سنة ١٩٢١م . هذه المدرسة تقلّب كثيرا من المعادلات الراهنة في عهدها إذ تشكل مذهبا أدبيا يثور على المواضيع الأدبية السائدة وتصدر بيانات في الأدب وتعريفه ولاسيما الشعر منه وتشير إلى رسالة الأدب والأديب ولغة الشعر والشاعر وميزات القصيدة العربيّة الجديدة ؛ إذن أصبحت مدرسة الديوان تعتبر بادئة الحركات النقديّة في الأدب العربي المعاصر التي يجد النقد بواسطتها طريقه في الأدب العربي المعاصر .

هذا ومن جانب آخر ، إنّ التعرّف على تأثّر « مدرسة الديوان » بالآداب الغربيّة ولاسيما الأدب الإنجليزي المعاصر ، يساعدنا كثيرا من أجل المقارنة بين الأدبين العربي والإنجليزي المعاصرين .

تأثر أصحاب مدرسة الديوان بنمطين :

١ـ النمط العربي : تأثّر هولاء بما قرأوا بالأدب العربي القديم ، وبالتالي بمن آثروهم فى نقدهم ودعوتهم إلى التجديد . « والحقيقة أنّ هذه المدرسة كانت تتصل بروائع شعر العرب السابقة التي تقرب من ذوقها ، مما قرأته عند إبن الرومي والمتنبي والشريف الرضي وأبي العلاء ، وقد كتب المازني فصولا طريفة عن إبن الرومي وأشاد بشعره إشادة واسعة ، وأفرد له

العقاد كتابا ، وكتب مرارا عن المتنبي وأبي العلاء المعري »[1]. أمّا شكري فعكف على قراءة الأدب القديم ، يقرأ في كتابات الجاحظ وفي كتاب « الأغاني » وفي « الكامل » للمبرد و« الأمالي » لأبي علي القالي وغير ذلك من عيون النثر العربي القديم ، كما أخذ يقرأ في الشريف الرضي ومهيار وابن الرومي والمتنبي وأضرابهم من الشعراء البارعين.

يتمثل شكرى في قصيدته « خميلة الحب » التائية التي تأثر فيها بإبن الفارض ؛ وكان شعره من أوائل ما قرأه شكري من دواوين الشعراء القدماء ، وكان في مقدمة من قرأ لهم : إبن الفارض والمتنبي والشريف الرضي والمعري وإبن الرومي ، كما قرأ لشعراء الغرب مختارات من شعرهم تمثلت في كتاب « الكنز الذهبي » ، وكان يدرس بالمعلمين العليا . و يقول شكري في مطلع قصيدته « خميلة الحبّ » :[2]

تمهّلْ رعاك اللهُ أقضي لبانتي ... وأتلو على تلك الرياضِ تحيتي
فإنّي تعلّمتُ الهوى في ظلالِها ... وفيها رأيتُ الحسنَ أول رؤية [3]

---

[1] أبو الشباب ، واصف ، **القديم والجديد في الشعر العربي الحديث** ، دون ط ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٩٨م .

[2] كَار ، يوسف ، **جماعة الديوان وعمر الخيّام** ، الطبعة الأولى ، المؤسّسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ٢٠٠٤ م .

[3] الحاوي ، إبراهيم ، **حركة النقد الحديث والمعاصر في الشعر العربي الحديث** ، الطبعة الأولى ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٨٤م .

فنراهم نظموا في المناسبات والمدح والرثاء وغيرها من الأغراض القديمة فهم لم ينفصلوا ولم يستقلوا تماما عن الشعر العربي القديم ، بل إننا نستطيع أن نعين لهم قصائد كثيرة إستلهموا فيها ما أنتجته قرائح القدماء ، فضلا عما يلتقون معهم فيه من معان وأفكار.

٢- النمط الأجنبي : زاد إتصال العرب بآداب الغرب ، عن طريق الترجمة والبعثات العربية إلى جامعات أوروبا ، والمستشرقين والأساتذة الغربيين الذين عملوا فى الجامعات العربية ، وعنوا بنشر الأدب الغربي بين الشباب العربيّ ولاسيما آداب شكسبير وشللى وهوجو وموباسان ولامارتين وأناتول فرانس والفريد دى موسيه وجوته .... [٤] ؛ ويعترف العقاد بإعجابه الكثير بـ « هازليت » الناقد الإنجليزيّ والتأثر به في نقد الشعر إذ يعتبره إمام هذه المدرسة في النقد ، وكذلك نراه معجبا بـ « توماس هاردي » الشاعر الإنجليزي[٥] . وللمازني بجانب ذلك جهد ممتاز في ترجمة بعض الذخائر الغربية ، ومن أهمّ ما ترجمه قصّة « إبن الطبيعة » ومسرحية « الشاردة » لجالز ورثي و « مختارات من القصص الإنجليزي » وهو بعد في طليعة من حذقوا الترجمة والنقل من الآداب الأجنبيّة [٦] .

---

[٤] الخفاجي ، محمد عبد المنعم ، **دراسات في الأدب العربي الحديث ومدارسه** ، الطبعة الأولى ، دار الجيل ، بيروت ، ١٩٩٢م .

[٥] الدسوقى ، عمر ، **في الأدب الحديث** ، جزءان ، الطبعة السابعة ، دار الكتاب العرب ، بيروت ، ١٩٦٦م .

[٦] الديدي ، عبد الفتّاح ، **عبقريّة العقّاد** ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٤م .

تأثر رواد مدرسة الديوان بالرومانسية :

يتجلى العنصر المميز لمدرسة الديوان متأثرا تأثرا واضحا بشعراء الرومانسيّة وهو عنصر « الطبع » في قول الناقد الإنجليزي « وردزورث » ؛ إذ يقول في تعريف الشعر: « إنّ الشعر إنسياب تلقائي للمشاعر القويّة ، إنه يصدر عن العواطف التي تستعاد في حالة سكينة ، وهناك يتمّ نوع من التأمّل في هذه المشاعر التي تختصّ فيه تلك السكينة بالتدرج وتحلّ مكانها عاطفة قريبة من تلك العواطف الأولى التي كانت موجودة قبل عملية التأمل هذه حيث تحتلّ العاطفة الأخيرة الذهن بالفعل . وفي مثل تلك الحالة تبدأ كتابة الشعر العظيم عادة .

من جانب آخر، يعتبر شكري إنّ خلق الشعر« إنفعال عصبيّ » ويستمرّ قائلا : « لا ينظم الشاعر

إلاّ في نوبات إنفعال عصبي ، وفي أثنائها تغلي أساليب الشعر في ذهنه وتتضارب العواطف في قلبه ... ثم تتدفق الأساليب الشعرية كالسيل من غير تعمدّ لبعضها دون بعض . أما في غير هذه النوبات فالشعر الذي يصنعه فاتر العاطفة قليل الطلاوة والتأثير » [٧]. والنزعة الرومانسية واضحة في شعر العقاد في الجزء الأول من ديوانه في قصيدة « الحبّ الأول » ؛ يقول العقاد في مطلعها :

---

[٧] السكوت ، حمدي ، عباس محمود العقاد ، المجلّدان ، الطبعة الأولى ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ١٩٨٣م .

يُهنيك يا زهـرُ أطيار وأفنـانُ الطيرُ ينشـدُ والأفنانُ عيــدانُ [8]

« أعجب شكري كلَّ الإعجاب بشعراء الرومانسية الإنجليزيّة : « ورد زورث » و « كــولردج » و « شــلي » و « بيــرون » و « كيــتس » و « سـكوت » ، وقرأ كل ما كتبواه ، وتأثّر بهم روحا ومنهجا» [9] . كما « ينظم المازني معه الشعر على أسلوب جديد في ضوء ما قرأ من شعر الإنجليـز ، وخاصـة عنـد أصـحاب النزعـة الرومانسـية أمثـال « شـللي » و « شعراء البحيرة ».[10]

يكشف شـكري الستار عن تـأثرات المـازني (أو سرقاته . إلـى حدّ تعبيره) فـي مقدمـة الجزء الخـامس من ديوانـه إذ يقول : « وقد لفتنـي أديب إلى قصيدة المازني التي عنوانها « الشاعر المحتضر » اليائية التي نشرت فـي عكـاظ ، وإتـضح لنـا أنـها مـأخوذة مـن قصـيدة « أدونـي » للشـاعر « شلي » الإنجليزي ، كما لفتني أديب آخر إلى قصيدة المازني التى عنوانها « قبر الشعر » وهى منقولة عن « هيني » الشاعر الألمـاني ، ولفتنى آخر إلـى قصـيدة المـازني « فتـى فـي سياق المـوت » وهـى للشـاعر « هـود » الإنجليـزى ولفتنـى أيضـا أديـب إلـى قصيدة المـازني التـى عنوانهـا « الراعي

---

[8] ضيف ، شوقي ، **الأدب العربي المعاصر في مصر** ، الطبعة العاشرة ، دار المعارف القاهرة ، دون تاريخ .

[9] العقّاد ، عبـاس محمـود ، **أنـا** ، الطبعـة الأولـى ، دار الكتـاب العربـى ، بيـروت ١٩٦٩م .

[10] العقاد ، عباس محمود ، **شـعراء مصـر وبيئـاتهم فـى الجيـل الماضـي** ، دون ط ، مطبعة حجازي ، مصر ، ١٩٣٧ م.

المعبود » وهى منقولة عن الشاعر « لويل » الأمريكي ، وقصيدة المازني التى عنوانها « وردة الرسول » وهى للشاعر « ولر » الإنجليزي وأشياء أخرى ليس هذا مكان إظهارها . وقرأت له في مجلة البيان مقالة « تناسخ الأرواح» وهى من أولها إلى آخرها من مجلة السبكتاتور لأدسون الكاتب الإنجليزي ومن مقالاته في إبن الرومي التي نشرت في البيان قطع طويلة عن العظماء وهي مأخوذة من كتاب « شكسبير والعظماء » تأليف فيكتور هوجو، ومن مقالات « كارليل » الأدبية . [١١]

قال العقاد حول شكري : « ولكن شكري عبّ من الأدب الإنجليزي بدل أن يعب من الأدب الفرنسي الذي إستهوى مطران في صباه قبل أن تستهويه الآداب الأخرى» [١٢] .

تأثر أصحاب مدرسة الديوان بالآداب الأجنبية المختلفة :

يقول العقاد عن ثقافة هذا الجيل الجديد : « فهي مدرسة أوغلت في القراءة الإنجليزية ، وهي مع إيغالها في قراءة الأدباء والشعراء الإنجليز لم تنس الألمان والطليان والروس والأسبان واليونان واللاتين الأقدمين ، ولعلّها إستفادت من النقد الإنجليزي فوق فائدتها من الشعر وفنون الكتابة

---

[١١] هدارة ، محمد مصطفى ، **بحوث في الأدب العربي الحديث** ، دون ط ، دار النهضة العربية ، بيروت ١٩٩٤م ، ص ص ٣٤٠ – ٣٣٩.

[١٢] خفاجي ، محمد عبد المنعم ، **دراسات في الأدب العربي الحديث ومدارسه** ، الجزء الثاني ، الطبعة الأولى ، دار الجيل ، بيروت ، ١٩٩٢م ، ص٢٥.

الأخرى ، ولا أخطىء إذا قلت إنّ « هازليت » هو إمام هذه المدرسة كلّها في النقد» [١٣] .

على سبيل المثال يقرأ المازني وتتسع قراءته ، وينفتح أمامه العالم الغربى عن طريق إتقانه الإنجليزية ، فلا يقف عند ما يقرؤه في الأدب الإنجليزي ، بل يقرأ كلّ ما إستطاع في الآداب الغربيّة المختلفة ، يقرأ لتورجنيف ولهاتز بياشيف الروسييّن ويترجم للأخير قصّة « سانين » باسم « إبن الطبيعة » كما يقرأ لمارك توين الأمريكي و لغير هؤلاء جميعا ممّن يطبع أدبهم بطوابع السخريّة. [١٤]

التأثر بالأدبين الإنجليزي والفرنسي :

يعترف العقاد بتأثر شكري من الآداب الأجنبيّة حيث يقول فى بعض ذكرياته : « عرفت عبدالرحمن شكرى قبل خمس وأربعين سنة ، فلم أعرف قبله ولا بعده أحدا من شعرائنا وكتابنا أوسع منه إطلاعا على أدب اللغة العربية ، وأدب اللغة الإنجليزيّة ، وما يترجم إليها من اللغات الأخرى » [١٥] .

---

[١٣] العقاد ، عباس محمود ، **شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضي** ، دون ط ، مطبعة حجازي ، مصر ، ١٩٣٧م ، ص١٩٢.

[١٤] ضيف ، شوقي ، **الأدب العربي المعاصر في مصر** ، الطبعة العاشرة ، دار المعارف القاهرة ، دون تاريخ ، ص٢٦٣.

[١٥] الخفاجي ، محمد عبد المنعم ، **دراسات فى الأدب العربي الحديث ومدارسه** ، الجزء الثانى ، الطبعة الأولى ، دار الجيل ، بيروت ، ١٩٩٢م ، ص ص ٢٤ - ٢٣.

المتأمل أنّ شعر شكري تعبير واضح عن إلتقاء العقلين : المصري العربي، والغربي الإنجليزيّ وغير الإنجليزيّ ، وقد كان الشعراء قبله ، ونقصد شعراء النهضة ، يتصلون أكثر ما يتصلون بالأدب الفرنسي ، أمّا هو فأكثر صلته بالأدب الإنجليزيّ . وأخذ نفسه – منذ أن كان طالبا في مدرسة المعلمين – بالتعمق في هذا الأدب وبالقراءة الواسعة في الأدب العربى . وقرأ مختارات « الذخيرة الذهبية » فرأى فيها نموذجا جديدا لشعر غنائي يخالف الصورة التقليدية للشعر العربي . فليس فيه مديح ولا هجاء ، وإنّما فيه التعبير الواسع عن العاطفة والتأمّل الواسع في آمال البشريّة وآلامها وكلّ ما يتصل بالحياة والطبيعة من أفكار وأنغام. [١٦]

فقد رأى عبدالرحمن شكري أنّ وظيفة الشاعر في الإبانة عن الصلات التي تربط أعضاء الوجود ومظاهره ، والشعر يرجع إلى طبيعة التأليف بين الحقائق ، ومن أجل ذلك ينبغي أن يكون الشاعر بعيد النظرة فيميز بين معاني الحياة التي تعرفها العامة وأهل الغفلة وبين معاني الحياة التي يوحي بها الأديب .

الواضح أنّ الشكرى – في هذا التحديد – يلتقي مع الشاعر والناقد الإنجليزيّ « شلي » حين يميّز بين قدرة الناس العاديين وبين قدرة الشعراء على إدراك حقائق الأشياء ومعاني الحياة وذلك حين قال « مع أنّ الناس يرون نفس الأشياء فإنّهم لايتفقون في ملاحظة نظام واحد في حركات

---

[١٦] ضيف ، شوقي ، **الأدب العربي المعاصر في مصر** ، الطبعة العاشرة ، دار المعارف، القاهرة ، دون تاريخ ، ص ص ١٣١ – ١٣٠.

الرقص وفي لحن الأغنية وفي نسيج اللغة وفي سلسلة التقليد التي يقومون بها للأشياء الطبيعية ذلك لأنّ هناك نظاما معينا وإيقاعا لهذه الألفاظ »[١٧] .

يعترف شكري بأنه تأثر بأفكار شلي في قصيدته « المنتقم أو روح الحركة » ؛ يقول شللي في هذه القصيدة :

« Alastor of the spirit of aolitude » when early youthhad past, he left, his cold fireside, and alienated home to beek truth in undisoovered lande.

ترجمة النصّ : ولما تقضى الشباب ترك

مدفئته الباردة وتغرب من موطنه

بحثا عن الحقيقة في أراضى لم تكتشف بعد .

وفي المعنى نفسه يقول شكري في قصيدته « الباحث الأزلي » :

همتُ يوما من قريتي أنشد الحـ ـــق لعلـــي أراه فـــي الـــدهماءِ
عفتُ بيتي وقريتي وهجـــرت الـ أهل أبغى فـي النفـوسِ الظلمـاءِ[١٨]

---

[١٧] الحاوي ، إبراهيم ، **حركة النقد الحديث والمعاصر في الشعر العربي الحديث** ، الطبعة الأولى ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٨٤م ، ص٥٩ .

[١٨] الفاتح البدوي ، زينب ، **دراسة نقديّة مقارنة لشاعر عباس محمود العقاد** ، دون ط ، دار جامعة الخرطوم للنشر والطباعة ، الخرطوم ، ١٩٩٠م ، ص٣٦٤ .

ألف شكري قصّة سمّاها « قصّة الحلّاق المجنون » ، وفيها ما يدلّ على تأثره بالآداب الروسيّة حينئذ ، كما ألف « الإعترافات » وفيها تأثر واضح بما قرأه في الآداب الفرنسية من إعترافات « جان جاك روسو » و « شاتو بريان » وإن لم يجعلها على لسانه فقد نسبها إلى شخص رمز إليه بالحرفين «م . ن» . وهي اعترافات رائعة ، إذ كلّها تحليلات وتأملات ، وقد وصف فيها الشباب المصري بأنّه عظيم الأمل ولكنه عظيم اليأس ، وكل منهما فى نفسه عميق مثل الأبد [١٩] .

كان المرجع الأول لهذه المدرسة مجموعة « الذخيرة الذهبيّة » وهي مختارات مشهورة من الشعر الإنجليزى من عهد شكسبير إلى نهاية القرن العشرين [٢٠] . وكان هذا الكتاب الذي جمعه (بالجريف) ذا أثر كبير في مدرسة الديوان إبداعا ونقدا وكان هذا الكتاب يدرس في مدرسة المعلمين العليا حيث درس عبدالرحمن شكري والمازني . ولهذا لانجد غرابة في أن يكون شعار مدرسة التجديد والديوان بيت شعر قصيدة عبدالرحمن شكري « عصفور من الجنة » وهو قوله :

ألا يا طائِرَ الفردو   س إنّ الشعرَ وجدانُ

مأخوذ من بيت لشللى في قصيدة « إلى قبّرة » [٢١] .

---

[١٩] ضيف ، شوقي ، **الأدب العربي المعاصر في مصر** ، الطبعة العاشرة ، دار المعارف القاهرة ، دون تاريخ ، ص١٣٢ .

[٢٠] خفاجي ، محمد عبد المنعم ، **دراسات فى الأدب العربي الحديث ومدارسه** ، الجزء الثانى ، الطبعة الأولى ، دار الجيل ، بيروت ، ١٩٩٢م ، ص٧.

[٢١] هدارة ، محمد مصطفى ، **بحوث في الأدب العربي الحديث** ، دون ط ، دار النهضة العربية ، بيروت ١٩٩٤م ، ص٣٤٧ .

وحسبنا أن ننظر في بعض الأمثلة من شعر هؤلاء الشباب رأى فيها بعض الدارسين تأثرا واضحا بشعر المدرسة الرومانسيّة الإنجليزيّة ، لنرى أنّ هؤلاء الدراسين قد التفتوا في المقام الأول إلى « الموضوع » وبعض « المعاني » المجردة ، ولم يلقوا بالا إلى ما بين الشعرين من خلاف في الشكل والصورة لايستطيع العقاد أن يدفع عن خياله تصوير « وردزورث » لها في قصيدته « أغنية للخلود » [٢٢] .

وخذ أبيات العقاد من قصيدة قصيرة في ديوانه الأول بعنوان « الربيع الحزين » يقول فيها :

عَبَقَ الربيعُ بناجمٍ وبباسقِ	أهلا ، ولا أهلا بذاك العابق
قد كنتُ آنسُ بالربيعِ إذا أتى	أنس المقيمِ بالحبيبِ الطارقِ
ويمازجُ الزهر البهيج خواطري	وتنافحُ العطر الأريج خلائقي
وتكادُ تنسيني صوادحُ أيكه	عزف القيان على الجمادِ الناطقِ
فالآن لا شدو الطيورِ برائعٍ	سمعي ، ولا روضُ الربيع بشائقي
وكأنّ نوارَ الحدائقِ طاقة	نثرت على قبرِ السرورِ الزاهقِ
وأرى الندى دمعا ، وكنتُ إخاله	درّا يناط بزهرهِ المتعانقِ
ويثير شجوي من عليلِ نسيمِهِ	سقمٌ أراه اليومَ غيرَ مفارقي

هذه من قصيدة « وردزورث » الطويلة المعروفة. [٢٣]

---

[٢٢] القط ، عبدالقادر ، **الإتّجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر** ، الطبعة الثانية ، دار النهضة العربيّة ، بيروت ، ١٩٨١م ، ص١٩٢.

[٢٣] نفس المصدر ، ص١٩٣.

وكذلك يتضح ذلك في ديوانين هما : « هدية الكروان » و « عابر سبيل » ، أمّا الأول فنظم أكثر قصائده في الكروان طائر مصر الذي يعطر انفاس لياليها بتغريداته الشجيّة ، محلّلا لإختلاجات نفسه في أثناء سماعه وتأمّلات عقله . وكل من يقرأ في الآداب الإنجليزية يعرف قصيدة شللي في القبّرة ، وما نشك في أنّ هذه القصيدة وما يماثلها هي التي أوحت للعقاد لابنظم قصيدة واحدة في الكروان ، ولكن بنظم طائفة من القصائد . وهو لايأخذ من شلي ولاغيره رقعا يضيفها إلى نسيج قصائده ، بل يكتفى بالإيحاء والإلهام من بعيد .

أما الديوان الثاني « عابر سبيل » فهو تجربة من نوع جديد عرف عند الغربيين في هذا القرن ، إذ ولّى بعض الشعراء وجوههم إلى حياتهم الحاضرة ، ولكن لا إلى الحبّ ولا إلى الطبيعة ، بل إلى الموضوعات اليومية التى قد تبدو تافهة . ولا يلبث عقل الشاعر ، بل لاتلبث نفسه أن تتجاوب معها ، وتستخرج منها أصداء شعورية كثيرة ، فإذا الشيء العادي التافه يتحول شعرا ، وإذا كلّ ما في الطريق صالح لأن يكون نبعا لقصيدة طريفة وعرف العقاد هذا الإتجاه في الشعر الغربي الحديث ، فلم يلبث أن حاوله فى الشعر العربي ، ومدّ عصا شاعريّته إليها حوله من « كواء الثياب » وغير كواء الثياب [٢٤] .

---

[٢٤] ضيف ، شوقي ، **الأدب العربي المعاصر في مصر** ، الطبعة العاشرة ، دار المعارف القاهرة ، دون تاريخ ، ص٦٨.

قد ترجم العقاد في ديوانه الأول مقطوعة شعرية للشاعر الإنجليزي « وليام كوبر » عنوانها « الوردة » ، وقدّم لها بقوله « وردة قطفتها صديقة للشاعر وقدمتها إلى صديقة أخرى فعرضتها هذه عليه تستندي قريحته فتناولها من يدها ثم هزّها فتناثرت أوراقها فندم واستعبر ثمّ قال ذلك الشاعر الرقيق:

أتتني بها من خدُّها مثلُ لونها مبللة الأوراق باكية السنّ» [٢٥]

وفي مواصلة تأثرهم من الشعر الإنجليزي نرى أنّ لشكري قصيدة بعنوان « إلى الريح » إذ يقول في مطلعها :

يا ريحُ هيجت قلبا شجوه واري كما تهيجين عودَ الغابِ بالنار [٢٦]

واستلهم في هذه القصيدة قصيدة « أغنية الريح الغربية » للشاعر الإنجليزي الرومانسي شللي . ولكنه لم يبسط على معانيه ، بل اهتدى من بعيد على ضيائه إلى هذه الأنغام العربية الشجيّة .

وكان على هذا النحو دائما يستضيء بالنماذج الغربية ، ولكن لاينقلها نقلا في أساليبه العربيّة ، وإنما يكتفي بالإلهام من بعيد ، ثمّ يغني عواطفه وشجونه في شعره . وفي دواوينه أمثلة مختلفة من ذلك ، ومن أوضحها قصيدته « نابليون والساحر المصري » في الجزء الثاني ، وقد

---

[٢٥] القط ، عبدالقادر ، **الإتّجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر** ، الطبعة الثانية ، دار النهضة العربيّة ، بيروت ، ١٩٨١م ، ص ص ١٥٨ – ١٥٧.

[٢٦] أبو الشباب ، واصف ، **القديم والجديد في الشعر العربي الحديث** ، دون ط ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٩٨م ، ص١١٦.

إستلهم فيها قصيدة الشاعر (The Bard) لتوماس جراي . وهي كقصيدة « الريح الغربية » من قصائد الذخيرة الذهبية »[٢٧] . من جانب آخر ، « من يتتبع العقاد في تصويره للطبيعة الوحشية ير أنه قد إستفاد في تصويره لها من الشعر الإنجليزي في قصيدة « وقفة في الصحراء » وهو في تصويره هذا يتفق مع شلي في طبيعة التي تتضح لنا من خلال قصيدته « أغنية إلى رياح الغرب » يقول العقاد بعنوان « وقفة في الصحراء ». [٢٨]

هضابُكَ أم هذي أواذيُّ عيلمٍ؟ و هل فيك مِن وردٍ لِغير التوهمِ؟

إذا نظرنا إلى الديوان الأول للعقاد نراه يسلك بين قصائد الديوان ومقطوعاته ثلاث قصائد مترجمة عن شكسبير هي : « فينوس على جثة أدونيس » و « لا طلع الصباح » ، مترجمة ببعض التوسّع عن رواية « روميو و جوليت » و « الغرض » وعن كوبر « الوردة » وعن بيرنز « الوداع » ويترجم عن بوب قطعة بعنوان « القدر » [٢٩] كما يشير إلى بعض الأساطير اليونانيّة مثل « غادة أثينا »[٣٠] .

---

[٢٧] ضيف ، شوقي ، **الأدب العربي المعاصر في مصر** ، الطبعة العاشرة ، دار المعارف القاهرة ، دون تاريخ ، ص١٣٤.

[٢٨] القط ، عبدالقادر ، **الإتّجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر** ، الطبعة الثانية ، دار النهضة العربيّة ، بيروت ، ١٩٨١م ، ص٢٦٥ .

[٢٩] ضيف ، شوقي ، **الأدب العربي المعاصر في مصر** ، الطبعة العاشرة ، دار المعارف القاهرة ، دون تاريخ ، ص١٤١.

[٣٠] الفاتح البدوي ، زينب ، **دراسة نقديّة مقارنة لشاعر عباس محمود العقاد** ، دون ط ، دار جامعة الخرطوم للنشر والطباعة ، الخرطوم ، ١٩٩٠م ، ص١٤٧.

« كما تلاه بديوان سمّاه « هدية الكروان » نظم فيه كثيرا من القصائد في هذا الطائر المصري الذي يملا ليالي الوادي بأناشيده العذبة وترتيلاته الشجية، وأهم هذه القصائد قصيدته:

هل يسمعون سوى صدى الكروان　　　صوتا يرفرف فى الهزيع الثاني

وهي من قصائد ديوان الأول ، جعلها فاتحه قصائده في هذا الديوان والنبع الذي يستمدّ منه أنغامه وألحانه فيه . ولانشك في أنته يستلهم في هذه القصيدة وذلك الديوان من قصيدة شلي الشاعر الإنجليزي « إلى قبَّرة » وهي من روائع هذا الشاعر وبدائعه ، وفيها يشبه القبرة بالفرح المجرّد . وليس معنى ذلك أنّ العقاد يقتبس من شلي أو ينقل ، فهو يلهمه ويوحي إليه ، أما بعد ذلك فمعانيه في قصائده له » [٣١] وقد نحسّ نفس الإحساس إزاء كثير من قصائده بدواوينه المختلفة فى الطبيعة والحبّ ، ففيها جميعا أثر قراءاته في الآداب الغربيِة .

وللمازني في هذا عبارة تقترب إقترابا شديدا من وظيفة الخيال الثانوي عند كولردج . يقول المازني : « ليست قدرة الشاعر هنا في أنته أوجد شيئا من العدم فذاك محال ولكن قدرته فى أنته إستطاع أن يكون صورة من أشتات صور وأن يحضر الصورة المؤلفة إلى ذهنه إحضارا واضحا » [٣٢] . وقد نشر أول مجموعة مختارة من مقالاته سنة ١٩٢٤م بعنوان « حصاد

---

[٣١] ضيف ، شوقي ، **الأدب العربي المعاصر في مصر** ، الطبعة العاشرة ، دار المعارف القاهرة ، دون تاريخ ، ص١٤٣.

[٣٢] الورقي ، سعيد ، **لغة الشعر العربي الحديث** ، الطبعة الثالثة ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٨٤م ، ص١٠٦.

الهشيم » وفيها نراه يتحدّث عن شكسبير ورواية تاجر البندقيّة التي نقلها خليل مطران إلى العربية » [٣٣] .

التأثر بالأدب الفارسي :

في المجال نفسه ومواصلة لتأثرهم بالأدب الفارسي عنوا بالخيّام والرباعيّات ما صحّ منها له وما لم يصحّ ، عناية ما تمثلت عند العقاد والمازني في الكتابة عن الرجل وعن الرباعيّات وبعض ما يتصل بترجماتها العربيّة المبكرّة ، وتمثلت عندهم جميعا بترجمة كلّ منهم لعدد مختلف من الرباعيّات عن منظومة الشاعر الإنجليزي المعروف « إدوارد فيتزجيرالد » التي نهضت على عدد مختار من الرباعيّات لم يزد على مئة وعشر رباعيّات في إحدى طبعاتها الخمس والتي كانت سرّ شهرته وذيوع صيته في العالمين . ولقد خلفت عنايتهم بالخيّام والرباعيات معا آثارا متفاوتة فيهم . فالعقاد الذي كان أكثرهم تتبعا وإهتماما إنتقل من المعارضة الشعريّة لبعض أفكار الرباعيّات أو التأثر المقارني السلبي إلى موقف علمي معتدل إنبجس عن كثرة « مصادفاته » مع الخيام التي غيرت من نظرته العامّة إليه . [٣٤]

على سبيل المثال ، نرى أنّ للعقاد قصيدة عنوانها « جنّة الخيّام » :

رغيفُ خبز و وجه حلو و كأسِ مدامِ
وتلك جنّةُ عدنٍ في مذهبِ الخيامِ

---

[٣٣] ضيف ، شوقي ، **الأدب العربي المعاصر في مصر** ، الطبعة العاشرة ، دار المعارف القاهرة ، دون تاريخ ، ص٢٦٥.

[٣٤] بكّار ، يوسف ، **جماعة الديوان وعمر الخيّام** ، الطبعة الأولى ، المؤسّسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ٢٠٠٤م ، ص٧ .

وأبيات الخيام المترجمة هي :

A jug of wine, a loaf of bread – and thou
Beside me singing in the wilerness
O"wilderness were paradise enow [٣٥]

وقد حملت هذه الأمور كلّها العقاد على أن يتحول في الخيام والرباعيّات من المعارضة الفكريّة الصارمة أول الأمر إلى التفهّم العلميّ المعتدل في ضوء معرفة أكثر وأعمق جناها من إطلاعه على مصادر شتى بعد أن كان فتيزجيرالد ومنظومته مصدره الوحيد في البدء .

أمّا عبدالرحمن شكري الذي إنصبّ إهتمامه القليل على الرباعيّات بترجمته ثلاثا منها ، فقد كان معجبا ولم يخلُ شعره من تأثر عام بالرباعيات وإن يكن قليلا . وأما المازني ثالث الثلاثة ، فقد كان معجبا إعجابا قاده إلى أن يذافح عن الخيّام ويحاول ردّ تهمتي « التصوف » و « الإبيقوريّة » عنه بقوة من خلال إهتماماته العلميّة المتعدّدة ، وأن يتصدّى لنقد ثلاث من أشهر الترجمات آنذاك : ترجمة « محمد السباعي » ، وترجمة « أحمد رامي » ، وترجمة « أحمد حامد الصرّاف » ، وقد دفعه الأمران إلى أن يترجم ما ترجم من رباعيّات عن منظومة فيتزجيرالد أيضا [٣٦] .

---

[٣٥] الفاتح البدوي ، زينب ، **دراسة نقديّة مقارنة لشاعر عباس محمود العقاد** ، دون ط ، دار جامعة الخرطوم للنشر والطباعة ، الخرطوم ، ١٩٩٠م ، ص ص ٣٠٥ – ٣٠٤.

[٣٦] بكّار ، يوسف ، **جماعة الديوان وعمر الخيّام** ، الطبعة الأولى ، المؤسّسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ، ٢٠٠٤م ، ص ص ٨ – ٧.

الملامح الفلسفية الأجنبية في آرائهم وآثارهم :

كتب العقاد فى مجالات كثيرة ، فتارة يكتب عن الفلاسفة الغربيين والفلاسفة الإسلاميين وتارة يكتب في موضوعات عامّة مثل « عقائد المفكرين في القرن العشرين » [٣٧] . كما أنّه من أنصار المدرسة التطوريّة ، وهذا سرّ إحتفائه بنيتشة وشوبنهور وبرناد شو ، والحقّ إنّ الداروبنيّة قد أفادت الفكر الفلسفي والداراسات الإنسانيّة أضعاف ما أفادت به العلم الذي تحسب عليه ولقد آمن العقاد بجدوى هذا العلم في فهم الإنسان والوقوف على سرّ الحياة فيه ، ذلك بأنّه علم الأحياء والإنسان في نهاية الأمر « حيوان راق » بل لايزال حيوانا على حد تعبيره فى مقدمة كتابه « أنا ». [٣٨]

نراه يكتب عن « غاندي » ويشيد به ويعجب بالزعيم الباكستاني « محمد علي جناح » كما يعجب بـ « محمد فريد » و « سعد زغلول » ، ويكتب عن عبقريّة محمد كما يكتب عن عبقريّة المسيح [٣٩].

يقول « حمدي السكوت » حول كتاب الديوان وسبب عنف اللهجة فيه مؤكدا تأثره بالغرب « يبدو أنَّ سبب عنف لهجة كتاب « الديوان » يرجع .

---

[٣٧] ضيف ، شوقي ، **الأدب العربي المعاصر في مصر** ، الطبعة العاشرة ، دار المعارف القاهرة ، دون تاريخ ، ص١٣٨.

[٣٨] العقّاد ، عباس محمود ، **أنا** ، الطبعة الأولى ، دار الكتاب العربى ، بيروت ١٩٦٩م ، ص ٩٨.

[٣٩] الخفاجي ، محمد عبد المنعم ، **دراسات فى الأدب العربي الحديث ومدارسه** ، الجزء الثانى ، الطبعة الأولى ، دار الجيل ، بيروت ، ١٩٩٢م ، ص٣٥.

بالإضافة للغيرة على تغيير نظرة الناس إلى الشعر - إلى ظروف المرض وحالة اليأس ... كما أنّ هذا العنف يرجع . فيما يبدو . إلى كتابات « ماكس نورداو » التي قرأها العقاد وترجم الكثير منها والتي إنتقلت عدواها إلى «المازني» . وأيضا أسهمت قراءة العقاد لطاغور وإعجابه بالفلسفة الهنديّة (فى ذلك الوقت).[٤٠]

كما قرأ شكري من زعماء المدرسة الأدبيّة الواقعيّة في بريطانيا ، من أمثال براوننج وبوويتمان وتوماس هاردي الذين صبغوا شعرهم بالحزن والكآبة والتشاؤم ، فتأثر شكري بهذه النزعة ، وجاء أدبه حزينا كئيبا متشائما[٤١] . حينئذ نزعت به نفسه أن يدخل الشعر من هذا الباب ومن الأبواب الواسعة التي فتحها أمامه شعراء كتاب « الذخيرة الذهبية ». وديوانه الأول الذى نشره عقب تخرجه في مدرسة المعلمين و سمّاه « ضوء الفجر » يصور خير تصوير هذا الإتجاه ، الذي كان يعدّ ثورة في أوائل القرن [٤٢] .

---

[٤٠] السكوت ، حمدي ، عباس محمود العقاد ، المجلّد الأول ، الطبعة الأولى ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ١٩٨٣م ، ص ص ٢٧ - ٢٦.

[٤١] الدسوقى ، عمر ، **فى الأدب الحديث** ، المجلد الثانى ، الطبعة السابعة ، دار الكتاب العرب ، بيروت ، ١٩٦٦م ، ص٢٤٤.

[٤٢] ضيف ، شوقي ، **الأدب العربي المعاصر في مصر** ، الطبعة العاشرة ، دار المعارف القاهرة ، دون تاريخ ، ص١٣١.

الخاتمــة :

رأينا فيما مضى أنّ أعضاء مدرسة الديوان كانوا يتأثرون بالآداب الأجنبيّة بواسطة قراءاتهم أو ترجماتهم من الكتب الأجنبيّة ولاسيما الإنجليزيّة منها ؛ وهذا ما يتّضح لنا من خلال مقالاتهم عن الشعراء والأدباء والمفكرين الأجانب مباشرا وعن طريق أخذ فكرتهم وآرائهم عنهم فى نقدهم وإنتاجاتهم الأدبية . يؤكد قولنا تأثر هؤلاء الثلاثة من كتاب « الذخيرة الذهبيّة » ومقالات العقاد وآراؤه فى « ماكس نورداو » في قضيّة الجمال وأفلاطون وفلسفة الأخلاق وكانت وفلسفته وآراء شكري فى الخيال والتوهّم متأثرا من الغرب و « وردزورث » و « كولردج » .

المصادر :

١- أبو الشباب ، واصف ، **القديم والجديد في الشعر العربي الحديث** ، دون ط ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٩٨م .

٢- بكّار ، يوسف ، **جماعة الديوان وعمر الخيّام** ، الطبعة الأولى ، المؤسّسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ، ٢٠٠٤م .

٣- الحاوي ، إبراهيم ، **حركة النقد الحديث والمعاصر في الشعر العربي الحديث** ، الطبعة الأولى ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٨٤م .

٤- الخفاجي ، محمد عبد المنعم ، **دراسات فى الأدب العربي الحديث ومدارسه** ، الطبعة الأولى ، دار الجيل ، بيروت ، ١٩٩٢م .

٥- الدسوقى ، عمر ، **فى الأدب الحديث** ، جزءان ، الطبعة السابعة ، دار الكتاب العرب ، بيروت ، ١٩٦٦م .

٦- الديدى ، عبد الفتّاح ، **عبقريّة العقّاد** ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٤م .

٧- السكوت ، حمدي ، عباس محمود العقاد ، المجلّدان ، الطبعة الأولى ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ١٩٨٣م .

٨- ضيف، شوقي ، **الأدب العربي المعاصر في مصر** ، الطبعة العاشرة ، دار المعارف القاهرة ، دون تاريخ .

٩- العقّاد ، عباس محمود ، **أنا** ، الطبعة الأولى ، دار الكتاب العربى ، بيروت ١٩٦٩م .

١٠- العقاد ، عباس محمود ، **شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضي** ، دون ط ، مطبعة حجازي ، مصر، ١٩٣٧م .

١١- العقّاد ، عباس محمود والمازني ، إبراهيم عبدالقادر ، **الديوان في الأدب والنقد** ، دون ط ، دار الشعب ، القاهرة ، ١٩٢١م .

١٢- الفاتح البدوي ، زينب ، **دراسة نقديّة مقارنة لشاعر عباس محمود العقاد** ، دون ط ، دار جامعة الخرطوم للنشر والطباعة ، الخرطوم ، ١٩٩٠م .

١٣- القط ، عبدالقادر ، **الإتّجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر** ، الطبعة الثانية ، دار النهضة العربيّة ، بيروت ،١٩٨١م .

١٤- هدارة ، محمد مصطفى ، **بحوث في الأدب العربي الحديث** ، دون ط ، دار النهضة العربية ، بيروت ١٩٩٤م .

١٥- الورقي ، سعيد ، **لغة الشعر العربي الحديث** ، الطبعة الثالثة ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٨٤م .

التغيرات المناخية في العراق
(١٣٢ ــ ٦٥٦هـ /٧٤٩ ـ ١٢٥٨م)
دراسة تاريخية

أ.الدكتورة ناهضة مطير حسن
جامعة واسط / كلية التربية ـ قسم التاريخ

الملخص :

لا شك في ان دراسة المناخ في العراق خلال العصر العباسي ، يساعدنا في وضع رؤية واضحة لمعرفة التغيرات التي حدثت على مناخه اولا وكذلك التنبؤ بالظواهر المناخية في المستقبل ثانيا ؛ إذ ان ما نشهده اليوم من تغيرات كبيرة ، تستوجب العودة بنا الى التاريخ لدراستها ، حتى يمكننا القول انها تغيرات طبيعية او انها بفعل تدخل الانسان ، الذي اختلفت دوافعه وتوجهاته للتحكم بتلك الظواهر المناخية .

قسمت البحث الى ثلاث فقرات ، تضمنت الفقرة الاولى : التعريف بالطقس والمناخ واهتمام الانسان بهما منذ القدم ؛ وخصصت الفقرة الثانية : لذكر مختلف التغيرات المناخية التي حدثت في العراق ولعل ابرزها التذبذب الكبير في كميات الامطار ، والثلوج الساقطة وكذلك ارتفاع درجات الحرارة والعواصف والرياح ، كما ذكرت في الفقرة الثالثة : اهم الآثار الناجمة عن تلك التغيرات والظواهر المناخية ، ولزيادة الفائدة ذيلت البحث بجداول تدعم نتائج البحث .

المقدمة :

في ظل تزايد الحديث عن ما يعرف اليوم بالتغيرات المناخية ، والتنبؤات الكثيرة التي تتناول حدوث كوارث مناخية ، تجعل من الصعوبة السكن على الارض ، اصبح من الضرورة دراسة تاريخ المناخ والظواهر المناخية الجديدة التي شهدتها الارض ، وذلك لوضع تصور عن حجمها والمدة الزمنية التي استغرقتها ، والاسباب المهيئة لها ، لا سيما أن التغيرات المناخية ، التي تشهدها الكرة الارضية خلال القرن الاخير كبيرة جدا ، اختلفت وتنوعت فيها الكثير من الثوابت المناخية ، مثل شدة الحرارة او الرياح وقوتها والمتمثلة بالاعاصير وموجات المد المدمرة او هطول الامطار وهذا ما دفع علماء المناخ والمختصين بفيزياء الغلاف الجوي للبحث عن اسباب ذلك ، ووضع قواعد لدراستها ، وسنركز في بحثنا هذا على تاريخ التغيرات المناخية في العراق للفترة (١٣٢ - ٦٥٦هـ) حيث شهد مناخه تحولات مناخية كبيرة يمكن وصفها بالتطرف في بعض عناصرها ، وهذه أثرت كثيرا على الحياة بكل انواعها .

طرح علماء المناخ اسبابا مختلفة ، قد تقدم تصورا عن ما يعانيه المناخ من تقلبات كبيرة ، منها ما يرتبط ببعض النشاطات البشرية التي ادت الى زيادة حجم الاضرار بالغلاف الجوي ،، او الحروب المدمرة التي ادت الى الاضرار كثيرا بطبقة الاوزون التي تحيط بالغلاف الجوي ، وقد يكون لنشاط الدول التي وصفت بانها كبرى في محاولاتها للتحكم بالدول النامية عن طريق استخدام المناخ سلاحا من اجل السيطرة ، ما انعكس بتاثيره فيه ، إذ شهد تقلبات غريبة جعلت من الصعب التنبؤ بالاحوال الجوية بالاعتماد على

النظريات التقليدية ؟ في حين يعتقد بعض الباحثين ان تقادم عمر الارض الذي اختلف العلماء في تحديده ، سببا في تلك التغيرات

يحاول البحث وضع تصور عن مناخ العراق في تلك الحقبة التاريخية ، في محاولة للتوصل الى معرفة التغيرات التي حدثت عليه ، وما يمكن التنبؤ به من الظواهر المناخية في المستقبل إذ ان ما نشاهده اليوم من تغيرات كبيرة ، تستوجب العودة بنا الى التاريخ لدراستها ، حتى يمكننا القول أنها تغيرات طبيعية او انها بفعل الانسان ، الذي اختلفت دوافعه وتوجهاته للتحكم بتلك الظواهر المناخية .

تناولت في الفقرة الاولى : التعريف بالطقس والمناخ واهتمام الانسان بهما منذ القدم ، وخصصت الفقرة الثانية : لذكر مختلف التغيرات المناخية التي حدثت في العراق ولعل ابرزها التذبذب الكبير في كميات الامطار والثلوج الساقطة وكذلك ارتفاع درجات الحرارة والعواصف والرياح ، كما ذكرت في الفقرة الثالثة : اهم الآثار الناجمة عن تلك التغيرات والظواهر المناخية ، ولزيادة الفائدة ذيلت البحث بجداول .

وهنا اود الاشارة الى انني اقتصرت على ذكر التغيرات المناخية وفقا لسنوات حدوثها بالتاريخ الهجري فقط ، لكثرتها ، لكني اردفته بالميلادي في الجداول المرفقة .

اولا ـــ التعريف بالطقس والمناخ واهتمام الانسان بهما :

١. ما المقصود بالطقس والمناخ :

يعد مصطلحا (الطقس والمناخ) مصطلحين جغرافيين مترابطين تجمعهما العناصر الاساسية التي يتكونان منهما كالاشعاع الشمسي والحرارة والضغط الجوي والرياح والرطوبة والامطار ، فضلا عما يرافقهما من ظواهر طقسية ومناخية تتكون في الغلاف الجوي ، ويتمثل الاختلاف بينهما في المدة الزمنية التي تستغرقها عملية رصد الحالة الجوية المتوقعة ، وكذلك رقعتها الجغرافية .

فالطقس مثلا يرصد حالة الجو في مكان ما ، لمدة قصيرة قد تكون خلال يوم واحد او عدة ايام حيث يتم تحليل عناصره والتنبؤ بما يرافقها من ظواهر جوية كالضباب ، والسحب ، والعواصف الغبارية وغيرها ، إذ لم يعد كما كان عليه سابقا مجرد إشارات الى طبيعة عناصره وانما تحليل لتلك العناصر آنيا مع الاهتمام بتفسير اسباب حدوثها وتقدير ما يمكن أن تكون عليه لما لذلك من اهمية ، لاسيما في الوقت الحاضر ، على حياة الانسان اليومية[١].

اما بالنسبة للمناخ ، فقد تعددت محددات رصده ما بين مجموع المتوسطات أو المعدلات الشهريه او الفصلية والسنوية لكل جانب من جوانب الطقس ، بما فيها التغيرات الحالية او المتوقعة لمساحة واسعة ولعدد من الاشهر والسنوات ، وفقا لتفاصيله المتنوعة منها الاشعاع الشمسي ،

---

(١) جورج ، معجم ، ص١ .

والحرارة ، والضغط الجو والرياح ، والامطار والرطوبة ... وغيرها ، وذلك يعني اننا نجمع عناصر الطقس التي تحدد خلال يوم او عدة ايام ، لاعطاء صورة عن طبيعة وخصائص المناخ للمنطقة المدروسة والتنبؤ بالتغيرات المستقبلية للمناخ[٢] لهذا فقد اصبح علم المناخ والطقس في الوقت الحاضر من فروع علم الارصاد الجوي (علم الانواء) . [٣]

٢ ـ اهتمام الانسان بهما :

اهتم الانسان قديما وحديثا بدراسة الظواهر المناخية والطبيعية على سطح الارض. لما تعكسه من تاثير في حياته وانشطته وبيئته من حيث التربة وطبيعة الجو والنبات الطبيعي فضلا عن الحيوانات ، حيث ارجعوها الى قوى طبيعية او الى ارادة الهية خارج سيطرته لذلك فقد عبدوها واقاموا الطقوس احتراما وتقديرا لها .

ويرجع اهتمام الإنسان بالظواهر الجوية منذ ان وجد على سطح الأرض ، اذ كان الانسان في بداية مراحل حياته الاولى اكثر احساسا بالتأثير المباشر لظواهر الطقس اليومية لانه كان بدائيا يخضع لها خضوعا مباشرا في جوانب حياته (المأكل ، الملبس والمأوى) ، مما دفعه ذلك الى التفكير فيما يحيط به من تلك المؤثرات ويعطيها تفسيرا يتناسب وعقليته البدائية البسيطة [٤] ولا شك في ان الشعوب على اختلافها اهتمت بالمناخ

---

[٢] م . ن ، ص٢.

[٣] ينظر عبد الله ، الانواء الجوية ، ١٥١ .

[٤] علي ، المفصل في تاريخ العرب ، ج٦ / ص٥١ .

وظواهره منذ القدم ولا زالت ، حيث سجل تاريخ اليونان والرومان والفرس والصين فضلا عن مصر والعراق اروع النظريات التي اغنت الباحثين ومهدت لهم الطرق لدراسة طبيعة التغيرات المناخية واثرها على مجمل الحياة [٥] .

ونظرا لتأثر العرب بالبيئة الطبيعية في شبه الجزيرة العربية وفي مقدمتها خصائصها الطقسية والمناخية القاسية ، لذا فقد اندفعوا لرصد احوال الجو وذلك لتحديد فصول السنة الملائمة للسفر والترحال للتنقل بحيواناتهم او لزراعة اراضيهم [٦] ، ولا شك في ان معرفتهم بعلم الفلك قد دفعتهم الى ربط الكواكب بالتغيرات في الاحوال الجوية ، حيث نسبوا الامطار والرياح الى الساقط والطالع من النجوم فقالوا مطرنا بنوء[٧] والنوء هو سقوط نجم في المغرب وطلوع نجم في المشرق في نفس الوقت ومن هنا جاءت تسمية الانواء الجوية [٨] ، ولاهميتها في حياتهم فقد كتبوا مؤلفات كثيرة فيها ، اختص بعضها بعنوان واحد وهو الانواء حيث الفت فيه على ما ذكر ابن النديم خمسة وعشرون كتابا [٩] كما في الجدول الملحق ادناه [١٠] في حين

---

(٥) زيادة ، الجغرافية ، ص١٧ ؛ الياور ، المناخ واثره ، ص ٧ .

(٦) حاجي خليفة : كشف الظنون ، ج٦ / ص٤٨٦.

(٧) علي ، م ، ن ، ص٦٠ .

(٨) ينظر ابن قتيبة الدينوري ، الانواء في مواسم العرب ، ص١ ؛ عبد الله ، الانواء الجوية ، ص١٥٠ .

(٩) الفهرست ، ص ٥٩٢ .

(١٠) ص ١٤.

ان هناك مؤلفات اخرى اختصت بأبواب معينة كالسحاب والمطر والرياح ومن الذين كتبوا فيها النضر بن شميل (ت٢٠٣ او ٢٠٤هـ) الذي خصص ابوابا في كتابه الصفات عنيت بالرياح والسحاب والامطار ، كما الف قطرب محمد بن المستنير (ت٢٠٦هـ) كتاب الازمنة ويحيى بن زياد الفراء (ت٢٠٧هـ) كتاب الايام والليالي والشهور وعبد الملك بن قرب الاصمعي (ت ٢١٣هـ/ ٨٢٨ م) كتاب الاوقات وسعيد بن اوس الانصاري (ت٢١٥هـ) كتاب المطر وابو عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤هـ) في كتابيه السحاب والمطر والازمنة والرياح [١١] .

ولا شك في انهم برعوا في وصف الرياح والامطار وانواع السحاب في وقت لم تتوفر فيه وسائل القياس والتقدير وفي ذلك يقول الدكتور شاكر عبد العزيز انهم " جعلوا للرياح ثمانية واربعين اسما حسب اتجاه هبوبها وشدتها وما يرافقها من حرارة وبرودة وجفاف ورطوبة ولانواع السحاب خمس وخمسون اسما وفقا لشكل السحابة وارتفاعها عن سطح الارض وامكاناتها المطرية اما المطر فقد جعلوا له ثلاث وسبعين اسما على وفق شدته وفترة استمراره وحجم قطراته" [١٢] كما اوصلتهم دقة ملاحظاتهم الى الاستدلال عن قرب المطر من نوع البرق والسحب الذي يسبقه ، وحمرة الافق [١٣] حتى انهم وضعوا الاشعار والاسجاع التي تنبئ بالحالة من ملاحظة الدلالة التي

---

[١١] مقدمة الشيخ محمد حسن آل ياسين لكتابي السحاب والمطر والازمنة والرياح لابي عبيد القاسم بن سلام ، ص٦٢ .

[١٢] عبد الله ، الانواء الجوية ، ص١٥٠.

[١٣] ياقوت الحموي ، معجم ، مج١/ ص١٩ .

تسبقها [١٤] ولهذا فقد جعل القنوجي علم نزول الغيث كأحد العلوم التي برع فيها العرب خاصة [١٥] ، كما عرفوا طرقا للاستمطار [١٦] ، ولا شك في ان انهم اسهموا كثيرا في تطوير المفاهيم عن الظروف الجوية ، من خلال الارث الجغرافي والمناخي الكبير الذي تكون لديهم سواء عن طريق الملاحظة المباشرة ام بالاستنتاج ، حيث ساعدتهم في ذلك رحلاتهم البحرية بصفة خاصة في دراسة الدورة العامة للهواء على سطح الارض ، ولاسيما في المحيط الهندي ، حيث كانت سفنهم تجوب مياهه بلا توقف خلال اشهر السنة ، وهذا كله اسهم في بروز الملامح الحضارية ، حيث بدأ النتاج الفكري في هذا المجال يتبلور من خلال الربط بين هذه الظواهر تحليلا وتفسيرا وحتى توقعا واثرها على حياة وقابليات الانسان والوسائل التي ابتكرها لمواجهتها او التعايش معها[١٧] .

وردت اشارات عديدة عند بعض المؤرخين والبلدانيين الى اثر المناخ من حيث الرياح والامطار والحر والبرد وغيرها على نظام الحياة والوجود بأكمله ومن هؤلاء اليعقوبي الذي يعتقد ان التأثيرات المناخية تمتد في تأثيرها على جميع الاحياء فيقول "وجميع تغير احوال الحيوان من الناطقين وغيرهم فمن الهواء يكون ذلك " [١٨] كما اشار المسعودي الى اثر الرياح من حيث

---

[١٤] عبد الله ، الانواء الجوية ، ص١٥٠ .

[١٥] ابجد العلوم ، ج٢ / ص٥٦٥ .

[١٦] الجاحظ ، الحيوان ، ج٤/ ص٤٦٦ ؛ الياور ، المناخ واثره ، ص ٧ .

[١٧] زيادة ، الجغرافية ، ص ١١ ؛ الخفاف والموفي ، دراسات ، ص ٣٨ .

[١٨] البلدان ، مج٢/ ص٢٣٣ .

اتجاهاتها وانواعها وشدتها على الحياة ، وربط بين مواعيد هبوبها وما يرافق ذلك من عواصف او زوابع [١٩] ، ويرى القزويني انه "بسبب تأثير الشمس .. ونزول المطر .. وهبوب الرياح .. فقد اختصت كل بقعة بخاصية لاتوجد في غيرها " [٢٠] .

كما ذكر اخوان الصفا اثر المناخ في طبيعة اشكال الناس وطريقة عيشهم [٢١] ، وتضمنت مقدمة ابن خلدون حقائق علمية عن عناصر المناخ وتاثيراتها ، ومنها اثر المناخ في عادات الشعوب وتقاليدهم وانشطتهم المختلفة [٢٢]

ثانيا ــ الظواهر المناخية في العراق خلال العصر العباسي والتغيرات التي طرأت عليها :

١ . تذبذب كميات الامطار والثلوج :

لا شك في ان اعادة بناء التصورات حول المناخات في الحقب التاريخية توفر سياقا تاريخيا يفيد في فهم المناخ في الوقت الحاضر ، نظرا لان جميع الظواهر الطبيعية والبشرية التي وجدت على سطح الارض تتاثر

---

[١٩] مروج الذهب ، مج ٢/ ص٢٣٣ .

[٢٠] رسائل ، مج١ / ص١٦٦ .

[٢١] المقدمة ، ص ٦٠ .

[٢٢] البلدان ، ص١٤ .

بما يحدث من تغيرات في الغلاف الجوي والتي هي أساسا تمثل عناصر الطقس والمناخ .

بداية نحاول ان نحدد من خلال التاريخ ، الآراء التي ذكرها المؤرخون عن مناخ العراق ، التي اكتسبها من موقعه المتميز ، وفي هذا الصدد يذكر اليعقوبي ان موقع العراق " في وسط الدنيا .. في الاقليم الرابع وهو الاقليم الاوسط ، ادى الى ان يعتدل فيه الهواء في جميع الازمان والفصول فيكون الحر به شديدا في ايام القيظ والبرد شديدا في ايام الشتاء ويعتدل الفصلان الخريف والربيع في اوقاتهما .. وكل فصل ينتقل من هواء الى هواء ومن زمان الى زمان فلذلك اعتدل الهواء وطاب الثوى. وعذب الماء وزكت الاشجار وطابت الثمار .. وكثرت الخيرات "[٢٣] ، ويؤيد قوله هذا المسعودي [٢٤] وياقوت الحموي[٢٥] .

كما يحدد ابن خلدون مناخ العراق بقوله " ان المعمور من الارض انما هو وسطها لافراط الحر في الجنوب منه والبرد في الشمال ...والعراق والشام اعدل هذه كلها لانها وسط من جميع الجهات " [٢٦] .

وبهذا يتبين ان موقع العراق قد اثر في مناخه فاصبح هواؤه معتدلا ، وهذا ما انعكس على طبيعة اهله واشكالهم ومعاشهم بل وطريقة تفكيرهم [٢٧].

---

[٢٣] مروج الذهب ، ج٢ / ص٦٨ .

[٢٤] معجم ، مج٣ / ص٣٠٦ .

[٢٥] المقدمة ، ص٦٠ .

[٢٦] اليعقوبي ، البلدان ، ص ١٤ ؛ ياقوت الحموي ، معجم ، مج٣ / ص٦٨ .

[٢٧] ينظر الجداول ادناه .

اذن ما الذي تغير حتى اصبح العراق يشكو من التغيرات السريعة في مناخه بكل تفصيلاته وهذا ما اثر على الحياة بجميع اشكالها وفي جوانبها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ؟ .

وللاجابة عن ذلك ينبغي متابعة التغيرات المناخية ، التي اثارت المؤرخين ، فكتبوا عنها ومن خلالها يمكن تحديد تأثيراتها في مجمل الحياة .

يظهر من خلال المصادر ان تسجيل الاخبار عن التغيرات المناخية في العراق ابتدأ منذ منتصف القرن الثالث الهجري ، بشكل يوحي بأن المرحلة السابقة ، منذ اعلان تأسيس الدولة العباسية (١٣٢هـ) [٢٨] ، كانت مبهمة لم يحدث فيها أي تغير مناخي ، وهذا طبعاً ما لا يمكن الاخذ به ، إذ انه مما لاشك فيه حدوث بعض التغيرات المناخية ، لكن قوة الدولة العباسية وتمكنها – في عصرها الذهبي الاول – من معالجة الكوارث بسرعة ، قد يكون سببا في احجام المصادر عن ذكرها ، بسبب تأثيراتها الطفيفة [٢٩] ، وقد يكون للفوضى التي شهدتها الدولة العربية الاسلامية في نهاية العصر الاموي وبداية العباسي ، ما غطى على تسجيل بعض الظواهر المناخية او حتى الاهتمام بها .

ان ما ورد من تلك المعلومات عن التغيرات والظواهر المناخية قليلة ، إذ اكتفى اغلبها بذكر التغير المناخي البارز من دون تقديم تفاصيل دقيقة عنه والمتعلقة بالشهر الذي حدثت فيه او الفترة الزمنية التي استغرقها مثل

---

[٢٨] حسن ، تاريخ الاسلام ، مج٢ / ص ٢١ .

[٢٩] ينظر الجدول (١) .

سقوط كميات كبيرة منه وبأوزان مختلفة وكذلك استمراره لعدة سنوات منها ما حدث في عام ٢٨٥ هـ في البصرة حيث وقع "برد كبير وكان وزن البردة ١٥٠ درهما " [٤٠] ، وكذلك في بغداد التي نالت الحصة الاكبر من الثلوج منها ما حدث في عام ٢٩٦ هـ " حيث سقط ثلج عظيم بلغ نحو من اربعة اصابع في اواخر ربيع الاول" [٤١] وفي عام ٣٢٧ هـ حيث " سقط برد كبار كل واحدة اوقيتين " [٤٢] كما " سقط ثلج عظيم " في بغداد وتكريت والكوفة وواسط والنهروان في عام ٣٩٨ هـ " إذ بلغ ارتفاعه نحو من ذراعين ونصف ومكث اسبوعا لم يذب ، وقد بلغت زنة البردة الواحدة في واسط مائة وستة دراهم" [٤٣] وكذلك في السنوات ٤١٧ هـ [٤٤] و٤١٨هـ [٤٥] حيث بلغت زنة البردة في بغداد التي سقط فيها الثلج مرتين بحجم البيضة [٤٦] وفي واسط بلغت ارطالا [٤٧] كما جمدت المياه وحافات دجلة في بغداد في

---

(٤٠) م . ن / ٧ .

(٤١) جدول (١) / ١٣ .

(٤٢) م . ن / ١٩ الاوقية مقياس للوزن وهي اربعون درهما ينظر ابن منظور ، لسان العرب ، ج١١/ ص٢٨٥ .

(٤٣) م . ن / ٢١ .

(٤٤) م . ن/ ٢٢و٢٣ .

(٤٥) م . ن /٢٢ .

(٤٦) م . ن / ٢٢ .

(٤٧) م . ن / ٢٣ ؛ الرطل : الذي يوزن به ويكال قال ابن الاعرابي هو اثنتا عشرة اوقية بأواقي العرب والاوقية اربعون درهما فيكون مقياس كيله اربعمائة وثمانون درهما ينظر ابن منظور ، لسان العرب ، ج١١/ ص٢٨٦ .

نفس العام واستمر سقوط البرد في بغداد في الاعوام ٤١٩هـ[٤٨] و ٤٣٠هـ [٤٩] [٤٩] وفي ٤٥٠هـ [٥٠] حيث بلغ وزنها سبعة ارطال في عام ٥٦٩هـ[٥١] ، وهذه الكميات من الثلوج والبرد دفعت الباحثين الى وضع نظريات مختلفة منها انه قد يكون للامر صلة بوقوع انفجار بركاني [٥٢] .

ولا شك في ان زيادة نسبة الامطار والثلوج هذه ، قد ادت الى الفيضانات المتكررة كما هو مبين ادناه [٥٣] ، وكانت لها آثار مدمرة على مجمل الحياة ، في حين شهدت بعض السنوات تأخر في الامطار وقلتها وهذا ما دفع الناس للاستسقاء[٥٤] .

٢ ـ ارتفاع درجات الحرارة :

ان اشتداد الحرارة في فصل الصيف أمر طبيعي ، تميز به مناخ العراق ، في مقابل اعتدال المناخ في شهري ايلول وتشرين الاول ، اللذين شهدا في بغداد خلال عام ٣٣١هـ ارتفاعا في درجات الحرارة وصف بأنه "

---

[٤٨] م . ن / ٢٤ .

[٤٩] م . ن / ٢٥ .

[٥٠] م . ن/٢٧ .

[٥١] م . ن / ٢٩ .

[٥٢] ينظر دراسة بريطانية : انفجار بركاني خفض الحرارة ببغداد وخفايا مناخها موثقة ، مقالة منشورة على الموقع الالكتروني www.shafaaq.com

[٥٣] جدول ٢ .

[٥٤] جدول ٣ .

يأخذ الانفاس " [٥٥] وكذلك الامر بالنسبة للبصرة خلال عام ٣٧٨هـ [٥٦] كما وصلت الحرارة في شهري تشرين الاول والثاني من عام ٤٥٦ هـ في العراق الى درجات عالية ، وهذه انعكست على البيئة فكثر الوباء وفسد الهواء [٥٧] .

٣ ـ العواصف والرياح :

كما تعرض مناخ العراق الى رياح تدرجت في شدتها ما بين الشديدة او العواصف العالية التي اختلفت الوانها ما بين الصفراء ، والمُحمرة ، والسوداء المظلمة ، وذلك انعكاسا لما تحمله من الرمال او الوحل ...الخ [٥٨] منها الرياح التي هبت على بغداد عام ٥٧٣هـ والتي وصفت بأنها "زلزلت الارض " [٥٩] وكذلك التي تعرض لها العراق كله في عام ٥٧٥هـ التي وصفت "بالسوداء المظلمة"[٦٠] واخرى وصفت بانها " ريح شديدة سوداء مدلهمة "في عام ٥٩٢ هـ . [٦١]

---

[٥٥] جدول ٤/ ٤٤ .

[٥٦] جدول ٤/٤٥ .

[٥٧] جدول ٤/٤٦ .

[٥٨] ينظر جدول (٥) .

[٥٩] م ٠ ن /٥٦ .

[٦٠] م ٠ ن/ ٥٧ .

[٦١] م ٠ ن/ ٥٨ .

فضلا عما سبق ذكره فقد ذكرت بعض الروايات ان هناك تغيرات مناخية قد تعرض لها مناخ العراق ، يمكن ان نعدها غريبة ، منها تعاقب التغيرات المناخية في شهر واحد حيث اشتد الحر في شهر تشرين الثاني من عام ٢٦٦ هـ ثم البرد حتى جمد الماء [٦٢] او سقوط الثلج الذي بلغ نحو من اربعة اصابع في بغداد نهاية شهر ربيع الاول من عام ٢٩٦هـ [٦٣] او البرد الشديد جدا في بغداد خلال شهر تموز من عام ٣٠٨ هـ وفيه " نزل الناس عن الاسطح وتدثروا باللحف والاكسية " [٦٤] او المطر الغزير الذي وصف كأفواه القرب في العراق خلال عام ٣٣٠هـ [٦٥] وكذلك الريح العظيمة التي زلزلت الارض في بغداد خلال عام ٥٧٣هـ [٦٦] .

ثالثا ـ الآثار الناجمة عن التغيرات والظواهر المناخية :

ان اكثر الذين يتضررون من التغيرات المناخية والبيئية هم الطبقات المتوسطة والفقيرة في المجتمع ، وذلك لان امكاناتها البسيطة لا تستطيع الصمود بوجه تلك التغيرات المناخية الصعبة التي يمكن القول ان بعضها طارئ على مناخ العراق ، ولا شك في ان ما قيل عن بعض هذه التغيرات ، مخيف جدا ، وهذا واضح من خلال العبارات التي وصفت بها مثل " ظلمة

---

(٦٢) ٤/ ٤٣ .

(٦٣) جدول ١/ ٧ .

(٦٤) م .ن /٩ .

(٦٥) م . ن /١٤ .

(٦٦) جدول ٥ / ٥٦ .

شديدة "[٦٧] او "ريح صفراء ثم خضراء ثم سوداء" [٦٨] و"مطر عظيم سقط بعضه نارا" [٦٩] او" رعد وبرق متصل وغيم منعقد مطبق"[٧٠] وغيرها .

ومع حجم المبالغات الكبيرة في توصيفها او حجم الخسائر التي سببتها ، الا اننا نستنتج من خلال تلك الروايات التي سنذكرها ، انها اثرت بشكل او بآخر فمثلا كثرت الامطار في بغداد عام ٢٣٢ هـ وتهدمت الدور حتى " مات الناس تحت الهدم " [٧١] والرواية هذه لا تحدد المدة التي استمر بها نزول المطر وكم من البيوت سقطت وفي رواية اخرى انه مات في مدينة الموصل عام ٢٣٢ هـ " اكثر من ثلاثين الف " !! [٧٢] ولا شك في ان هذا العدد مبالغ فيه .

نحن هنا لا نقلل من حجم المعاناة التي كانت كبيرة ، لا شك في ذلك ، لاسيما مع التدهور السياسي والمعيشي للناس حيث نجد ان المعاناة تزداد مع معاناة البلد بسبب وقوعها تحت التسلط الاجنبي او ضعف الحكام وسيطرة الفاسدين عليهم ، وعدم قدرة الناس على مواجهة الكوارث بدون اسناد الدولة كونه يحتاج الى امكانات مالية وبشرية ، هذا فضلا عما سببته لهم من خوف وخسائر كبيرة ولعل اكثر الخسائر كانت تلحق بهم اما بسبب

---

(٦٧) م ن /٥٦ .

(٦٨) جدول ١/٦ .

(٦٩) م ٠ ن /٢٨ .

(٧٠) م ٠ ن /٥ .

(٧١) م ٠ ن /١٥ .

(٧٢) م ٠ ن /١ .

الامطار فمثلا استمر سقوط المطر في بغداد عام ٣٢٧هـ حتى سقطت بسببه بيوت كثيرة [٧٣] ، وكذلك الامر بالنسبة لعام ٣٣٢هـ [٧٤] وغيرها [٧٥] او البرد الشديد في بغداد عام ٣١٤ هـ حيث " جمدت الادهان والاشربة وماء الورد والخل حتى احتار الناس في ذلك" [٧٦] كما حدث في نفس العام في الموصل ان جمدت دجلة حتى عبر عليها الدواب لشدة البرد [٧٧] ، وجمد الماء في الحمامات وبول الدواب في الطرقات في بغداد عام ٣٨٨ هـ [٧٨] كما طفح الماء في بغداد عام ٦٥٤هـ من اعلى الاسوار ودخل دار الخلافة وابحرت السفن في ازقة بغداد "[٧٩] فضلا عما سببته الامطار الغزيرة والثلوج من حدوث الفيضانات منها ما حدث في عام ٣١٩ هـ [٨٠] وغيرها [٨١] وهذا بالتأكيد تسبب في " قتل الناس ودوابهم وتهديم دورهم " [٨٢] .

هذا فضلا عن الرياح التي كان تأثيرها مدمرا لا سيما ان بعضها وصف بالشديدة او العاصفة فمثلا هبت رياح عاصفة على البصرة عام

---

(٧٣) م ٠ ن /١٣ .

(٧٤) م ٠ ن /١٥ .

(٧٥) م ٠ ن .

(٧٦) م ٠ ن/١٠ .

(٧٧) م ٠ ن /١١ .

(٧٨) م ٠ ن /١٧ .

(٧٩) جدول ٣٥/٢ .

(٨٠) جدول ١٥/٥ .

(٨١) ينظر جدول ١ .

(٨٢) م ، ن/ ١، ١٥ ١٨ ، ٢٢ ، ٢٩ .

٢٨٩هـ تسـببت فـي" قلع كثير من النخل " [٨٣] وكذلك في عام ٣٧٨هـ حيث " هدمت الابنية وغرقت السفن ... وحملت الرياح بعض الزوارق والقتها في الارض" [٨٤] ، وبسبب البرد الشديد والرياح في بغداد في عامي ٤١٩ هـ [٨٥] و ٤٤١ هـ [٨٦] لم يذهب الناس لاداء فريضة الحج .

ان الخوف من بعض هذه التغيرات المناخية مثل الرياح العالية ، والبرق ، والرعد ، والامطار الغزيرة ، قد يدفع الناس الى استحضار صور العذاب التي سلطها الله جل وعلا على بعض الاقوام كما ورد في القرآن الكريم [٨٧] وذلك لكثرة الذنوب والخطايا والفساد التي انتشرت بين الحكام وحاشيتهم في المجتمع ، فمثلا ارتفعت سحابة سوداء في بغداد عام ٤٤١ هـ زادت ظلمة الليل وظهر في جوانب السماء كالنار المضيئة ، فخاف الناس منها كثيرا [٨٨] كما سقط في الموصل عام ٥٢٤ هـ مطر عظيم وقع بعضه نارا ، مما تسبب بحرق الدور والناس ، وهرب الكثير خوفا من ذلك [٨٩] .

او حتى الظن بحلول الساعة (يوم القيامة) فمثلا هبت رياح سوداء على العراق عام ٣١٩هـ حتى "اصبح الناس لا يبصر بعضهم نهارا وظنوا

---

(٨٣) جدول ٥/٤٧ .

(٨٤) م ، ن/٥١ .

(٨٥) جدول ١/٢٤ .

(٨٦) جدول ٥/٥٤ .

(٨٧) ينظر عبد الباقي ، المعجم المفهرس ، ص ٥٧٣ .

(٨٨) جدول ١/٢٦ .

(٨٩) م . ن /٢٨ .

انها القيامة " [٩٠] ، وكذلك الامر في عامي ٥٧٣هـ [٩١] و٥٧٥هـ [٩٢] حيث ظن الناس انها القيامة ، فأقبلوا على التضرع والدعاء .

يتبين لنا ان مناخ العراق قد تعرض لتأثيرات مناخية كبيرة من الكتل الهوائية ، والامطار والثلوج بتأثير عناصر المناخ للمناطق القريبة للعراق او البعيدة عنه ، ولعل ابرز ما يميزه الثلوج الكثيرة التي سقطت عليه هذا فضلا عن الامطار والرياح الشديدة .

ان ما يشهده مناخ العراق اليوم من ظواهر مناخية متطرفة وتحديدا درجات الحرارة العالية والمخيفة فضلا عن الرياح القوية وتذبذب الامطار تستدعي بالعلماء التوجه لدراسة اسباب تغير مناخ العراق التي يأتي في مقدمتها التلوث البيئي في الكرة الارضية والذي اثر في مناخها فضلا عن الحروب المدمرة التي شهدها العراق والتي استخدمت فيها مختلف انواع الاسلحة ، فضلا عن ذلك ما ذكرته الكتب المقدسة ومنها القرآن الكريم من علامات ليوم القيامة والتي تحمل في انذاراتها التغيير في قوة وتأثير العناصر المناخية .

---

[٩٠] جدول ٥ /٥٠ .

[٩١] م . ن /٥٦ .

[٩٢] م . ن / ٥٧ .

المصـــادر :

- **القرآن الكريم**

المصادر الاولية

١ـ ابن الاثير ، عز الدين علي بن ابي الكرم (ت ٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م) الكامل في التاريخ ، ط٧ (دار صادر ، بيروت ، ٢٠٠٥) .

٢ـ اخوان الصفا وخلان الوفا (القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي) الرسائل (بيروت ، ١٩٩٩) .

٣ـ الجاحظ ، عمرو بن بحر (٢٥٥هـ/ ٨٦٨ م) الحيوان ، تحقيق عبد السلام محمد هارون (دار الجيل ، بيروت ، ١٩٩٦) .

٤ـ حاجي خليفة ، مصطفى بن عبد الله (ت ١٠٦٧هـ/١٦٥٧م) كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون (دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٩٢) .

٥ـ ابن خلدون ، عبد الرحمن (٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م) المقدمة (دار ومكتبة الهلال ، بيروت ، ١٩٨٨) .

٦ـ ابي عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤هـ /) كتاب السحاب والمطر وكتاب الازمنة والرياح ، تحقيق محمد حسن آل ياسين منشور في مجلة المجمع العلمي العراقي ، مج٣٦ ، ج١ (بغداد ، ١٩٨٥)

٧ـ ابن قتيبة الدينوري ، عبد الله بن مسلم (ت٢٧٦هـ / ٨٨٩م) الانواء في مواسم العرب (دار الكتب المصرية ، القاهرة ، بلا)

٨ـ القزويني ، زكريا بن محمد بن محمود (٦٨٢هـ/ ١٢٨٣م) آثار البلاد واخبار العباد (دار صادر ، بيروت ، بلا) .

٩ـ القلقشندي ، احمد بن علي (ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م) صبح الاعشى في صناعة الانشا ، تحقيق عبد القادر زكار (وزارة الثقافة ، دمشق ، ١٩٨١)

١٠ـ القنوجي ، صديق بن حسن (ت١٠٣٧ هـ / ١٨٨٩م) ابجد العلوم الوشي المرقوم في بيان احوال العلوم ، تحقيق عبد الجبار زكار (دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٧٨) .

١١ – ابن كثير ، ابو الفدا (ت ٧٧٤هـ/) البداية والنهاية ، ط٢ (دار الكتب العلمية ، بيروت ، ٢٠٠٥) .

١٢- المسعودي ، علي بن الحسين (ت ٣٤٦هـ/ ٩٥٦م) مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق الشيخ قاسم الشماعي الرفاعي ط١ (دار القلم ، بيروت ، ١٩٨٩) .

١٣ـ ابن منظور ، محمد بن مكرم بن منظور الافريقي المصري (ت ٧١١هـ/ ١٣١١م) ط١ (دار صادر ، بيروت ، بلا) .

١٤- ابن النديم ، محمد بن ابي يعقوب(ت ٣٨٠هـ/ ٩٨٧م) الفهرست ط٢(دار الكتب العلمية ، بيروت ، ٢٠٠٢) .

١٥- ياقوت الحموي ، شهاب الدين ابي عبد الله (ت٦٢٦هـ/ ١٢٦٦م) معجم البلدان (دار احياء التراث العربي ، بيروت ، بلا) .

١٦- اليعقوبي ، احمد بن ابي يعقوب (٢٨٤ هـ/ ٨٩٧ م) البلدان ، ط١ (دار الكتب العلمية ، بيروت ، ٢٠٠٢م) .

المراجع الحديثة :

١٧- جورج ، بيار ، معجم المصطلحات الجغرافية ، ترجمة حمد الطفيلي (المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر ، ٢٠٠٢) .

١٨- حسن ، ابراهيم حسن ، تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ط٧ (مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٤) .

١٩- الخفاف والموفي ، عبد علي ومحمد احمد عقلة ، دراسات في التراث الجغرافي العربي الاسلامي ، (دار الكندي ، عمان ،٢٠٠٠) .

٢٠ - دراسة بريطانية : انفجار بركاني خفض الحرارة في بغداد مقالة منشورة على الموقع الالكتروني www.shafaaq.com

٢١ - زيادة ، نقولا ، الجغرافية والرحلات عند العرب (الشركة العالمية للكتاب ، بيروت ، ١٩٨٧) .

٢٢ - عبد الباقي ، محمد فؤاد ، المعجم المفهرس لالفاظ القرآن الكريم ، ط٣ (ذوي القربى ، قم ، ١٣٨٤هـ) .

٢٣ - عبد الله ، شاكر عبد العزيز ، الانواء الجوية في التراث العربي بحث منشور ضمن وقائع ندوة المنطلقات الاساسية لدراسة تاريخ العلوم عند العرب المجمع العلمي بغداد ٢٠٠٠ .

٢٤ - علــي ، جــواد ، المفصــل فــي تــاريخ العــرب ، ط٢ (دار العلــم للملايين ، بيروت ، ١٩٧٨) .

٢٥ - الياور ، طلعت رشاد ، المناخ واثره في فن البناء ، بحث منشور في ندوة العمارة والبيئة (المجمع العلمي العراقي ، بغداد ، ٢٠٠١) .

البنى الأسلوبية في قصيدة غريب على الخليج
للشاعر بدر شاكر السياب

الدكتور لطيف يونس حمادي الطائيّ
معهد الفنون الجميلة / محافظة ديالى/ العراق

الملخص :

متغيرات العالم الحديث حتّمت ظهور نمط جديد من الشعر في بدايات القرن العشرين بعد أن ضاقت قوالب التعبير بالموضوعات العصرية ، فنتج ظهور نمط جديد للقصيدة العربية ، هو قصيدة التفعيلة ، أو الشعر الحر .

ونحاول في هذه الدراسة الوقوف على البنى الاسلوبية في النص الشعري الحداثوي الحر ، بوصفه الملمح الرئيس للحداثة بما يكمن في عناصره من دهشةٍ ، ومفارقةٍ ، وانزياحٍ ، وخيالٍ فسيح يفتح الآفاقَ لدى المتلقين لقراءات متعددةٍ ومفتوحةٍ . واخترنا قصيدةً للشاعر العراقي بدر شاكر السياب ، هي : (غريب على الخليج) إذ تعد واحدة من القصائد المهمة في طابعها الأسلوبي والتصويري ، وحتى تصل الدراسة إلى هدفها المنشود قسمتها على ثلاثة محاور :

الأول : المستوى الصوتي. الثاني : مستوى تشكيل الصورة (المستوى الدلالي) . الثالث : المستوى التركيبي .

تبحث الأسلوبية في العلاقات التي تربط بنيات النص الأدبي وفق معطيات ايقاعية ، ودلالية ، وتركيبية ، وغايتها بيان القيم والسمات الفنية التي توجد وراء هذه البنيات ، ثم اهتمام المبدع بوسائل تعبيرية وايحائية دون غيرها ، كي يرتقي بمستوى الخطاب الأدبي .

ولاشك في أن الدراسات الأسلوبية التطبيقية تعد رافدا مهما ومكملا للدراسات النظرية ، إذ اتجهت هذه الدراسات إلى الولوج إلى اعماق النصوص ، للبحث فيها وفي بنياتها اللغوية ، بهدف معرفة السمات الأدبية للنص ، وفحص الوسائل التعبيرية والإيحائية التي يبتكرها المبدع ، والتي ترقى بمستوى الكلام الأدبي عن الكلام العام .

وكان للشاعر العراقي بدر شاكر السياب تأثير واضح في نفوس الاوساط الأدبية والثقافية ومشاعرهم في عصره وبعده ، إذ لازال شعره كنزا يستحق الدرس والتمحيص . ونقف على رائعة من روائع السياب ، نقف على عتباتها الأسلوبية ؛ هي انشودةٌ تعزف نغمها الشجي ، على اوتار نفسٍ لفّتها عتماتٌ من الأسى ، ودياجير الفقر ، وتبعث بجمرها ريح الغربة فتتقدُ آلامُ النفسِ جمرا .

انكسارٌ نفسيٌّ عميق ينشر كلماته في القصيدة ، ويغتال نسمة الأمل التي تنبعث في ذيل القصيدة ، فيعود اليأس حلةً رثةً تغشى الغريبُ ، وكأنَّ أزرارها لا تُحلُّ ، هموم تنبع من نهرِ الدموع لغريبٍ قد أثكله الزمن بحرٍّ لجّيٍّ ، وغريب عالم السياب الشعري ، القلق له تواجده مع حشد الألفاظ الرمادية التي تهاوت إليه من معجم الحزن والأسى ، النسيج في شواطئ معتمة من حكاية تتشحُ ألما.

سنحاكي غربة السياب بحضورنا الأسلوبي لنكشف جماليات بنى غريب على الخليج في ثلاثة مستويات ، ضمّ كلٌّ واحدٍ محاور عدة ، وهي : المستوى الصوتي وضمّ محورين هما : محور موسيقى الإطار الخارجية المتمثلة بالقافية والوزن ، ومحور موسيقى الحشو الداخلية بمظهرين : التكرار والجناس . والمستوى الثاني : مستوى تشكيل الصورة(المستوى الدلالي) وفيه ثلاثة محاور هي : التشبيه ، والاستعارة ، وثنائية التضاد . والمستوى الأخير ، المستوى التركيبي ، وفيه ثلاثة محاور هي : محور دلالة الألفاظ والتراكيب ، ومحور نسق التركيب الندائي ، ومحور نسق التركيب الاستفهامي . وضمّ البحث خاتمة سُجلت فيها النتائج .

المستوى الأول : المستوى الصوتي

التشكيلات الصوتية في الشعر لها أبعادها ، ودلالاتها ناتج عن الكيفية التشكيلية الحاصلة منها ، فأخذت هذه التشكيلات حظّها الوافر في الدراسات الأسلوبية ، وبيان خصائصها . ودراسة هذه التشكيلات في النص الشعري تعني دراسة موسيقاه بنوعيها – موسيقى الإطار وموسيقى الحشو– ، أو كما جرت العادة في تسميتها الموسيقى الخارجية والموسيقى الداخلية .

المحور الاول : **موسيقى الإطار الخارجية** :

تساهم موسيقى الإطار المتناسقة في تنمية الناحية الجمالية في النص ، إذ تهتم بأمرين هما : الوحدة الموسيقية المتمثلة في التفعيلة التي يقوم عليها البحر ، وحركة الأصوات الداخلية وتآلفها دون الاعتماد على

التفعيلة التي تتثمل في الإيقاع [1]. فضلا عن القافية التي تزيد من هذا الايقاع بانسجامها مع موسيقى النص .

وهنا يجب التوضيح في الفرق بين الوزن العروضي والإيقاع الشعري ، إذ كثيرا ما يتداخل هذان المصطلحان، فتدخل تسمية الإيقاع الشعري ضمن الوزن العروضي ، كما ضبطه الخليل بن احمد الفراهيدي (ت١٧٠هـ) " فقد استطاع أن يضبط هذا الإيقاع في تفاعيل وأوزان سماها البحور "[2] . إذ أن" أهل العروض مجمعون على أنه لا فرق بين صناعة العروض وصناعة الإيقاع ، إلا أن صناعة الإيقاع تقسم الزمان بالنغم، وصناعة العروض تقسم الزمان بالحروف المسموعة"[3].

أما الشاعر الحديث ، فقد ميّز بين الوزن والإيقاع " فالوزن ينحصر في كمٍّ محدودٍ متساوٍ من التفعيلات ، أما الإيقاع فمتسع لأنه إشعاع من الظلال النفسية التي أضافها الشاعر على لغته فيأتي مشّربا بلون الانفعال وبجرس الأصوات وعلاقات الجمل وكمِّ التفعيلات ومخارج الحروف والأساليب اللغوية والبلاغية المتعددة في القصيدة "[4].

ولما كانت قصيدة غريب على الخليج تتأسس على بنية شعر التفعيلة(الشعر الحر) لذا سنوضح العلاقات الموسيقية في بنى التفعيلة ،

---

[1] ينظر: مدخل إلى تحليل النص الأدبي ، عبد القادر ابو شريفه ، حسين قزق/ ٧٦.

[2] الإيقاع في الشعر العربي ، عبد الرحمن الوجي/ ٤٤.

[3] المزهر في علوم اللغة وانواعها ، للسيوطي/٢ : ٤٧٠ .

[4] القصيدة العربية المعاصرة ، كاميليا عبد الفتاح /٦٢٤ .

وما يطرأ عليها من تغيرات عروضية ساهمت في ابراز الخصائص الأسلوبية .

الوزن :

الوزن الشعري عبارة عن مجموعة من التفعيلات التي يتألف منها البيت بكيفية معينة وترتيب معين[٥] . يساعد الوزن على استنفاد الطاقة الشعورية لدى المبدع ، وافراغ الشحنات الزائدة من خلاله في الشعر[٦] . فهو يفرض نظاما في القصيدة ، يرجع ذلك إلى ناحية نفسية وشعورية . نلمس ذلك جليا في قصيدة غريب على الخليج، اختار لها السياب بحر الكامل الذي يعتمد ايقاعه على تكرار تفعيلة ((مُتَفاعِلُن)) ست مرات في كلّ شطر ثلاث تفعيلات ، لكن الشعر الحر له اسلوب وحرية في النظام العروضي من حيث الشكل الموسيقي للإيقاع ، وعلى الحرية في عدد التفعيلات الموزعة على كلّ سطر ، فنجد السياب استخدم اربع تفعيلات في السطر الواحد ليستوعب عاطفته الجياشة ، أو قد يلجأ إلى كسر الاربعة واختزالها بتفعيلتين على وفق الحالة الشعورية والتدفق الشعري لدى الشاعر عند فعل النظم . ونجد ملاحظة عند شاعر قصيدة التفعيلة في اختيار الوزن ، نجده في الأغلب ينظم على البحور الصافية ، التي تفعيلاتها متشابه مثل بحر الكامل أو الرجز والوافر والمتدارك وغيرها من البحور الاحادية التفعيلة . الشاعر

---

[٥] ينظر : أصول النغم الشعر العربي ، صبري عبد المنعم السيد/ ٣٩.

[٦] ينظر : النقد الأدبي أصوله ومناهجه ، سيد قطب/ ٦٣.

لا يفكر في بحر القصيدة أو القافية ، وإنما البيت الأول هو الذي يحكم الشاعر ويقوده على وفق قريحة وذائقته الادبية .

وسنبين امثلة على ذلك في نص غريب على الخليج ، فمثلا في مطلع القصيدة نجد تطابق عروضي في السطرين الأول والثاني ، يقول[٧] :

١. الريح تلهث بالهجيرة كالجثام ، على الأصيل

/٠/٠//٠ ///٠//٠ ///٠//٠ ///٠//٠

مستفعلن متفاعلن متفاعلن متفاعلن

٢. و على القلوع تظل تُطوى أو تُنشَّرُ للرحيل

/٠/٠//٠ ///٠//٠ ///٠//٠ ///٠//٠

مستفعلن متفاعلن متفاعلن متفاعلن

في السطر الثالث يتطابق مع السطرين الأولين، ويخرج في تفعيلة العروض الى مستفعلن ،

٣. زحم الخليجَ بهنّ مكتدحون جوّابو بحارِ.

///٠//٠ ///٠//٠ ///٠//٠ /٠/٠//٠

متفاعلن متفاعلن متفاعلن مستفعلن

أيّ هناك انزياح بتفعيلة متفاعلن الى مستفعلن مرة في الضرب ومرة اخرى في العروض ؛ وبعدها يقصر السطر الشعري في سطرين متتالين

---

[٧] ديوان بدر شاكر السياب مجلد /٢ : ٤ .

ليعود بعدهما إلى سطر طويل بأربعة تفعيلات، وكان هذا دأبه في القصيدة كلّها ، يقول[٨] :

من كلّ حافٍ نصف عاري

/٠/٠//٠   /٠/٠//٠   /٠

مستفعلن   مستفعلن   فل

ؤ على الرمال ، على الخليج

/٠/٠//٠   /٠/٠//٠   /٠

مستفعلن   مستفعلن   فل

جلس الغريبُ، يسرّح البصرَ المحيَّر في الخليج

///٠//٠   ///٠//٠   ///٠//٠   ///٠//٠

متفاعلن   متفاعلن   متفاعلن   متفاعلن

عدد التفعيلات خاضع لحجم العاطفة المتدفقة لدى الشاعر، فكلما كانت الموجه العاطفية كبيرة جاءت التفعيلات على السطر بأكبر عدد ، إلى أن تنتهي بموجه عاطفية صغيرة ، فيختار الشاعر لها تفعيلة مناسبة .

يلجأ السياب في بعض الاسطر من القصيدة إلى السكون العارض في نهاية الكلمة الأخيرة من السطر ، ليضبط بها التفعيلة الأخيرة في الأسطر ،

---

(٨) ديوان بدر شاكر السياب / مجلد٢ : ٤

ويؤكد الدفقة الموسيقية والإيقاع المتناسق من تعدد وتنوع تفعيلة الكامل ، يقول :[٩]

متخافق الأطمار ، أبسُطُ بالسؤال يدا نديّهْ

صفراءَ من ذُلّ و حُمّى : ذلّ شحّاذٍ غريب

بين العيون الأجنبيهْ

بين احتقارٍ ، وانتهارٍ، وازورارٍ .. أو خطيّهْ

والموت أهون من خطيّهْ

من ذلك الإشفاق تعصره العيونُ الأجنبيهْ

قطرات ماء .. معدنيّهْ

فلتنطفي ، يا أنتِ ، يا قطراتُ ، يا دمُ ، يا .. نقودُ

وحدة الايقاع الوزني هو الميزة الأسلوبية التي تمتاز قصيدة غريب على الخليج ، إذ الموسيقى قائمة بذاتها بالشكل الصحيح مع وجود انزياح عروضي في تفعيلة ((متفاعلن)) ، واختزال التفعيلات الأربعة المستخدمة في النص إلى تفعيلتين و سبب خفيف ، وهو اعتبار الصورة الموسيقية للقصيدة الحرّة ، إذ أن التشكيل الموسيقي في الشعر الحر في " مجمله خاضعا خضوعا مباشرا للحالة النفسية أو الشعورية التي يصدر عنها الشاعر ، فالقصيدة في هذا الاعتبار صورة موسيقية متكاملة ، تتلاقى فيها

---

[٩] ديوان بدر شاكر السياب / مجلد٢ : ٧ .

الانغام المختلفة وتفترق ، محدثة نوعا من الإيقاع الذي يساعد على تنسيق المشاعر المشتتة" [١٠].

القافيــة :

إن الدخول الى عتبة الموسيقى الخارجية في النص الشعري العامودي في الدراسة الأسلوبية ، أيسر من النص الشعري الحر ، فمثل ما نجد تنوعا في التفعيلات نجد تنوعا في نهاية السطر الشعري – القافية – ، فتأتي مسترسلة استرسلا ؛ وهو تطور جديد لها ، لتكون أكثر مواتية للبناء المركب في القصيدة الحرة .

ولا يختلف اثنان على أهمية القافية ، أو فائدتها في القصيدة العامودية أو الحرة ، وإذا كانت تحقق في القصيدة العامودية العزل بين الأبيات ، فإنها تشكل في القصيدة الحرة عاملا من عوامل التواصل النفسي ، فضلا عن إنها وسيلة تنمو بنمو الدلالة الشعرية ، وليست هدفها في ذاتها وذلك لما لها من صلة بالإيقاع والدلالة والصوت[١١].

تتنوع اسلوبيا القافية في قصيدة غريب على الخليج ، ولعب الشاعر بفنية مقننة في اختيار حروف الروي ، ساهمت في تمظهر الحركة الشعورية في النص ، وسندرج انواعها وسماتها الأسلوبية .

---

[١٠] الشعر العربي المعاصر، عز الدين اسماعيل / ٦٣ .

[١١] ينظر : تحليل النص الشعري بنية القصيدة ، يوري لوتمان ، ترجمة الدكتور محمد فتوح احمد / ٩٣.

١. القافية الموحدة :

يتمثل هذا الشكل في " تكرار النسق الصوتي في آخر السطر بحركاته وسكناته ، مع الاحتفاظ بحرف الروي في معظم الأسطر، وهي أكثر التصاقا بالمفهوم التقليدي للقافية حيث تمثل القافية نهاية السطر الشعري"[١٢].

يقول السياب[١٣] :

الريح تلهث بالهجيرة كالجثام ، على الأصيل

وعلى القلوع تظل تُطوى أو تُنشَّرُ للرحيل

....

وعلى الرمال ، على الخليج

جلس الغريبُ ، يسرِّح البصرَ المحيَّر في الخليج

ويهدُّ أعمدة الضياء بما يصعِّد من نشيجِ

أعلى من العبَّاب يهدر رغْوُهُ ومن الضجيج

التزم الشاعر بالقافية الموحدة التي ساعدته على بيان سردية النص وحكاية الغريب الذي راح يسرح بصره على شواطئ الخليج .

---

[١٢] الخطاب الشعري عند محمود درويش(دراسة اسلوبية) محمد صلاح زكي أبو حميدة / ٣٥٢ .

[١٣] الديوان مجلد / ٢ :٤ .

٢. قافية الإيطاء :

الإيطاء تكرار لفظ القافية ومعناها واحد[١٤] ، والمعروف عن الإيطاء عيب من عيوب القافية ، إذ تتغير حركة الروي ، أما في الشعر الحر فالشاعر يستخدمه ويمنحه دلالات عدة من خلاله ، يقول السياب[١٥] .

صوتٌ تفجَّر في قرارة نفسيَ الثكلى : عراق

كالمدّ يصعد ، كالسحابة ، كالدموع إلى العيون

الريح تصرخ بي : عراق

والموج يُعوِل بي : عراق ، عراق ، ليس سوى عراق !

البحر أوسع ما يكون وأنت أبعد ما تكون

والبحر دونك يا عراق .

القافية هنا مردوفة أيّ سبق حرف الروي (القاف) حرف المد الألف ، وظهور حرف المدّ في القوافي يؤدي إلى وضوح إيقاع القافية ، والاستطالة في الوقوف عليها ، إذ في هذا الوقوف يأخذ الشاعر فسحة من التأمل في كلّ لوحة يقدمها متناغمة مع الجو النفسي الذي يعيشه الشاعر، جوٌّ مليء بشعور الغربة منذ لحظة تكوين النص .

---

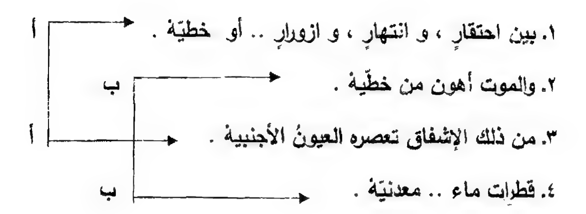
[١٤] ينظر : العمدة لابن رشيق القيرواني /١: ١٥٢ .

[١٥] الديوان مجلد /١ :٤ .

٣. القافية المتقاطعة :

وفيها" يعمد الشاعر النظام ـ أ ب ، أ ب ـ فيتحد السطر الأول مع الثالث والثاني مع الرابع بطريقة متبادلة

متقاطعة"[١٦]. وهذا المقطع من القصيدة يوضح التقاطع في القوافي ، يقول[١٧] .



يضع الشاعر نفسه ضمن قافية مقيدة ، ليحقق منها تعادلا نغميا مناسبا لحالته الشعورية وانكساراته النفسية ، محاولا في ايقاعه الداخلي كسر تلك الرتابة عن طريق التكرار تارة والتقسيم العروضي تارة اخرى ، ليضيف إلى موسيقى مقطعه مسحة جمالية.

---

[١٦] العروض وايقاع الشعر العربي ، عبد الرحمن تبرماسين / ٨٧ ، وينظر : عناصر الموسيقى في ديوان (نقوش على جذع النخلة) يحيى السماوي/ ١٦٩ .

[١٧] الديوان مجلد / ٢: ٧ .

٤. قافية ثنائية :

وفيها يأتي الشاعر بسطرين موحدي القافية ، مثل قوله :[١٨]

ليتَ السفائنَ لا تُقاضي راكبيها عن سِفارِ

أو ليت أنَّ الأرضَ كالأفق العريضِ ، بلا بحار !

١. قافية رائية ثنائية

مازلتُ أحسب يا نقودُ ، أعدُّكنَّ و أستزيد ،

مازلت أنقصُ ، يا نقودُ ، بكنَّ من مُدَدِ اغترابي

مازلت أو قد بالتماعتكنَّ نافذتي و بابي

٢. قافية بائية ثنائية

في الضفّة الأخرى هناك . فحدثيني يا نقودُ

متى أعود ، متى أعود ؟

٣. قافية دالية ثنائية

وقد تكون القافية الثنائية أحيانا واسطة بالانتقال من موقف إلى آخر[١٩]، مثل قوله[٢٠]

بالأمس حين مررتُ بالمقهى ، سمعتك يا عراقُ ...

وكنت دورة أسطوانه

هي دورة الأفلاك من عُمُري ، تكوِّر لي زمانه

في لحظتين من الزمان ، وإن تكن فقدت مكانه

---

[١٨] الديوان مجلد /٢: ٨ .

[١٩] ينظر: التشكيلات الإيقاعية في قصيدة التفعيلة ، الدكتور ثائر العذاري / ١٨٩.

[٢٠] الديوان مجلد /٢ :٤

هي وجه أمي في الظلام

وصوتُها ، يتزلّقان مع الرؤى حتى أنام ؛

وهي النخيل أخاف منه إذا ادلهمَّ مع الغروب

فاكتظَّ بالأشباح تخطفُ كلَّ طفلٍ لا يؤوبُ

هذا المقطع يأتي بعد المشهد الاستهلالي للقصيدة ، ويصف به دوال صور العراق في مخيلته ، فحين يمرّ بالمقهى تدور ذكرياته المفقودة مع دوران اسطوانة مسجل الصوت ، ويحاول تذكر صور الماضي كوجه امه الذي لايفارقه مدة حياته وحين تنوميه ، والمفلية العجوز وحكاياتها ؛ صور جديدة اختلف في هذا المقطع عن صور المقطع الاستهلالي باختلاف القافية الثنائية التي تمثلت في : (قافية حرف النون ، قافية حرف الميم ، قافية حرف الباء) . ويدخل بقافية ثنائية أخرى على مقطع جديد وصورة جديدة ، يقول[٢١].

تتَوزَنا الوهّاجَ تزحمه أكفُّ المصطلين ؟
وحديث عمتي الخفيضَ عن الملوك الغابرين ؟ — قافية نونية

ووراء باب كالقضاء
قد أوصدته على النساء — قافية همزية

أبدٍ تُطاع بما تشاء ، لأنها أيدي الرجال
كان الرجال يعربدون ويسمرون بلا كلال . — قافية لامية

---

[٢١] الديوان / مجلد ٢ : ٥

٤ـ وهنـاك نـوع آخـر مـن القافيـة أخـذت مسـاحة واسـعة مـن القصـيدة نستطيع أن نصطلح عليه قافية المقطع ، إذ تتكرر هذه القافية في نهاية المقطع بشكل متوازٍ متساوٍ صوتيا ، من ذلك قوله[٢٢].

لو جئتِ في البلد الغريب إليّ ما كمل اللقاء !

الملتقى بك و العراقُ على يديَّ ... هو اللقاء

شوق يخضُّ دمي إليه ، كأن كلَّ دمي اشتهاء

جوعٌ إليه .. كجوع كلّ دم الغريق إلى الهواء

وقوله[٢٣] :

فلتنطفي ، يا أنتِ ، يا قطراتُ ، يا دمُ ، يا .. نقودُ

يا ريحُ ، يا إبرا تخيط ليَ الشراعَ ، متى أعودُ

إلى العراق ؟ متى أعودُ ؟

يا لمعةَ الأمواجِ رَنحهنَّ مجدافٌ يرودُ

بيَ الخليجَ ، ويا كواكبَه الكبيرة .. يا نقودُ !

من هذا العرض لأشكال القوافي التي وردت في القصيدة ، نجدها أتت عفو الخاطر دون تكليف أو تصنع ، ونجدها متواشجة متنوعة فيما بينها

---

[٢٢] الديوان مجلد /٢: ٧

[٢٣] م.ن مجلد /٢ : ٥

ساعدت على تنظيم العناصر الصوتية الأخرى في القصيدة ، وينسحب هذا التنظيم على العوامل النفسية للمتلقي ، فيجدها منتظمة كالعقد سَلِسَلةً بأنغام أصواتها .

المحور الثاني : موسيقى الحشو (الداخلية)

إن كان ثمة تكسير للإيقاع الخارجي في القصيدة العربية الحرة ، فثمة استثمارٍ للطاقات الإيقاعية الداخلية للنص الشعري الحر ، فانصب الاهتمام على " إيقاع الجملة وعلائق الاصوات والمعاني والصور ، وطاقة الكلام الايحائية ، والذيول التي تجري الايحاءات وراءها من الاصداء المتلونة" [٢٤] ، فتظهر أهمية الإيقاع الداخلي للنص الحرّ كونه عنصرا مهما من عناصر تولد الدلالة ، وحركاتها في النص فتؤثر فيه وتتأثر به ، وهو بعبارةٍ أخرى حركة نمو وتولد الدلالة .

نسق تكرار البنية الصوتية في القصيدة :

الصوت في اللغة" الجرس"[٢٥] ، وفي الاصلاح "ظاهرة طبيعية ندرك أثرها دون أن ندرك كنهها"[٢٦] ، ويعرف بالفونيم وهو" أصغر وحدة صوتية غير قابلة للقسمة إلى وحدات اصغر"[٢٧] ، ويدخل الصوت مكونا اساسيا في إيقاع الشعر ، إذ يعتمد على سلسلة من الأصوات المنتظمة في زمن

---

[٢٤] مقدمة للشعر العربي ، اودنيس (علي احمد سعيد) / ١١٦ .

[٢٥] لسان العرب : مادة صوت .

[٢٦] الأصوات اللغوية ، ابراهيم أنيس /٦ .

[٢٧] الأصوات اللغوية ، الدكتور محمد علي الخولي /٢٣.

منتظم . وحظي الصوت بعناية القدماء من البلاغيين واللغويين ؛ وفي مجال الدراسات الأسلوبية يتضح الصوت من خلال تردد اصوات معينة دون غيرها ، فيمثل انزياحا اسلوبيا من أجل بيان القيم الدلالية في النص الشعري .

في نص السياب سيكون عملنا الأسلوبي على الأصوات التي يحاكيها السياب في نصه ، متواشج هذا الصوت مع الادوات الشعرية الاخرى ليسهم في احياء الدلالة . يقول السياب(٢٨) :

في لحظتين من الزمان ، وإن تكن فقدت مكانه

هي وجه أمي في الظلام

وصوتُها، يتزلّقان مع الرؤى حتى أنام ؛

وهي النخيل أخاف منه إذا ادلهمَّ مع الغروب

يتحرك صوت النون ليشكل حزمة الحزن والأنين ، اللذان يضربان الشاعر منذ لحظة ولادة النص ، فهو يعيش ذلك الحزن نتيجة الوحدة والانعزال ، إذ تتجمع عليه تلك المشاعر في ليله فتتمركز مشاعر الخوف في قوله(وهي النخيل تخاف منه إذا ادلهم مع الغروب) وذكرى تلك الحكايات المخيفة لازالت عالقة في مخيلته يستردها بطريقة السرد الرجعي لأحداث الطفولة .

---

(٢٨) الديوان مجلد /٢ : ٥ .

اختار السياب وبطريقة مقننة اصواتا مثلت بنى القصيدة ، اوحت هذه الاصوات بدلالات المشاعر والعواطف المتنوعة في النص ، والغالب على تلك المشاعر نزعة تشاؤمية ، فنلمس في مواضع عدة دلالات لتلك الاصوات في كشف معاناته لاسيما الغربة التي عانى منها السياب كثيرا ، يقول[٢٩] :

أتراه يأزف ، قبل موتي ، ذلك اليوم السعيد ؟

سأفيق في ذاك الصباح ، وفي السماء من السحاب

كسَرٌ ، وفي النسمات بَـرْدٌ مُشَبع بعطور آب

وأزيح بالثُـؤباء بُــقيا من نعاسي كالحجابِ

يتكرر صوت السين ، وهو حرف رخوي مهموس منفتح يخرج من فوق اللثة ، يتكرر ست مرات اكسب هذا الصوت المقطع لينا وسيولة في اتضاح الدلالة ، وهي أحلام رجعته الى وطنه ، إذ باتت تلك الاحلام تقابلات زمنية بأمكنتها الواقعية والافتراضية ، "لتكمل دورتها الحياتية"[٣٠]، فقد يأزف يومه السعيد قبل رحيله .

ويقول : [٣١]

فلتنطفي ، ياأنتِ ، ياقطراتُ ، يادمُ ، يا .. نقودُ

ياريحُ ، ياإبرا تخيط ليَ الشراعَ ، متى أعودُ

---

(٢٩) الديوان مجلد /٢ : ٨ .

(٣٠) اسفار السياب الكونية . الدكتور ناصر شاكر الاسدي / ١٨ .

(٣١) الديوان مجلد /٢ : ٧ .

إلى العراق ؟ متى أعودُ ؟

يالمعةَ الأمواجِ رَنحهنَّ مجداف يرودْ

بيَ الخليجَ ، ويا كواكبَه الكبيرة .. يانقودُ !

يتأسس هذا المقطع في إيقاعه التكراري الصوتي على تكرار حرف المد(الواو) ، مقترن مع صوت (الدال) المضموم ، فشكلا المقطع (ودُ) خمس مرات في نهاية كلّ سطر، وهذا التكرار في حرف المد يعمل عل تشكيل شبكة صوتية متجانسة مع الواقع القافوي ، الذي جنح الى تجسيد حالة الاستغاثة ، إذ اعتاد المد في الكلام على دلالة التألم والانكسار ؛ تواشج المد مع النداء بحرف النداء(يا) قصد الاستغاثة بالمنادى ، وهكذا يسيطر المد على تعميق الهوة للنص .

وغاية الأمر نقول أن تكرار بنية الصوت الدالة مملوءة في نص غريب على الخليج ، فلا نستطيع لها حصرا ، كما شخص هذه الظاهرة اسلوبيا الدكتور محمد عبد المطلب ، يقول" ذلك أنّ المتتبع لشعراء الحداثة وشعرهم يدرك إدراكا أوليا أن بنية التكرار هي اكبر البنى التي يتعامل معها هؤلاء الشعراء ووظفوها بكثافة لإنتاج الدلالة"[٣٢] .

---

[٣٢] بناء الأسلوب في شعر الحداثة / ٣٨١ .

تكرار بنية الكلمة :

ونقصد تكرار اللفظ بعينه واختلاف صيغه سواء أكان التكرار على مستوى المقطع أم على مستوى الانتاج الكلي للشاعر في القصيدة . يقول[٣٣] :

إني لأعجب كيف يمكن أن يخون الخائنون !

أيخون إنسان بلاده ؟

إن خان معنى أن يكون ، فكيف يمكن أن يكون ؟

الموجة التكرارية في هذا المقطع تتركز في تكرار الفعل (خان) مع فعل الكينونة ، مقترن بأداة السؤال (كيف) ، ويمكن أن نطلق على هذا النوع من التكرار بـ (تكرار التسلسل) لأنه يصف فعل معين ، واستمرار حدوثه لمدة معينة يحددها التكرار؛ دلالته إيصال ثيمة معينة ليس لها وجود في اللفظة المكررة [٣٤].

ويقول[٣٥] :

ليتَ السفائنَ لاتُقاضي راكبيها عن سِفارِ

أوليت أنَّ الأرضَ كالأفق العريضِ ، بلا بحار!

---

[٣٣] الديوان مجلد /٢: ٦ .

[٣٤] ينظر : التشكيلات الإيقاعية في قصيدة التفعيلة من الريادة إلى النضج ، الدكتور ثائر عذاري /٢٦٨.

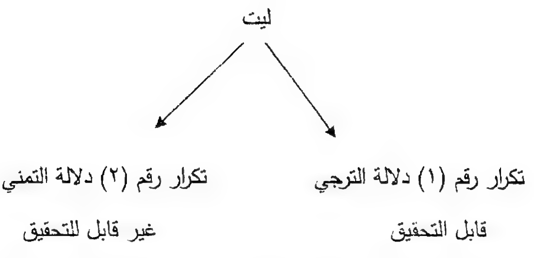
[٣٥] الديوان مجلد / ٢: ٨.

مازلتُ أحسب يانقودُ ، أعدُكنَّ وأستزيد ،

مازلت أنقصُ ، يا نقودُ ، بكنَّ من مُدَدِ اغترابي

مازلت أوقد بالتماعتكنَّ نافذتي وبابي

تكرار استهلالي مقطعي متوالي ، مرتان للفظ (ليت) وثلاث مرات المركب(مازلتُ) ليرسم في ليت دلالتين ، الأولى الترجي وقد يتحقق بعدم مقاضاة السفائن لراكبيها عند الأسفار، والثاني تمني لايتحقق ، فالأرض لايمكن أن تكون كالأفق العريض أو تكون كالبحار، والمخطط الآتي يوضح الدلالة .



ونجد في الدال المكرر الثاني(ما زلتُ) دلالة الاستمرارية في الحدث ، إذ أكد الشاعر في تكراره للدال ثنائية الفقر المادي والغربة ، ويصور العوز الذي أصابه فيسلم لليأس .

وهناك من الألفاظ التي اخذت مساحة واسعة من التكرار على مستوى النص ، كلفظة (العراق) ، إذ شكل تكرار هذا الدال (١٤) مرة وغاية ذكر

العدد ليس الاحصاء الأسلوبي في ذاته ، وإنما للوصول إلى الدلالة فالعراق هو وطن الشاعر، القريب البعيد عنه فلم يزده الا غربة وعذابا، يقول[٣٦] :

صوتٌ تفجَّر في قرارة نفسيَ الثكلى : عراق

كالمدّ يصعد ، كالسحابة ، كالدموع إلى العيون

الريح تصرخ بي : عراق

والموج يُعوِل بي : عراق ، عراق ، ليس سوى عراق !

البحر أوسع مايكون وأنت أبعد ما تكون

والبحر دونك ياعراق .

يستأنس بتكرار دال العراق تبديدا للوحشة وتحفيزا عاطفيا فنيا للتعبير عن " الفجيعة بالحاضر المتمثلة في أنّ : البحر اوسع ما يكون وأنت أبعد ماتكون ، والبحر دونك ياعراق "[٣٧].

ويكرر لفظ (النقود) سبع مرات يتساوى تكراره مع تكرار لفظ (اعود) ، فتكشف دلالة مخاطبته للنقود عن عوزه المادي ، وعدم استطاعته العودة لأنه لا يملك النقود ، يقول[٣٨] :

---

[٣٦] م . ن /٢ :

[٣٧] فسحة النص المُمْكِن النقدي في النص الشعري الحديث ، الدكتور عبد العظيم رهيف السلطاني /٧٢ .

[٣٨] الديوان مجلد /٢: ٨.

اليوم _ و اندفقَ السرورُ عليَّ يفجأني- أعودُ

واحسرتاه .. فلن أعودَ إلى العراق

وهل يعودُ

من كان تُـعْوزُهُ النقود ؟ وكيفَ تُدَّخَرُ النقودُ

وهكذا تتبدى جدلية العودة وتتضح بنفيه المطلق لها، فـ (لن) تفيد النفي المطلق ليتأسس عليها خيبة أمل ويأس ، يصاب بهما الشاعر ليبقى العراق حلما لذلك الغريب الذي طواه الموت غريبا.

نسق الجناس :

يُعرف الجناس في الدرس البلاغي القديم" بأنه استخدام المنشئ في الكلام القصير نحو البيت من الشعر والجزء من الرسالة أو الخطبة ، كلمتين تجانس كلّ واحدة منهما صاحبتها في تأليف حروفها[٣٩]. ولما في الجناس من طاقة تطوعية للمعنى في الألفاظ المتشابه نجد الشاعر المحدث يستخدمه بكثافة متميزة ليمكن النص بدلالات متنوعة تتماهى مع الإيقاع العام للقصيدة ، فنجد في قصيدة غريب على الخليج دلالات متنوعة لنسق الجناس ، فمثلا يستخدمه السياب لتقديم مفارقة شعرية ، من ذلك قوله[٤٠] :

---

[٣٩] كتاب الصناعتين ، ابو هلال العسكري / ٣٣٠.

[٤٠] الديوان مجلد /٢ : ٤

بالأمس حين مررتُ بالمقهى ، سمعتك يا عراقُ ...

وكنت دورة أسطوانه

هي دورة الأفلاك من عُمُري ، تكوَّر لي زمانه

الجناس بين **دورة اسطوانة** ⟨⟩ **دورة الأفلاك** ، والتشابه قائم بين حروف لفظي (دورة) ، مع اختلاف في المعنى بفضل أضافتهما الى بنية أخرى حددت شكل الجناس ودلالاته.

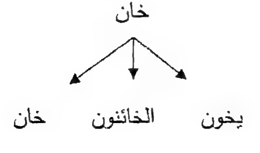
ويسهم الجناس في زيادة التماسك والالتحام بين بنى النص، كأن يكون بين فعل وفاعل ومصدر، نجده في الجناس الاشتقاقي من ذلك قوله[41] :

إني لأعجب كيف يمكن أن يخون الخائنون !

أيخون إنسان بلاده ؟

إن خان معنى أن يكون ، فكيف يمكن أن يكون ؟

البنى المتجانسة واضحة في هذه الأسطر، ترجع إلى جذر الفعل (خان) اشتقت منه بنى أخرى ؛ كما في المرتسم الآتي :



---

[41] م.ن مجلد/٢ : ٦.

وفي الأسطر ايضا جناس ناقص وهو : ما يتساوى جزء من حروف الكلمة مع اختلاف المعنى ، وهذه الالفاظ هي (يكون ، كيف ، يمكن) ووردت من الجناس الناقص شواهد كثيرة في القصيدة .

كقوله[٤٢] :

الملتقى بك والعراقُ على يديَّ ... هو اللقاء

البنى المتجانسة جناس ناقص هي : الملتقى ⟷ اللقاء .

ونلمس نوعا آخر من الجناس في القصيدة هو جناس المضارعة، وهي تقارب في الحرفين الأخرين ، واختلاف الدلالة، ويأخذ احيانا وزنا صرفيا متشابها، وأمثلته [٤٣]

بين احتقارٍ ، وانتهارٍ ، وازورارٍ .. أو خطيّهْ

جناس المضارعة

احتقار انتهار ازورار

---

[٤٢] الديوان مجلد /٢: ٦.

[٤٣] الديوان مجلد /٢ :٧، ٧، ٨ .

في الضفّة الأُخرى هناك . فحدثيني يانقودُ

متى أعودِ ، متى اعود ؟

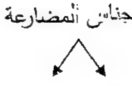
جناس المضارعة



نقود اعود

مازلتُ اضرب مُتربَ القدمين أشعثَ ، في الدروب

جناس المضارعة



اضرب مُترب

المستوى الثاني : مستوى تشكيل الصورة (المستوى الدلالي)

اللغة الشعرية لغة متمردة على المألوف من المعاني ، يتحرى الشاعر في اختيار صيغها التي تثير الانفعالات والعواطف أكبر من أقرانها . فاللفظة الشعرية تعد وسيلة للتعبير عن الافكار ، وأداة مهمة تستكنه دواخل الشاعر عن طريق التصوير ، وذلك بخرق التفكير المنطقي الذي يسقط على الأشياء ، وترطيبه بنفحات الخيال الذي يبث الحركة والحيوية داخل العناصر اللغوية التي تخلق مدارات سياقية جديدة .

إنّ معطيات الصورة الشعرية وطريقة تصويرها ، إجراءات ذهنية في تفكير الشاعر ، واجلاء هذه الصورة ووضوحها يتمّ وفق آليات التصوير ،

وقد أقرّتها الذائقة البلاغية العربية في إجراءات متعددة ، كالتشبيه والاستعارة والكناية وغيرها .

وفي قصيدة غريب على الخليج سنبحث المعطيات الاسلوبية للصورة وفق جزء من هذه المعطيات .

المحور الأول : نسق التشبيه

حيز التشبيه في القصيدة حيزا كبيرا ، تتعالق الاستعارة معه في أغلب صوره ، وحيثياته تتمركز على النسبة المنطقية بين طرفي التشبيه (المشبه والمشبه به) من حيث المشابهة بينهما ، مع اختفاء أو ظهور المرتكزات الاخرى في جملة التشبيه ، الأداة ووجه الشبه . يصادفنا التشبيه في مطلع القصيدة[٤٤].

الريح تلهث بالهجيرة كالجثام ، على الأصيل

وعلى القلوع تظل تُطوى أو تُنشَّرُ للرحيل

تتعالق في هذه الصورة الاستعارة التشخيصية مع التشبيه ، إذ يشبه الريح بالكائن الحي الذي يلهث من شدة الحر والعطش وقت الظهيرة ـ الهجيرة وقت الظهيرة – وكأنها كابوس يجثم على الأصيل، وفي لفظ الأصيل استعارة اخرى ، والاصيل الوقت بين العصر ومغيب الشمس، إذ صوره بالإنسان يجثم كابوسٌ على صدره، ووجه الشبه في صورة التشبيه محذوف

---

[٤٤] الديوان مجلد /٢ : ٤ .

يحيل إلى حالة الاختناق[٤٥] . اجراءات بلاغية عدة اسهمت في رسم صور هذا المطلع الاستهلالي " وليس يخفى أن موضوعة الاستهلال وبراعته شغلت الذائقة النقدية والبلاغية القديمة، إذ اقترنت في الشعر بالغرض الذي يبنى عليه النص"[٤٦].

ثم تتجه صورة التشبيه في المطلع الى ذروتها ، وينفجر في نهايته بتشبيه مركب أو كما يسمى بتشبيه الصورة ، ويتعالق ايضا مع الاستعارة ، يقول[٤٧] .

صوتٌ تفجَّر في قرارة نفسيَ الثكلى : عراق

كالمدّ يصعد ، كالسحابة ، كالدموع إلى العيون

من تحليل التشبيه وبيان اركانه، نوضح الآتي:

١. المشبه : صورة العراق ⇐ المتفجر في قرارة نفسه الثكلى (نفسه الثكلى استعارة مكنية ، نفسه كالأم الثكلى التي تصيح لفقد ولدها.

٢. المشبه به : متعدد ⇐ كالمد ⇐ كالسحابة

⇐ كالدموع في العيون .

٣. وجه الشبه : مجازي تقديره التعب والألم والحزن واليأس من العودة .

٤. الرابط : الأداة الكاف .

---

[٤٥] ينظر: فاعلية التصوير في غريب على الخليج، الدكتور اياد الحمداني /١٢.

[٤٦] م . ن / ١٢ .

[٤٧] الديوان مجلد /٢: ٤.

إن هذا التوالي للتشبيهات وبأداة متماثلة تعتصر دلاليا وموسيقيا كي يتحدد الموقف والتجربة بشكل سردي مباشر[٤٨].

يتكثف التشبيه في مقطع آخر يقتصر فيه على ذكر ركنيه الاساسين ؛ وهذا الاختزال في اركان التشبيه مرده في هذا المقطع الموقف الذي يصوره السياب وهو قصة حبه بالمرأة المجهولة التي لم يذكر اسمها ، متواشج هذا الحب مع حبّ اعمق هو حبّه للعراق، يقول[٤٩] :

أحببتُ فيكِ عراقَ روحي أو حببتُكِ أنت فيه

ياأنتما – مصباح روحي أنتما – وأتى المساء

والنيل أطبق ، فلتشعا في دجاه فلا أتيه

التشبيه في هذه الصورة هو من التشبيه البليغ الذي حُذف منه الاداة ووجه الشبه ، والمشبه فيه هو الضمير(أنتما) إذ عدل الشاعر به عن ذكر الاسمين الصريحين – عراق روحي والحبيبة – والحبيبة هنا امرأة مجهولة لم يذكرها السياب في قصيدة ، فقد تكون حبيبته أو زوجته . والمشبه به هو (مصباح روحي) الذي ينير دروبه ويبعث في نفسه الأمل بالرجوع والعودة للوطن والحبيبة ؛ وعلاقة المرأة والوطن عند الشاعر علاقة قوية لاانفصام بها ، فالحب بلا وطن لا يمنح الوصال ، والوطن الذي يخلو من الحب مكان ظالم لأهله ، فالمرأة والوطن كلاهما مصباحان ينيران طريق الشاعر المظلم . ويحاول الشاعر في التشبيه الخروج من حالة الاختناق الذي حلّ

---

[٤٨] ينظر اساليب شعرية ، الدكتور صلاح فضل/ ٦٦

[٤٩] الديوان مجلد /٢: ٦ .

مظهره على نفسه ، فباتت صورة التشبيه مكتنبة من أثر الغربة التي يعيشها فيتمنى أن تكون الأرض كالأفق في سعتها . يقول :

ليتَ السفائنَ لاتُقاضي راكبيها عن سِفارِ

أوليت أنَّ الأرضَ كالأفق العريضِ ، بلا بحار!

ويبدو من النموذج السردي الغالب على القصيدة من تصويري سينمائي لرحلة الغريب ابتداء من جلوسه واستحضار دوال صور ذكريات الماضي الجميل ، ونسجها في اتساق وعفوية بقدر واضح ، انعكس هذا النمط السردي بشكل واضح على صور التشبيه إذ جاءت اغلب التشبيهات من نوع التشبيه المجمل وهو" التشبيه الذي لم يذكر فيه وجه الشبه "(٥٠) ، مثلت سمة اسلوبية متطابقة مع دلالات صور القصيدة . اضف إلى أن أداة رابط التشبيه في التشبيهات جميعها هي حرف الكاف باستثناء تشبيه واحد رابطه الاداة (كأن) .

شوق يخضُّ دمي إليه ، كأن كلَّ دمي اشتهاء(٥١)

المحور الثاني : نسق الاستعارة

الاستعارة نقل العبارة عن موضع استعمالها اللغوي إلى غيره ، لشرح المعنى أو تأكيده والمبالغة فيه ، أو الاشارة إليه بالقليل من اللفظ(٥٢). وتبرز فاعلية الاستعارة بوصفها ظاهرة اسلوبية لها حضورها المؤثر في

---

(٥٠) معجم المصطلحات البلاغية الدكتور احمد مطلوب / ٣٤٠.

(٥١) الديوان مجلد /٢: ٦.

(٥٢) ينظر : كتاب الصناعتين / ٢٧٤.

عملية الخلق الأدبي ، لاسيما إذا عرفنا أن ميدان الأسلوبية هو ميدان التعبير بالخلق ، او الخرق ، أو الخروج عن المألوف ؛ تركيبا ودلالة .

ولذا فهي تجعلنا نرى كيف صار القول قولا ، وكيف ادى بنظامه الذي تشكل فيه ، إما لم يقل من قبل أو إلى خلق جديد ، وهذا يعني أنها نظام تشكيل الجمل من غير توقع ، لا نظام القوانين التي تُنتج بها هذه الجمل وأنها رؤية ينكشف بها إبداع اللغة على غير مثالٍ[٥٣].

في قصيدة غريب على الخليج ستتركز معالجة الاستعارة على التشخيص لأنه السمة الأسلوبية المتميزة في استعارات القصيدة ؛ ويختص التشخيص بإضفاء أوصاف وخواص إنسانية على الأشياء أو المفاهيم التجريدية الجامدة [٥٤] ، إذ تتلاشى الحواجز بين الإنسان وغيره في عالم التشخيص ، فالأشياء الجامدة تتكلم ، وتحب ، وتكره ، وتأكل ، وتتنفس ، وغيرها من الصفات الإنسانية ، والتشخيص هذا المصطلح حديث لم يعرفه البلاغيون العرب القدماء لكنهم" وعوا التشخيص في الاستعارة المكنية ، فالتشخيص توسع في مفهوم الاستعارة"[٥٥]. والاستعارة المكنية هي التي" اختفى فيها لفظ المشبه به واكتفى بذكر شيء من لوازمه دليلا عليه"[٥٦].

---

[٥٣] ينظر : الأسلوبية وتحليل الخطاب ، الدكتور منذر عياشي / ١٠٤ .

[٥٤] ينظر : قضايا في النقد والشعر ، يوسف بكار / ٣٣.

[٥٥] م . ن / ٣٨.

[٥٦] معجم المصطلحات البلاغية / ٨٨

الاستعارة في النص: كما بيّنا في التشبيه أن المطلع الاستهلالي في القصيدة مكتظ بالصور المتعددة ، رسمت ملامح غربة الشاعر الاجتماعية والفكرية التي عانها ، اسهمت الاستعارة بتكثيف الحدث الشعري ورسم دلالاته ، يقول[٥٧] :

الريح تلهث بالهجيرة كالجثام ، على الأصيل

وعلى القلوع تظل تُطوى أو تُنشَّرُ للرحيل

زحم الخليجَ بهنّ مكتدحون جوّابو بحارِ

من كلّ حافٍ نصف عاري

وعلى الرمال ، على الخليج

جلس الغريبُ ، يسرِّح البصرَ المحيَّر في الخليج

ويهدُّ أعمدة الضياء بما يصعِّد من نشيج

أعلى من العبَّاب يهدر رغوُهُ و من الضجيج

صوتٌ تفجَّر في قرارة نفسيَ الثكلى : عراق

كالمدّ يصعد ، كالسحابة ، كالدموع إلى العيون

الريح تصرخ بي : عراق

في هذا المقطع تكوين تداخلي للاستعارة التشخيصية الذي ينعكس على المستوى العميق في انتاج الدلالة ؛ بداية السطر الأول استعارة

---

[٥٧] الديوان مجلد /٢: ٤.

تشخيصية ، شخص الريح بالكائن الحي الذي يصاب بالإعياء الشديد نتيجة العطش ، واللَّهث واللَّهاث حرّ العطش ، واللَّهثة التَّعب من العطش[٥٨].

واستعارة الجثام على الأصيل التي بيّنها في التشبيه ، ثم نجد العاطفة الصارخة في الاستعارة التصريحية عندما صور السياب آماله في قوله (يهدّ أعمدة الضياء بما يصّعد من نشيج) ؛ فهي – آماله كالأعمدة المنيرة – وكيف يقوم الغريب بهدمها وتحطيمها. وتطالعنا استعارتان في المطلع ايضا ، الأولى (نفسي الثكلى) يصور نفسه بالأم الثكلى التي تصيح بفقد ولدها ، والأخرى (الريح تصرخ بي عراق) ، فالطبيعة تشارك بنداء العراق ، إذ الريح إنسان يصرخ بصوتٍ عالٍ .

في استعارة تشخيصية اخرى يصور الشاعر فيها ملامح شوقه للعراق ، بإنسان يحرك دمه شوقا للعراق ، يقول[٥٩] :

شوق يخضُّ دمي إليه ، كأن كلَّ دمي اشتهاء

جوعٌ إليه .. كجوع كلّ دم الغريق إلى الهواء

شوق الجنين إذا اشرأبَّ من الظلام إلى الولادهْ !

بدرجة عالية من التفاعل تلتحم الاستعارة مع نسقي تشبيه ؛ الأول : جوع كجوع كلّ دمي، والآخر: شوق الجنين ، ثم صورة الاشتياق تلتحم مع حاجة الغريق إلى الهواء وشوق الجنين الذي يريد الخروج من رحم امه ليرى النور ، والنور يتطابق مع ظلام العراق ، وهو أجمل لأنه يحتضن

---

[٥٨] لسان العرب / مادة : لهثَ .

[٥٩] الديوان مجلد / ٢ : ٦.

العراق. والاحتضان فيه شيء كبير من الحنان والرأفة والحب ، وهي إشارات تكشف عن خصوصية الظلام ، إذ تحول الوطن إلى قيمة عليا فهو بمنزلة الأم[٦٠].

في اغلب استعارات القصيدة يستجمع الشاعر صوره وينسجها في أنساق استعارية مركبة ، فنلمس ملمحا اسلوبيا في هذه الاستعارات وهو تماثل استعارتين متداخلتين تعملان معا في صورة واحدة ، وهذا ما يدعو إلى تكثيف استراتيجية تناوب العناصر مع نسجها في صورها . كما في قوله[٦١].

يالمعةَ الأمواجِ رَنحهنَّ مجدافٌ يرودُ

استعارتان لصورة واحدة صور فيها الشاعر الامواج بالأشخاص يتمايلون مع حركة المجذاف، والمجذاف إنسان يطلب مكان لأهله وهي الاستعارة الثانية .

ويبدو مما تقدم من مجمل الاستعارات في نص السياب ، أنها تقوم بإنتاج دلالات متعددة في الاستعارة الواحدة ، من خلال احضار دال معين غائب فتتفاعل معه هذه الدلالات ، فالكلمة في حقيقتها بؤرة يلتقي فيها كَمٌّ من المعاني تنتمي إلى الحقل الدلالي نفسه فهي مستقر للإمكانات كثيرة من الدلالات .

---

[٦٠] ينظر : فاعلية التصوير في غريب على الخليج / ١٧

[٦١] الديوان مجلد / ٢: ٧ ، وينظر : ٨ ، ومطلع القصيدة .

المحور الثالث : أنساق التضاد .

يدور هذا النسق في حلقة ثنائية قائمة على مبدأ التخالف ، أي استخدام بنى ثنائية تتخطى البنية الأولى مدلول قراءتها إلى المدلول الثاني الذي يمثل البنية العميقة المتضادة ، فنجد ازدواجية في الرؤية من خلال التخالف الذي يتركه كل لفظٍ عن طريق علائق معنوية تربط فكرتي التخالف .

ونسق التضاد يمثل في الموروث البلاغي العربي بالطباق والمقابلة ، فنجده احيانا فرقا بين المصطلحين على اساس أن الطباق إنما يكون بين اللفاظ المفردة المتضادة ، بينما لا تكون المقابلة إلا في الألفاظ المركبة متضادة أو غير متضادة [٦٢]. ومنهم من سُمّي الجمع بين ضدين مختلفين بـ " المطابقة والطباق ، والتضاد ، والتكافؤ"[٦٣] ، ويجد الدكتور احمد مطلوب أن مصطلح التضاد اكثر دلالة على هذا الفن لأن التضاد يدل على الخلاف[٦٤] ؛ لذا فقد اعتمدناه عنوانا لهذا القسم .

يقول السياب[٦٥]

الريح تلهث بالهجيرة كالجثام ، على الأصيل

وعلى القلوع تظل تُطوى أو تُنشَّرُ للرحيل

---

[٦٢] ينظر : بديع القرآن ، لابن أبي الأصبع المصريّ / ٣١.

[٦٣] حسن التوسل إلى صناعة الترسل ، شهاب الدين محمود الحلبيّ /١٩٩.

[٦٤] ينظر : معجم المصطلحات البلاغية وتطورها / ٦٣٦- ٦٣٧.

[٦٥] الديوان مجلد /٢ :٤ .

الطباق بين تطوى ≠ تُنشَّر

ودلالة الطباق متأرجحة بين امكانية العودة ، أو عدمها ، ودلالة الفعل – تنشّر – جاء بصيغة التضعيف وهذه الصيغة الصرفية من معانيها التكثير ، لترجيح كفة امل العودة[٦٦] . ويقول[٦٧]:

مازلتُ أحسب يانقودُ ، أعدُّكنَّ وأستزيد ،

مازلت أنقصُ ، يانقودُ ، بكنَّ من مُدَدِ اغترابي

يأخذ الطباق بحركة موضعية في الإشارة إلى عدّ النقود وحساب ايام غربته ، فيستزيد في العدد والحساب ، ثم يتطابق نقص النقود مع زيادة العدّ ، فتنصب في شيء واحد هو طول غربته . ويلاحظ على التشكيل النحوي غياب الفاعل واسناده للضمير المتكلم المقدر في الافعال (أحسب ، استزيد ، أعدّ ، أنقص) إذ يجسد في غياب الفاعل دلالة التدوير النابعة من التطابق في مدة غربته واحتسابه للنقود .

ويقول[٦٨] :

الشمس أجملُ في بلادي من سواها ، و الظلام

– حتى الظلام – هناك أجمل ، فهو يحتضن العراق

---

[٦٦] ينظر : فاعلية التصوير في غريب على الخليج / ١٢ .

[٦٧] الديوان مجلد /٢: ٨

[٦٨] الديوان مجلد /٢: ٦

عمد الشاعر من إحاطة التعبير بجو ايحائي مدهش ، فكان دلالة نسق الطباق السر الاساسي في خلقه ، يتمثل دال نسق الطباق بين الشمس التي تمثل النور والضياء وهو يخالف الظلام ؛ والشمس واحدة ومثلها الظلام إلا أن ثبوتهما يشخص في حدقة العلم والمنطق ، أما الشاعر فيؤثر شمسا على اخرى وظلاما على ظلام ، كأن لكل بلدٍ شمسا أو ظلاما تخصّانه ذاك أنه لا يتولاّها معزولين مستقلين ، بل يضفي عليهما من ذكريات ويطبعهما بسمات نفسية كما هو دأب الشعراء الوجدانيين[٦٩] .

ويقول[٧٠] :

وأزيح بالثُّـؤباء بُـــقيا من نعاسي كالحجابِ

من الحرير ، يشفُّ عما لا يبينُ وما يبيـن

عما نسيتُ وكدتُ لا أنسى ، وشكٌّ في يقين

ويضيء لي _ وأنا أمدُّ يدي لألبسَ من ثيابي-

ماكنتُ ابحثُ عنه في عتَمات نفسي من جواب

من خلال المقارنة النصية لهذا المقطع نستشف جمالية البنى المتقابلة والمتطابقة ؛ إذ أن صور الطباق والمقابلة صورٌ ذهنية ترتكز على مناطق دلالية لا نجد لها مكانا سوى الذهن، وقائمة هذه الانساق في موضعين من خلال بنية النفي :

---

[٦٩] ينظر: بدر شاكر السياب شاعر الاناشيد والمراثي ، أيليا الحاوي / ٢ : ١٧.

[٧٠] الديوان مجلد / ٢ : ٨.

عما لا يبين ≠ وما يبين

عما نسيت ≠ لا انسى

وفي موضعين على صورة التطابق اللغوي الضدي:

شكّ ≠ يقين

يضيء لي ≠ عتمات نفسي

يحقق الشاعر من هذه الانساق التطابقية دلالات اضطراب واقعه وتناقضه ، ويريد أن يتغلب عليه وإعادة التوازن إلى نفسه .

ويقول(٧١) :

كان الرجال يعربدون ويسمرون بلا كلال .

أفتذكرين ؟ أتذكرين ؟

سعداءَ كنا قانعينَ

بذلك القَصَصِ الحزين لأنه قصص النساء

تقوم هذه الأسطر على مجموعة من الأساليب ، فيها تكرار نسق الاستفهام ، وهذا الاستفهام معدول عن دلالته الأصلية إلى دلالة التوكيد والتنبيه ، فاستجمع الشاعر صور ذكرياته ونسجها عفويا بقدر واضح ، من التماسك والتوازن مع نسق الطباق الذي جاء ضمن تركيب خبري في : (سعداء ≠ القصص الحزين) . وهنا الطباق يبدو " للوهلة الأولى خارجا

---

(٧١) الديوان مجلد /٢ : ٥ .

عن الإطار العام للقصيدة ، الذي يستحضر ماضي الطفولة بأكبر قدر من التحنان ، إذ يشير إلى صلابة عالم الرجال المنهكين في سمرهم وعربدتهم ، في مقابل عالم الطفولة والإناث المستضعفين"[٧٢] .

وثمة صورة أخرى من صور نسق المقابلة ، وهي المقابلة السياقية وسميت بالمعجمية ، وذلك بالنظر إلى موضع البنية وعلاقتها بالبنى التي تجمعها علاقة البدلية[٧٣] ، فالسياق يكسب البنية دلالة خاصة بها تتميز من المقابلة اللغوية في أن" تقابل الشقين في هذا النوع ليس مرجعه إلى الموضع اللغوي وإنما إلى أسلوب الشاعر وحده"[٧٤] . ويجد الشاعر في هذا النوع من المقابلات المرونة في التعبير ، لأنها تتيح له حرية استخدام اللفظ المتقابل دون الاضطرار إلى اللفظ اللغوي .

يقول السياب[٧٥] :

شوقِ الجنين إذا اشرأبَّ من الظلام إلى الولادةْ !

المقابلة السياقية في : الظلام ⟸ الولادة ؛ فالجنين في رحم أمه كأنه في غرفة مظلمة ، ثم يخرج إلى النور ، نور ولادته .

---

[٧٢] اساليب الشعرية المعاصرة / ٦٩ .

[٧٣] ينظر : بناء الأسلوب في شعر الحداثة ، الدكتور محمد عبد المطلب / ١٨٥.

[٧٤] خصائص الأسلوب في الشوقيات ، الدكتور محمد الهادي الطرابلسي / ١٠٢.

[٧٥] الديوان مجلد / ٢ :٦.

ويقول[٧٦] :

مازلتُ اضرب مُترِبَ القدمين أشعثَ ، في الدروب

تحت الشموس الأجنبية

متخافق الأطمار ، أبسُطُ بالسؤال يدا نديّهْ

يستحضر الشاعر بطريقة واعية وبدلالة المقابلة ؛ الفقر الذي يمر به فيبسط يده المعطاء الخيّرة للسؤال ، والحاجة والعوز المادي فتزيد حدة التقابل مفارقته النفسية ، وتتجلى صور الفقر والغربة التي كان يعانيها .

من هذا يتكشف لنا أن المقابلة السياقية تتسع في النص الشعري الحديث ، وقصيدة غريب على الخليج لا تخلو منها وتعددت الوان التعبير فيها[٧٧].

المستوى الثالث : المستوى التركيبي

تنطلق الأسلوبية في هذا المستوى إلى دراسة الجملة بنوعيها ، دراسة نقطة البدء ترتكز على الجزئيات وصولا إلى كلية العمل الأدبي[٧٨]. إن المستوى التركيبي للجملة وما تحكمه من عناصر تصف بأنها خبرية وإنشائية ، هذا المستوى عنصر مهم وفاعل في عملية الابداع الشعري ، فهو

---

[٧٦] الديوان مجلد /٢ : ٧ .

[٧٧] جاءت المقابلة السياقية في خمسة مواضع في القصيدة ، ذكرنا منها اثنين ، ينظر: الديوان مجلد /٢ : ٨- ٩ .

[٧٨] ينظر: البلاغة والأسلوبية ، الدكتور محمد عبد المطلب / ٢٠٧ .

يمثل حالة رصد قائمة على التفاعل الايجابي بين مكونات اللغة ، إذ يتضافر التركيب مع الأنساق الأخرى في النص ليشكلوا بنى فنية ذات أنساق جمالية ، وهذا ما اشار إليه الجرجاني ، حين قال" والألفاظ لا تفيد حتى تؤلّف ضربا خاصا من التأليف ، ويعمد بها إلى وجه من الترتيب والتركيب ، فلو أنك عمدت إلى بيت شعرٍ أو فصل نثر فعددت كلماته عدّا كيفما جاء واتفق ، وابطلت نضده ونظامه الذي عليه بنى وفيه أفرع المعنى وأحرى ، وغيّرت ترتيبه ... أخرجته من كمال البيان إلى مجال الهذيان"[٧٩] .

فالمبدع يقوم باستعمال انزياحي للّغة بقصد جمالي يحقق منه مفاجأة للمتلقي يستدعي انتباهه ، وتثير إعجابه وهذا يحمل قدرا كبيرا من المخالفة ، ولجوءا إلى ما ندر من الصيغ ، او كما يقال خرقا للقواعد ؛ أيّ هو انزياح يعكس قدرة المبدع في تطويع وتفجير طاقاتها وتوسيع دلالاتها.

وتتبدى في قصيدة غريب على الخليج أنساق تركيبية انزاحت عن معناها الحقيقي إلى معانٍ مجازية .

المحور الأول : نسق دلالة الألفاظ والتراكيب

لابد من قراءة أولى شاملة لأيّ نصٍ ، يروم الناقد دراسته ، تليها قراءة أخرى ، أو قراءات دقيقة متأنية محللة ، وإن الانطباع الذي يتحصل بعد القراءة الشاملة هو أن هذه القصيدة نص مشحون شحنا عاطفيا كثيفا ، لأسباب عدّة ، أولها الغربة، لذا لا يمكن للباحث إلا أن يلغي فكرة عزل النص عمّا حوله ، حفاظا على وهج المسببات ، الذي يكثّف دلالة الألفاظ

---

[٧٩] أسرار البلاغة / ٣ .

وحيويتها . يمكن النظر إلى هذه القصيدة على وفق مستويات عدّة منها مستوى دلالة الالفاظ والتراكيب الذي تتكشف فيه ملامح الشعرية في النص ، حين يرتقي التشكيل اللغوي فوق مستوى الكلام اليومي، ليضّح بالروح المجازية التي تكفل تألفه .

إنّ لهذا المستوى شأنه ودوره الواضحان في إضاءة معالم النص وكشف عالمه الداخلي ، وهو يُعنى برصد التضادات والحقول الدلالية .

في الشطر الأول من القصيدة، أيّ مستهلها نموذج حيّ لهذا الانزياح الفني الذي خلق مجازا رائقا ، أبدعه الشاعر هو لهاث الريح في قوله[٨٠] :

الريح تلهث بالهجيرة كالجثام ، على الأصيل

ويكفي تأمل لمحة لهاث الريح ليرسم صورة فنية فيها رصيدٍ عالٍ من الفن . صورة يزيدها علوقا في الذاكرة ؛ اقترانها بوساطة علاقة تجاورية بلفظة تحمل جرسا مماثلا للجرس الموسيقي في ذلك المجاز ، وهذه اللفظة هي (الهجيرة) ، وعلى الرغم من

الخلل الصرفي الحاصل فيها باقترانها بتاء التأنيث لأن اصل هذه المفردة هو(الهجير) وليس (الهجيرة)[٨١]. وفي هذا المستوى نرصد دلالة العنوان (غريب على الخليج) التي تنبيء بحقلين دلاليين ، هما عالم الغربة

---

[٨٠] الديوان مجلد / ٢ :٤ .

[٨١] ينظر: اساس البلاغة للزمخشري / مادة هجر.

والبحر . أما عالم الغربة فإن في حقله الدلالي ألفاظا ، تكفي بدلالتها المعجمية لرسم ملامحه ، الغريب في قوله[٨٢] :

جلس الغريبُ ، يسرِّح البصرَ المحيَّر في الخليج

وفيه تراكيب ، توحي بهذه الغربة ، مثل (البحر دونك يا عراق) و (أنت أبعد ما تكون) ، ولكن فيه ألفاظا وتراكيب انسابت إليه بتأثير العلاقات الداخلية القائمة في السياق ، مثل[٨٣].

زحم الخليجَ بهنّ مكتدحون جوّابو بحارِ

من كلّ حافٍ نصف عاري

وقوله[٨٤] :

كالمدّ يصعد ، كالسحابة ، كالدموع إلى العيون

وقوله[٨٥]:

ويهدُّ أعمدة الضياء بما يصعِّد من نشيجِ

وأما عالم البحر فإن حقله الدلالي قد رسمت أبعاده في هذا المقطع من القصيدة الألفاظ الآتية (القلوع ، الخليج ، الرمال ، العباب ، والرُّغو ، المدّ ، الموج) فضلا عن الفاظ وتراكيب أخرى في المقاطع التالية من القصيدة .

---

(٨٢) الديوان مجلد /٢ : ٤ .

(٨٣) م . ن / الصفحة نفسها .

(٨٤) م . ن / الصفحة نفسها .

(٨٥) م . ن / الصفحة نفسها .

ولقد أضفى الشاعر على عدد من هذه المفردات لمسات فنية رائعة زادتها تأثيرا ، مثل قوله[٨٦] :

وعلى القلوع تظل تُطوى أو تُنشَّرُ للرحيل

فالقلوع في هذا السياق في حركة قلقة بين الساكنة الهامدة والمتحركة بتأثير الافعال الدالة على السكون والحركة ، وهي (تظل ، تطوى ، أو تنشّر) ولاسيما الفعل الأخير ، الذي تكاثفت فيه ظلال الحركة ، بتأثير التشديد . ويمكن النظر إلى المساحة السابقة من النص في ضوء البنية التركيبية ؛ ونقصد بها السمات النحوية في الجمل والعلاقات والروابط التي تربطها ببعضها البعض، وما تمتاز به من خصائص على المستويات كافة . ومن هنا تأتي أهمية دراستها وأثرها في رصد المتغيرات النحوية والدلالية معا .

تهمين في بعض مقاطع القصيدة الصيغ النحوية الخبرية ، منذ مطلعه الذي وقفنا فيه طويلا ، وفي قوله الآتي[٨٧] :

الشمس أجملُ في بلادي من سواها ، والظلام

-حتى الظلام - هناك أجمل ، فهو يحتضن العراق

---

[٨٦] م . ن / الصفحة نفسها .

[٨٧] الديوان مجلد / ٢ : ٦.

يلفت النظر في هذه الصيغ خلوها من المؤكدات التي تسمح طبيعة السياقات بروزها في النص ، ولعل عمق التجربة الشعورية وحرارة الإنفعال تكفلا بأداء الدور ، أو الأدوار التي تنهض بها مؤكدات الصيغ .

ولقد تنوعت الضمائر في النص ويَعْدِلُ الشاعر من ضمير المتكلم أحيانا إلى ضمير الجماعة ، أو من الحضور إلى الغياب من ذلك قوله[٨٨].

أحببتُ فيكِ عراقَ روحي أو حببتكِ أنت فيه

ياأنتما – مصباح روحي أنتما – وأتى المساء

والليل أطبق ، فلتشعّا في دجاه فلا أتيه

يبدأ بضمير المتكلم في الفعل(أحببتُ) ويعد به إلى ضمير المخاطب للمثنى في قوله(يا أنتما) ثم يعود في نهاية المقطع إلى ضمير المتكلم في الفعل(أتيه) . ويبرز ضمير جماعة الغائبين بروزا منطقيا ؛ لأن لمرجعتيه السيادة ضمن حدود الصورة المعروضة وذلك في قوله[٨٩] :

زحم الخليجَ بهنّ مكتدحون جوّابو بحارِ

ينتقل الشاعر تغطية المساحة الأكبر إلى مساحة أضيق ، يبرز فيها ضمير الغائب المفرد في قوله[٩٠] :

جلس الغريبُ ، يسرّح البصرَ المحيَّر في الخليج

---

[٨٨] م . ن / الصفحة نفسها .

[٨٩] الديوان المجلد /٢ :٤ .

[٩٠] م . ن / الصفحة نفسها .

وهنا يتكاثف اهتمام المتلقي في هذه المساحة ، فيزداد فاعلية ليبلغ ذروة التركيز بانتقال المبدع إلى نمط ثالث من الضمائر تهيأ له الاستحواذ على أعلى رصيد من الفاعلية هو ضمير المتكلم في قوله[٩١] :

صوتٌ تفجَّر في قرارة نفسيَ الثكلى : عراق

ومنذ هذا السطر الشعري يهيمن تأثير ضمير المتكلم المفرد، كاشفا عجز الإنسان الفرد أمام قوى قاهرة ، يواجهها بمفرده ، على الرغم من ضآلة ما يمكن أن تقدمه له جماعة قوامها حفاة وأنصاف عراة من عون ، ونختم هذا القسم بقوله[٩٢] :

البحر أوسع ما يكون وأنت أبعد ما تكون

فنلمس صيغتين خبريتين تحمل كلّ منهما دلالة الصيغة الإنشائية ، إذ أن دلالتهما تحمل في حقيقتها معنى التعجب إذ يمكن تأويلهما بالآتي (ما أوسع البحر! ، وما أبعدك عني !).

ثانيا : نسق التركيب الندائي

معناه "تنبيه المدعو وطلب إصغائه وإقباله على الداعي"[٩٣]. شكل التركيب الندائي ظاهرة أسلوبية مميزة في القصيدة ، لأن السياب في نصّه هذا وكما اسلفنا سابقا في البحث صوّر فيه غربته وحنينه إلى الماضي

---

[٩١] م . ن / الصفحة نفسها .

[٩٢] م . ن / الصفحة نفسها .

[٩٣] جواهر البلاغة ، أحمد الهاشمي / ١٠٥ .

واستحضار ذكرياته ، وأمل العودة إلى وطنه . فهو لا يملك إلا أن ينادي ؛ ويتعب من هذا النداء طالما لم يجد إقبالا لدعوته .

يقول[٩٤] :

الريح تصرخ بي : عراق

والموج يُعوِل بي : عراق ، عراق ، ليس سوى عراق !

البحر أوسع مايكون وأنت أبعد ما تكون

والبحر دونك يا عراق .

بالأمس حين مررتُ بالمقهى ، سمعتك ياعراقُ ...

المنادى هو دال العراق ، يناديه خمس مرات ، ثلاث منها يستغني عن حرف النداء ؛ يتموضع النداء وفق حالات نفسية ، ويعكس دلالات معينة ، إذ اراد الشاعر تفجير غضبه فلجأ إلى النداء ، يستلذ الغريب بذكر موطنه فيكرر نداؤه علّه مع هذا الترديد يخفف من آلام غربته ، ووحشته على الشاطئ البعيد ، فالمدّ والامواج يمثلان ذكرياته في بلده حيث إيام الطفولة واللهو والبراءة ، هذا المشهد جعل الشاعر يستعيد الزمن في بلاده ، قَصَدَ من تلك النداءات غرض الاستلذاذ وإشباع حاجة في نفسه وإطفاء نيران غربته .

---

[٩٤] الديوان المجلد /٢ : ٤ .

ويقول في نداءات أخرى[٩٥] :

فلتنطفي، ياأنتِ ، يا قطراتُ ، يادمُ ، يا .. نقودُ

ياريحُ ، ياإبرا تخيط ليَ الشراعَ ، متى أعودُ

إلى العراق ؟ متى أعودُ ؟

يالمعةَ الأمواجِ رَنحهنَّ مجدافٌ يرودُ

بيَ الخليجَ ، وياكواكبَه الكبيرة .. يانقودُ!

تتوالى النداءات في سلسلة ، وتتعدد الجهات المخاطبة به في إشارة إلى تشتت الشاعر وتيهه وضياعه ، فحين يخاطب جهة واحدة ، فإن ذلك يعني تركيز وعيه ، وأن القضية التي شغلته محددة معينة ، ومن ثم يكون أكثرا ارتياحا في صوغ فكرته ؛ وهذا ما وجدناه في المقطع السابق . أما هنا فنجد السياب كغريق الذي يبحث عن قشة تنجده، وسط امواج الخليج فيمضي في نداءاته الكثيرة التي تجمع الجامد والحي ، المادي والمعنوي ، يتوسط هذه النداءات طلب العودة والسؤال عنه، إذ تنزاح النداءات إلى الرجاء والتوسل بالعودة إلى بلده .

دالّ آخر يتردد نداءه كثيرا هو (النقود) يقول[٩٦] :

مازلتُ أحسب يانقودُ ، أعدُكنَّ وأستزيد ،

مازلت أنقصُ ، يانقودُ ، بكنَّ من مُدَدِ اغترابي

---

[٩٥] الديوان المجلد /٢ : ٧ .

[٩٦] الديوان مجلد /٢ : ٨ ، يردد السياب نداء النقود في القصيدة في خمسة مواضع .

يتسلسل النداء ويتناوب ليصل في آخر المطاف إلى ما يريد الشاعر من كل مناداته (في الضفة الأخرى هناك فحدثيني يانقود متى أعود ؟ متى أعود ؟) ، العودة هي زبدة نصه وفكرة الشاعر الجوهرية ، ونجدها في أغلب نداءات النص ، ومنها هذه النداءات التي ذكرناها ، إن السياب يربط فكرة النداء وغايته بضمير المتكلم مما يعزو القول إن النداء عنده وسيلة للتنفيس عن غربة متجذرة ، محاولا به التخفيف من عبء معاناته الكبيرة .

ثالثا: نسق التركيب الاستفهامي

هو طلب الفهم عن شيء لم يكن معلوما أصلا ؛ أي هو" استخبار وطلب المخاطب أن يخبر أو يفهم عن شيء لم يكن معلوما بأداة خاصة" [٩٧]. تحرك هذا النسق في القصيدة بين معانٍ سياقية مختلفة تكشفها سياقات السطر الشعري حينا ، والمضمون العام للنص حينا آخر ، فيَعْدَلُ الاستفهام عن المعنى المألوف ، ويدخل الاستفهام مع الحوار في النص ، وللحوار أهمية في النص الشعري ، لأنه له القدرة على التغلغل في أعماق النفس البشرية ، ومعرفة ميولها ونوازعها وما تفكر به [٩٨] . والمتلقي لنص غريب على الخليج لا يجد صعوبة في الكشف عن مغاليق الاستفهام من خروجه إلى المعاني المجازية ، إذ سهل الحوار فتح تلك المغاليق ، وأوضح

---

[٩٧] دلائل الإعجاز ، عبد القاهر الجرجاني / ١٠٨ ، وينظر : علم المعاني ، عبد العزيز عتيق / ٩٦.

[٩٨] ينظر : القصة والرواية ، عزيزة مريدن / ٥٤ .

العلاقات السياقية بين البنى الاستفهامية ، والبنى المتداخلة معها . يقول[99] :

في الضفّة الأخرى هناك . فحدثيني يا نقودُ

متى أعود ، متى أعود ؟

أتراه يأزف ، قبل موتي ، ذلك اليوم السعيد ؟

....

واحسرتاه .. فلن أعودَ إلى العراق

وهل يعودُ

من كان تُعْوِزُهُ النقود ؟ وكيفَ تُدَّخَرُ النقودُ

يشخص الشاعر النقود ويجعلها كائنا حيا يتحاور معها ، ويسألها عن عودة ممكنة سؤال يخرج معناه إلى التمني (متى أعود ؟ ، متى أعود ؟) واحسرتاه لن اعود ؛ جواب سؤاله .

ثم يزيد من استفهامه الحواري ، إذ يسأل محاورا نفسه (وهل يعود ..) أي ليس هناك عودة ، وسؤاله (وكيف تدخر النقود) اي لا تدخر النقود لمن يعوزها . وفي مشهد آخر يتواشج الاستفهام مع الحوار في تقديم صورة الآخر ، لاسيما حين يتحدث الشاعر عن ذكرياته مع حبيبته ، ويذكر تنوره الوهاج ، وحديث عمته .... يقول[100] :

---

(٩٩) الديوان مجلد /٢ : ٨ .

(١٠٠) الديوان مجلد /٢ :٥ .

زهراءُ، أنتِ .. أتذكرين

تنّورَنا الوهّاجَ تزحمه أكفُّ المصطلين ؟

وحديث عمتي الخفيضَ عن الملوك الغابرين ؟

......

أ فتذكرين ؟ أتذكرين ؟

سعداءَ كنا قانعينَ

إنها تساؤلات تندرج بشاعرية النص على المستوى الرومانسي المفعم بالحزن الآني ، وسعادة استذكار الطفولة وحكاياتها وأحداثها . عمل الشاعر بتقنية عالية ، حين اختصر عبارة الاستفهام بعد السطر الأول بالعطف مرة بدون حرف ، ومرة بحرف العطف الواو ، فلم يكرر همزة السؤال المقترنة بعبارة (تذكرين) ؛ ترك هذا التنوع الصياغي أثرا جماليا في المتلقي ، فالسياب يدرك أثر البنية ودورانها في السياق، وما تتركه من طاقة كبيرة في انفتاح النص، واستيعاب عواطفه . ثم يختم المقطع باستفهام مكرر ليؤكد استذكار تلك الأيام السعيدة .

استغرق السياب عددا كبيرا من أدوات الاستفهام وفضلا عن الوسائل اللغوية التي استثمرها كتقنية الحوار التي اسلفنا ذكرها ، إذ كان واعيا لدور اللغة في صياغة الاستفهام ، فنجد في بعض اسئلته لايجعل عناءً للمتلقي في معرفة المعنى المجازي للاستفهام. من ذلك قوله [١٠١] :

---

[١٠١] الديوان مجلد /٢ : ٦.

إني لأعجب كيف يمكن أن يخون الخائنون !

أيخون إنسان بلاده ؟

فالتركيب(إني لأعجب) أوضح دلالة الاستفهام المجازية وخروجه إلى معنى التعجب . وكذلك قوله[١٠٢] : **واحسرتاه ، متى أنامُ ؟**

فنداء التوجع (واحسرتاه) بيّن دلالة الاستفهام المجازية وخروجه إلى معنى التوجع والتمني .

---

[١٠٢] م . ن / الصفحة نفسها.

الخاتمة ونتائج البحث :

- في الوزن ، استطاع الشاعر من تطويع بحر الكامل ، وهذا البحر من البحور الأحادية التفعيلة (متفاعلن) تتكرر ست مرات في البيت في كلّ شطر ثلاث تفعيلات ، السياب تجاوز الثلاث تفعيلات إلى أربع في السطر الطويل ، واختزلها إلى أثنين في السطر القصير على وفق ارتفاع الموجه العاطفية وانخفاضها .

- في القافية لعب السياب بفنية عالية في قافية القصيدة ، إذ تنوعت القافية وصل التنوع إلى أربعة أنواع ، ولم يتكلف الشاعر في اختيار القافية ، أو يتصنعها بل أتت عفو الخاطر .

- في التكرار ، تتنوع البنى الحرفية الصوتية في النص ، فلا يمكن حصرها وحصر الأنواع الأخرى من التكرار في بحثٍ واحد . أما على مستوى تكرار الكلمة فكان التنوع في تكرار ، وله غايات متعددة زاد النص جمالا .

- تنوعت البنى المتجانسة في النص ، وهذا التنوع ساعد على النهوض بالنص على مستوى الموسيقى الداخلية .

- النموذج السردي الغالب على القصيدة من تصويري سينمائي لرحلة الغريب ابتداء من جلوسه واستحضار دوال صور ذكريات الماضي الجميل ، ونسجها في اتساق وعفوية بقدر واضح ، انعكس هذا النمط السردي بشكل واضح على صور التشبيه إذ جاءت اغلب التشبيهات من نوع التشبيه المجمل ؛ مع تعالق واضح ومتين مع الاستعارة .

- الاستعارات في نص السياب في مجملها تقوم بإنتاج دلالات متعددة في الاستعارة الواحدة ، من خلال احضار دال معين غائب فتتفاعل معه هذه الدلالات ، فالكلمة في حقيقتها بؤرة يلتقي فيها كَمٌّ من المعاني تنتمي إلى الحقل الدلالي نفسه فهي مستقر للإمكانات كثيرة من الدلالات ، وهي استعارات تشخيصية أو كما عُرفت في البلاغة العربية بالاستعارة المكنية .

- تنوعت صور الطباق والمقابلة فمنها الطباقات الذهنية ، ومنها النفسية يلجأ اليها الشاعر في تعين مواقف نفسية يمرّ بها ، فضلا عن ذلك نجد للمقابلة المعجمية حضورها الفعّال في النص .

- في المستوى التركيبي - وفي المحور الأول - دلالة الألفاظ والتراكيب - تناسقت هذه الالفاظ بتقنية عالية في اظهار دلالات الصور بصورة منسجمة مع تجربة الشاعر، إذ ترجمة مشاعره وعواطفه وأحواله النفسية بدرجة عالية من الانتظام والتقنية . وكان العدول في الضمائر من وضع إلى وضع آخر حضورا متميزا ساهم في تلميع صور النص وتنوعها .

- شكل التركيب الندائي ظاهرة أسلوبية مميزة في القصيدة ، والنداء عنده وسيلة للتنفيس عن غربة متجذرة ، محاولا به التخفيف من عبء معاناته الكبيرة ، والمزية الاسلوبية فيه استخدام حرف النداء (يا) مع امكانية حذفه في مواضع محددة .

- استغرق السياب عددا كبيرا من أدوات الاستفهام وفضلا عن الوسائل اللغوية التي استثمرها كتقنية الحوار ، إذ نواشج الحوار مع الاستفهام وساهم في ابراز دلالات الانزياح الاستفهامي في مواضع محددة ، فضلا عن

ذلك نجد في النص استعمال لتراكيب لغوية تساهم في معرفة المعنى المجازي الذي ينزاح له الاستفهام .

نص القصيدة

الريح تلهث بالهجيرة كالجثام ، على الأصيل

وعلى القلوع تظل تُطوى أو تُنشَرُ للرحيل

زحم الخليجَ بهنّ مكتدحون جوّابو بحارِ

من كلّ حافٍ نصف عاري

وعلى الرمال ، على الخليج

جلس الغريبُ ، يسرِّح البصرَ المحيَّر في الخليج

و يهدُّ أعمدة الضياء بما يصعِّد من نشيجِ

أعلى من العبَّاب يهدر رغوُهُ و من الضجيج

صوتٌ تفجَّر في قرارة نفسيَ الثكلى : عراق

كالمدّ يصعد ، كالسحابة ، كالدموع إلى العيون

الريح تصرخ بي : عراق

والموج يُعوِل بي : عراق ، عراق ، ليس سوى عراق !

البحر أوسع ما يكون وأنت أبعد ما تكون

والبحر دونك ياعراق

بالأمس حين مررت بالمقهى ، سمعتك يا عراقُ ..

وكنت دورة أسطوانه

هي دورة الأفلاك من عُمري، تكوِّر لي زمانه

في لحظتين من الزمان ، وإن تكن فقدت مكانه

هي وجه أمي في الظلام

وصوتُها ، يتزلّقان مع الرؤى حتى أنام ؛

وهي النخيل أخاف منه إذا ادلهمَّ مع الغروب

فاكتظَّ بالأشباح تخطفُ كلَّ طفلٍ لا يؤوبُ

من الدروب ؛

وهي المفلّيةُ العجوز وما توشوش عن حزام

وكيف شُقَّ القبر عنه أمام عفراء الجميلهْ

فاحتازها .. إلا جديلهْ

زهراءُ ، أنت .. أتذكرين

تنّورَنا الوهّاجَ تزحمه أكفُّ المصطلين ؟

وحديث عمتي الخفيضَ عن الملوك الغابرين ؟

ووراء باب كالقضاء

قد أوصدته على النساء

أيدٍ تُطاعِ بما تشاء ، لأنها أيدي الرجال

كان الرجال يعربدون ويسمرون بلا كلال .

أفتذكرين ؟ أتذكرين ؟

سعداءَ كنا قانعينَ

بذلك القَصَصِ الحزين لأنه قصص النساء

حَشْدٌ من الحيوات و الأزمان ، كنا عُنْفوانهْ

كنا مَداريه اللذين وجدتُ بينهما كيانهْ

أفليس ذاك سوى هباء ؟

حُلمٌ ودورة أسطوانهْ ؟

إنْ كان هذا كلّ ما يبقى فأين هو العزاء ؟

أحببتُ فيكِ عراقَ روحي أو حببتُكِ أنت فيه

ياأنتما - مصباح روحي أنتما - وأتى المساء

والليل أطبق ، فلتشعّا في دجاه فلا أتيه

لو جئتِ في البلد الغريب إليّ ما كمل اللقاء !

الملتقى بك والعراقُ على يديَّ ... هو اللقاء

شوق يخضُّ دمي إليه ، كأن كلَّ دمي اشتهاء

جوعٌ إليه .. كجوع كلّ دم الغريق إلى الهواء

شوق الجنين إذا اشرأبَّ من الظلام إلى الولادهْ !

إني لأعجب كيف يمكن أن يخون الخائنون !

أيخون إنسان بلاده ؟

إن خان معنى أن يكون ، فكيف يمكن أن يكون ؟

الشمس أجملُ في بلادي من سواها ، والظلام

- حتى الظلام – هناك أجمل ، فهو يحتضن العراق

واحسرتاه ، متى أنامُ

فأحسّ أن على الوسادة

من ليلك الصيفي طَلا فيه عطرُك ياعراق ؟

بين القرى المتهيّبات خطاي والمدن الغريبه

غنَّيتُ تُربتكَ الحبيبه ،

وحملتُها فأنا المسيحُ يجرُّ في المنفى صليبهُ ،

فسمعتُ وقْع خطى الجياع تسيرُ ، تدمي من عثار

فتذر في عينيَّ ، منكَ ومن مناسمها ، غبار

مازلتُ اضرب مُترِبَ القدمين أشعثَ ، في الدروب

تحت الشموس الأجنبية

متخافق الأطمار ، أبسُطُ بالسؤال يدا نديّة

صفراءَ من ذُلَ و حُمّى : ذلّ شحّاذٍ غريبِ

بين العيون الأجنبية

بين احتقارٍ ، وانتهارٍ ، وازورارٍ .. أو خطيّه

والموت أهون من خطّية

من ذلك الإشفاق تعصره العيونُ الأجنبيةْ

قطرات ماء .. معدنيّة

فلتنطفي، ياأنتِ ، يا قطراتُ ، يادمُ ، يا .. نقود

ياريحُ ، ياإبرا تخيط ليَ الشراعَ ، متى أعودُ

إلى العراق ؟ متى أعودُ ؟

يا لمعةَ الأمواجِ رّنحهنّ مجدافٌ يرودُ

بيَ الخليجَ ، وياكواكبَه الكبيرة .. يانقودُ !

ليتَ السفائنَ لا تُقاضي راكبيها عن سِفارِ

أو ليت أنّ الأرضَ كالأفق العريضِ ، بلا بحار !

مازلتُ أحسب يا نقودُ ، أعدُكنَّ و أستزيد ،

مازلت أنقصُ ، يا نقودُ ، بكنَّ من مُدَدِ اغترابي

مازلت أوقد بالتماعتكنَّ نافذتي و بابي

في الضفّةِ الأخرى هناك . فحدثيني يا نقودُ

متى أعود ، متى أعود ؟

أتراه يأزف ، قبل موتي ، ذلك اليوم السعيد ؟

سأفيق في ذاك الصباح ، و في السماء من السحاب

كسَرٌ ، وفي النسمات بَـرْدٌ مُشبَع بعطور آب

وأزيح بالثُـؤباء بُــقيا من نعاسي كالحجابِ

من الحرير ، يشفُّ عما لا يبيـنُ وما يبيـن

عما نسيتُ وكدتُ لا أنسى ، وشكٌّ في يقين

ويضيء لي _ وأنا أمدُّ يدي لألبسَ من ثيابي-

ماكنتُ ابحثُ عنه في عتَمات نفسي من جواب

لـمَ يملأ الفرحُ الخفيُّ شعابَ نفسي كالضباب ؟

اليومِ _ واندفقَ السرورُ عليَّ يفجأُني- أعودُ

واحسرتاه .. فلن أعودَ إلى العراق

وهل يعودُ

من كان تُـعْوزُهُ النقود ؟ وكيفَ تُدَّخَرُ النقودُ

وأنت تأكل إذ تجوع ؟ وأنت تُـنفقُ ماتجودُ

به الكرام ، على الطعام ؟

لتبكينَّ على العراق

فما لديك سوى الدموع

وسوى انتظارك ، دون جدوى ، للرياح وللقلوع

المصادر :

- اساس البلاغة للزمخشري ، ابو القاسم محمود بن عمرو بن احمد (ت ٥٣٨هـ) تحقيق ، محمد باسل عيون ، الناشر دار الكتب العلمية بيروت ، ط١ ، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م .
- اساليب الشعرية المعاصرة ، الدكتور صلاح فضل ، دار الآداب ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٥.
- اسرار البلاغة ، عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني (ت٤٧١هـ) تحقيق ، محمد رشيد رضا ، دار المعرفة ، بيروت ، ١٩٧٨.
- اسفار السياب الكونية (ممكنات التحول في رائعة سفر أيوب أنموذجا) الدكتور ناصر شاكر الأسدي ، مجلة الخليج العربي ، مجلد٤١ ، عدد ١-٢ ، سنة ٢٠١٣ م.
- الأسلوبية وتحليل الخطاب ، الدكتور منذر عياشي ، مركز الإنماء الحضاري ، ط١، ٢٠٠٢ م .
- أشكال الحنين إلى الماضي في شعر بدر شاكر السياب ، الدكتور سيد رضا احمد ، الدكتور علي تجعي ، مجلة دراسات في اللغة العربية وآدابها ، عدد١١ ، ٢٠١٢م .
- الأصوات اللغوية ، الدكتور إبراهيم أنيس ، مكتبة نهضة مصر ومطبعتها بمصر ، د. ت ، د. ط .
- الأصوات اللغوية ، الدكتور محمد علي الخولي ، مكتبة الخانجي ، الرياض ، ط١ ، ١٩٨٧م .

- أصول النغم في الشعر العربي ، صبري ابراهيم السيد ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، ١٩٩٣م .
- بديع القرآن ، لابن أبي الاصبع المصري ، زكي الدين عبد العظيم بن عبد الواحد (ت ٦٥٤هـ) تحقيق ، حفني محمد شرف ، دار النهضة، مصر ، ط١ ، ١٩٧٧م .
- بناء الاسلوب في شعر الحداثة (التكوين البديعي) الدكتور محمد عبد المطلب، دار المعارف، القاهرة، مصر،ط٢ ،١٩٩٥ م.
- تحليل النص الشعري ، بنية القصيدة ، يوري لوتمان، ترجمة الدكتور محمد فتوح احمد ، دار المعارف القاهرة، ١٩٩٤ م.
- التشكيلات الإيقاعية في قصيدة التفعيلة ، الدكتور ثائر العذاري ، رند للطباعة والنشر ، دمشق ، ط١، ٢٠١٠م .
- جواهر البلاغة ، احمد الهاشمي ، دار الفكر ، بيروت ، د.ت ، د. ط .
- حسن التوسل إلى صناعة الترسل ، شهاب الدين محمود الحلبي (ت ٧٢٥هـ) تحقيق اكرم عثمان يوسف ، دار الحرية ، بغداد ، ١٩٨٠م .
- خصائص الأسلوب في الشوقيات ، الدكتور محمد الهادي الطرابلسي ، منشورات الجامعة التونسية ، ١٩٨١م .
- الخطاب الشعري عند محمود درويش (دراسة أسلوبية) محمد صلاح زكي ابو حميدة ، مطبعة المقداد ، غزة ، ط١ ، ٢٠٠٠م .

- دلائل الاعجاز ، عبد القاهر الجرجاني ، علّق عليه وشرحه ، محمود محمد شاكر ، مطبعة المدني، القاهرة، دار المدني ، جدة ، ط٣ ، ١٤١٣هـ- ١٩٢٢م .
- ديوان بدر شاكر السياب ، دار العودة ، بيروت – لبنان ، د. ط ، ٢٠١٢م .
- الشعر العربي المعاصر ، عز الدين اسماعيل ، دار الفكر العربي ، ١٩٧٨م .
- كتاب الصناعتين ، الكتابة والشعر ، لأبي هلال العسكري ، تحقيق علي محمد البجاوي ، مطبعة عيس البابي الحلبي وشركاؤه ، القاهرة ، د . ط ، ١٩٧١م .
- العروض وإيقاع الشعر العربي ، عبد الرحمن تبرماسين ، دار الفجر، القاهرة ، ط١ ، ٢٠٠٣م .
- علم المعاني ، عبد العزيز عتيق ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٧٤م .
- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، لأبي علي الحسن بن رشيق القيرواني (ت٤٦٣هـ) تحقيق الدكتور عبد الحميد الهنداوي ، المكتبة العصيري ، صيدا – بيروت ، د . ط ، ١٤٢٨هـ- ٢٠٠٧م .
- عناصر الموسيقى في ديوان (نقوش على جذع النخلة) الدكتور يحيى السماوي ، الدكتور يحيى معروف ، بهنام باقري ، مجلة الدراسات في اللغة العربية وآدابها ، العدد ٩، ٢٠١٢م .

- فاعلية التصوير في غريب على الخليج ، الدكتور إياد عبد الودود عثمان، مجلة الموقف الأدبي، العدد ٤٠٢، سنة ٢٠٠٤ م .
- القصة والرواية ، عزيزة مريدن ، دار الفكر ، دمشق ، ١٩٨٠م .
- القصيدة العربية المعاصرة ، كاميليا عبد الفتاح ، دار المطبوعات الجامعية الاسكندرية ، د . ط ، ٢٠٠٦م.
- قضايا في النقد والشعر ، يوسف بكار، دار الأندلس للطباعة والنشر، بيروت ، ١٩٨٤م .
- مدخل إلى تحليل النص الأدبي ، عبد القادر أبو شريعة ، حسين فرق ، ط٤ ، دار الفكر عمان د. ت .
- المزهر في علوم اللغة وأنواعها ، للسيوطي ، المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٨٧ م .
- معجم المصطلحات البلاغية وتطورها ، الدكتور احمد مطلوب ، مكتبة لبنان، ط ٢، ١٩٩٦م .
- مقدمة للشعر العربي ، اودنيس(علي احمد سعيد) دار العودة ، بيروت ، ط٣ ، ١٩٧٩م .
- لسان العرب لابن منظور ، محمد بن مكرم الافريقي المصري (ت ٧١١هـ) دار صادر ، بيروت ، د. ت ، د. ط .
- النقد الأدبي(أصوله ومناهجه) سيد قطب ، دار الشروق ، القاهرة ، ط٨ ، ٢٠٠٣ م .

تنظيمات الجيش في العصر المملوكي
٦٤٨ - ٩٢٣ هـ

الدكتور عمار مرضي علاوي
الجامعة العراقية / كلية الآداب / قسم التاريخ

الملخص :

تناول البحث الجانب التنظيمي في المؤسسة العسكرية ، بداية من الاقطاع العسكري وأهميته وعناصر الجيش ورتبه على وفق رؤية المماليك العسكرية ، وبيان الفئات والعناصر الاجتماعية المشاركة في ذلك الجيش . فضلا عن أهم الاسلحة المملوكة المستخدمة في معاركهم . ثم بيان القدرات التنظيمية والتعبوية ، بمعنى الخطط المتبعة في معاركهم وكيفغية تنظيم قواتهم العسكرية ، وعملية تدريب الجيش في مرحلة اعداد طويلة وشاقة .

أخيرا استراتيجية المعارك وأهميتها عند الممالك ضد الصليبيين والمغول وما قدموه للعالم الاسلامي بذلك من قتال بالنيابة عنهم .

المقدمـــة :

تعد التنظيمات العسكرية من المواضيع المهمة في تاريخ الدول ، لما يعكسه من اهتمامات الدولة ومواكبتها للتطورات على الساحة ، فضلا عن قياس مدى نظرتها للجيش وأهميته في مكانة الدولة ورقيها بل حتى علاقتها مع جوارها . فكلما كانت الدولة ذات مؤسسة عسكرية قوية كلما كانت مهابة ويحسب لها حساب من قبل جوارها حتى البعيدين عنها .

وعلى هذا الاساس قامت الدولة المملوكية على أعقاب دولة الايوبيين ، فكانت دولتهم عسكرية بحتة نتيجة نشأتهم ، وكان لهم جهد عسكري مميز في تلك الدولة ، أظهروا فيه جل قوتهم ومهارتهم حتى تمكنوا من إقامة دولتهم بقوتهم وكفاءتهم العسكرية .

لذلك تعد الدولة المملوكية ذات توجهات عسكرية بحتة ، كيف لا وهي عسكرية المنشأ والطبع ، ويكاد لايفارقها ذلك النظام معظم أوقاتهم ، وما تلك الانتصارات في معاركهم إلا دليل على ذلك التوجه .

تهدف هذه الدراسة الى إبراز الجانب التنظيمي في تلك المؤسسة العسكرية ، بداية من الاقطاع العسكري وأهميته وعناصر الجيش ورتبه وفق رؤية المماليك العسكرية ، وبيان الفئات والعناصر الاجتماعية المشاركة في ذلك الجيش .

كذلك معرفة أهم الاسلحة المملوكية المستخدمة في معاركهم سواء مع الصليبيين أو المغول . ثم بيان القدرات التظيمية والتعبوية ، والمراد بها الخطط المتبعة في معاركهم وكيفية تنظيم قواتهم العسكرية ، وعملية تدريب الجيش في مرحلة اعداد طويلة وشاقة .

أخيرا استراتيجية المعارك وأهميتها عند المماليك ضد الصليبيين والمغول وما قدموه للعالم الاسلامي بذلك الشأن من قتال بالنيابة عنهم .

أولا . عناصر الجيش ورتبه :

لم تظهر عناصر الجيش المملوكي بصورته التنظيمية المعروفة إلا بعد الانتصار على الصليبيين في حملتهم السابعة سنة٦٤٧ هـ التي أظهرت كفاءة ومقدرة المماليك على القتال ، ثم تطور حتى تم تشكيله بصورة رسمية عند قيام الدولة المملوكية سنة ٦٤٨ هـ .

ويشرف على هذا الجيش ديوان خاص يسمى ديوان الجيش ووظيفته تدعى نظارة الجيش ، والقائم عليه يطلق عليه ناظر الجيش (١) ، والى جانبه عدد من الكتاب المساعدين له في الديوان يسمون كتاب الجيش (٢) . ولهذا الديوان قسمان يختصان بالأمور المالية ، الأول خاص بجيش مصر ، الثاني بجيش الشام ، ويشرف على كليهما موظف كبير يسمى (**مستوفي الجيش**) ويختص بمصادر الانفاق على الجيش المملوكي (٣) .

---

(١) القلقشندي ، أبو العباس أحمد بن علي (ت ٨٢١هـ) : صبح الأعشى في صناعة الانشا ، المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة والطباعة والنشر (القاهرة : د. ت) ، ج ٤ ، ص ٠١ .

(٢) المقريزي ، تقي الدين أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ) : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار المعروف بالخطط المقريزية ، مكتبة الثقافة الدينية (القاهرة : ١٢٩٤هـ) ، ج ٣ ، ٣٣٩ .

(٣) بيبرس المنصوري (ت ٧٢٥هـ) : زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ، تحقيق دونالد س . ريتشاردز ، المؤسسة الألمانية للبحث العلمي ، ط١ (بيروت : ١٩٩٨ م)، ص ٣-١ .

ولعل الأساس في عمل ديوان الجيش هو تسجيل أسماء الجنود وأعدادها ونفقاتها ، ويكون تقييدهم تحت أسماء أومرائهم أي القواد ، وبهذه الطريقة لايستطيع أي جندي الانتقال من قيده مع أمير آخر ، حتى أن الامير لايأكل إلا وجميع جنوده معه ، ويأخذ غلمان أجناده كل يوم الطعام من مطبخه[٤].

ومما تجدر الاشارة اليه أن أساس النفقة على هذا الديوان متأت من خلال الاقطاع حتى أن المقريزي [٥] ذكر ذلك بقوله ((**إن ديوان الاقطاع أصبح هو ديوان الجيش**)) .

وكان لتوزيع الاقطاعات على الجيش عند المماليك رسوم معينة[٦] ، فكأن السلطان يجلس لأيام محدودة في قاعة معينة تسمى (**الاصطبل**) ، ويكون الامراء عن يمينه وشماله على مقاعد من حرير ، ومعهم ناظر ديوان الجيش ليقرأ ما يتعلق بالإقطاعات على المسامع فيمضي عليها السلطان ويكون عادة باسم الامراء ، أما الاجناد فيكون الامراء هم الذين يقطعونهم[٧] .

وكان الاقطاع يكتب مختصرا أمام السلطان أو بخطه فيسمى (**قصة**)[٨] ، وأما اذا كان الاقطاع طابا من قبل الشخص فيسمى

---

(٤) المقريزي ، الخطط ، ج ١ ، ص ١٤١ .

(٥) المقريزي ، الخطط ، ج ٣ ، ص ٣٤٩ .

(٦) بيبرس ، زبدة الفكرة ، ص ٨٦ .

(٧) المقريزي ، الخطط ، ج ٣ ، ص ٣٥٠ .

(٨) القلقشندي ، صبح الاعشى ، ج ١٣ ، ص ١٥٣ .

(**مثـال**) ، ويرسـل الاقطـاع الـى ديـوان الجـيش لتقييـده وتقـديره وتسـمى (**مربعة أو مربعة شريفة**)[٩] . ثم يرسل الى ديوان الانشاء للتنفيذ ويسمى منشورا ، ويذكر فيـه عبـارة تقليديـة (**خرج الامـر الشـريف**) ويختم بعلامـة السلطان أو الطغري (**الله أملى**)[١٠] .

وقامت الدولـة المملوكيـة بتقدير قدر معين من المـال لكل من الامراء والجنود ، فبالنسبة للأمراء الكبار بين ٢٠٠ ألف دينار - ٨٠ ألف دينار ، والاقل منهم درجة كان ٣٠ - ٢٣ ألف ، ودون ذلك الى ٧ الاف ؛ وبالنسبة للأجناد فقدر اقطاع الجندي من ١٥٠٠ - ٢٥٠ دينار[١١] .

وجـاء نظـام الاقطـاع فـي ذلـك العصـر علـى أسـاس منحـه للأميـر أو الجنـدي ليسـتغله طـوال مـدة خدمتـه العسـكرية وينتهـي إمـا بـالعزل أو الوفاة [١٢] .

وعـادة تكـون عمليـة توزيـع الاقطاعـات بعـد انتهـاء المعـارك ولاسـيما المعارك الكبيرة التي ينتج عنها تحرير الاراضي ، فكانت تخرج المناشير التي

---

[٩] المصدر نفسه ، ج ١٣ ، ص ١٥٤ .

[١٠] القلقشندي ، صبح الاعشى ، ج ١٣ ، ص ١٦٢ ؛ ابن اياس ، محمد بن أحمد الحنفي (ت ٩٣٠هـ) : بدائع الزهور ، بدائع الزهور في وقائع الدهور ، تحقيق محمد مصطفى زيادة (القاهرة : ١٩٦٣م) ، ج ٢ ، ص ٣١٩ .

[١١] السيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن (ت ٩١١هـ) : حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط١ مطبعة عيسى البابي الحلبي (القاهرة : ١٩٦٧م) ، ج ٢ ، ص ٨٣ .

[١٢] المقريزي ، الخطط ، ج ٤ ، ص ١٥ .

تبين الاقطاعات الجديدة كما فعل السلطان قطز (٦٥٧ - ٦٥٨ هـ) بعد معركة عين جالوت سنة ٦٥٨ هـ [١٣] .

وكان الاقطاع يوزع حسب رتب الفارس ، فكان يعطى للفارس الكبير ما بين قرية الى عشر قرى ، والمملوك يحصل على قرية ونصف القرية ، والجندي يحصل على نصف القرية ، فضلا عن أن اقطاع الامير يشمل جنوده التابعين له ، فللأمير الثلث ولجنوده الثلثان ، وكان لكل أربعين جنديا مقدم ، ومن هذه الاقطاعات للمقدم العقارات والابنية الضخمة والانعام والخيول[١٤] .

وكان السلطان المملوكي يتبع أسلوب التدرج في توزيع الاقطاعات ، فيقطع للأمير نيابة صغيرة ثم أكبر وبحسب الاهمية ، ومما تجدر الاشارة اليه أن مصر كانت أهم من الشام عند المماليك ، فمصر كانت للسلطان والمقربين وكبار الامراء ، وأما الشام فهي أقل شأنا من مصر وهذا لايعني أن الشام برمتها ليست بعديمة الاهمية ، فهناك بعض المدن الشامية لها نفس الاهمية للمناطق المصرية بدليل أن دمشق تعد من أهم النيابات المملوكية ، لذلك كان يتم التدقيق فيمن يتولى نيابتها ويوضع بها حامية للأجناد[١٥] .

---

[١٣] بيبرس ، التحفة الملوكية في الدولة التركية ، نشر وتقديم الدكتور عبد الحميد صالح حمدان ، الناشر الدار المصرية اللبنانية ، ط١ (القاهرة : ١٩٨٧م) ، ص ٤٤ .

[١٤] المقريزي ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٢١٧ - ٢١٩ .

[١٥] البدري ، أبو البقاء عبد الله (ت في القرن التاسع الهجري) : نزهة الانام في محاسن الشام ، الناشر دار الرائد العربي ، ط ١ (بيروت : ١٩٨٠ م) ، ص ٢٧ .

وفي الجانب الاخر كان الاقطاع سببا في تدهور المؤسسة العسكرية المملوكية وإخفاقها وذلك لتدخل السلاطين والامراء المتنفذين على معظم دخل الاقطاعات ، فيذكر أن اقطاع السلطان وحده وصل الى نصف خراج مصر[16] .

ولعل النسمار الذي اخترق تلك المؤسسة وانهيار ذلك الاقطاع هو تصرف السلطان بحرية في الاقطاع ، فاصبح ضمن عطاياه لمن يرضى عنهم ، ووصل الامر ببعض السلاطين ينعمون بالإقطاعات على كل من يرضون عنهم من علماء وعوام الناس ، فاصبح بذلك للناس اقطاعات كثيرة [17] .

والجيش المملوكي يتكون من قادة وجنود ، فقائد الجيش يسمى (**أتابك العسكر**)[18] وهو القائد العسكري للجيش كله . وفضلا عن أتابك العسكر كان هناك قواد يسمون الامراء ، وكانت الامرة في الجيش المملوكي لايحصل عليها الا عن طريق الترقية ، وعند توليته الامارة يتسلم التشريف من السلطان في القلعة ، ويحلف له يمينا بالولاء [19] .

---

(16) المقريزي ، الخطط ، ج ١ ، ص ٨٨ .

(17) اليوسفي ، موسى بن محمد بن يحيى (ت ٧٥٩ هـ) : نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر ، تحقيق الدكتور أحمد حطيط ، عالم الكتب ، ط ١ (بيروت : ١٩٨٦ م) ، ص ٢٠٧ .

(18) أتابك العسكر : يقصد به أبو الامراء وهو أكبر الامراء المتقدمين بعد النائب ، ينظر دهمان ، محمد أحمد : معجم الالفاظ التاريخية في العصر المملوكي ، دار الفكر ، ط١ (دمشق : ١٩٩٠ م) ، ص ١١ .

(19) المقريزي ، الخطط ، ج ٣ ، ص ٢١٩ .

وهؤلاء الامراء يتميزون بدرجاتهم بأعداد الجند الذين تحت امرتهم ، وبأعداد المماليك الذين يملكونهم ، حتى أن أعدادهم تختلف على حسب درجاتهم ومن سلطان لآخر ، وللسلطان الحق في تعيين أو حذف من يريد منهم ، ومن يعمل منهم في الجيش يسمى خرجية ، أما الذين يلازمون السلطان فيسمون خاصكية [٢٠] .

ومنهم الامراء المقدمون الذين تختص وظيفتهم بتقدمة الالوف ، وقد وصل عدد هؤلاء الامراء الكبار الى أربعة وعشرين ولهم رئيس يسمى رأس مقدمي الألوف [٢١] .

كذلك أمراء الطبلخاناه [٢٢] وسموا بذلك تشريفا لهم وكي يميزوا عن غيرهم من القواد ، وكانوا يحملون في أيديهم عصى من فضة ؛ وسموا بذلك على عدد المماليك الذين يملكونهم ، ومن الملاحظ أن عدد أمراء الطبلخانات

---

[٢٠] الخاصكية : نوع من المماليك السلطانية يختارهم السلطان من المماليك الاجلاب الذين دخلوا في خدمته صغارا ، وجعل هذا الاسم خاصا بهم لنهم يحضرون اليه في أوقات خلواته وينالون من ذلك ما لايناله أكابر المتقدمين ويتميزون عن غيرهم في الخدمة بحملهم سيوفهم ولباسهم المطرز ، دهمان ، معجم الالفاظ التاريخية ، ص٦٦ .

[٢١] المقريزي ، الخطط ، ج٣ ، ص٣٥٠ ؛ القلقشندي ، صبح الاعشى ، ج٤ ، ص ١٤ .

[٢٢] أمراء الطبلخانات : هم الامراء الذين يصح أن تضرب الطبول على أبوابهم ويكون في خدمة الامير منهم ٤٠ – ٧٠ مملوكا ويلي مقدم الالف في الرتبة ، دهمان : معجم الالفاظ التاريخية ، ص ٢٢ .

في الجيش والوظائف الاخرى أكثر من غيرهم من أمراء الالوف ، فهم يقدرون بثلاثين أو أربعين أميرا [٢٣] .

وهناك أمراء العشرات [٢٤] الذين معظمهم من أبناء الامراء المقدمين تقديرا لخدمات آبائهم [٢٥] ووصل عددهم في الجيش المملوكي الى عشرين أميرا من أمراء العشرينات [٢٦] .

وفضلا عن هؤلاء الامراء هناك الاجناد أو ما يسمى العسكر أو العساكر ، وهم على نوعين ، عساكر نظامية ، وغير نظامية .

فمن النظامية أجناد المماليك وهم على أنواع منهم مماليك الطباق [٢٧] ، والمماليك القرانصة [٢٨] . وهؤلاء الاجناد يسجلون في الديوان ويوزع عليهم الاقطاع ، وجاء وصفهم على لسان القلقشندي [٢٩] بقوله ((**وهم أعظم**

---

[٢٣] بيبرس ، زبدة الفكرة ، ص ٢٨ .

[٢٤] أمراء العشرات : عبارة عن رتبة عسكرية في الجيش المملوكي ونصيب كل أمير منهم في الحرب أمرة عشر فرسان ، ومن هذه الطبقة يعين صغار الولاة ، دهمان ، معجم الالفاظ التاريخية ، ص ٢٢ .

[٢٥] المقريزي ، السلوك في معرفة دول الملوك ، تحقيق محمد مصطفى زيادة ، مطبعة لجنة التأليف والنشر (القاهرة : ١٩١٤م) ، ج ٢ ، ص ٣١٤ .

[٢٦] بيبرس ، زبدة ، ص ١١٣ .

[٢٧] مماليك الطباق : نسبة الى ثكنات جيوش المماليك بالقلعة ، وكانت كل طبقة تضم المماليك المجلوبين من بلد واحد ، دهمان ، معجم الالفاظ التاريخية ، ص ١٠٥ .

[٢٨] القرانصة : يقصد بهم المماليك القدامى ، المرجع نفسه ، ص ١٢٢ .

[٢٩] صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ١٥ .

الاجناد شأنا وأرفعهم قدرا ، وأشدهم قربا وأوفرهم اقطاعا ، ومنهم تؤمر الامراء رتبة بعد رتبة)) .

أما العساكر غير النظامية في الجيش المملوكي فهي متكونة من العربان وعامة المصريين ، فالعربان الذين يؤلفون طلائع الجيش النظامي كانوا مشاة وفرسانا ، وهؤلاء يقومون بإنهاك العدو قبل الجيش النظامي ، وهم أعداد كبيرة في الجيش لكثرة العربان الذين سكنوا مصر والشام ، وكانوا أحيانا يسجلون في الديوان وتقطع لهم أراض في مصر والشام [٣٠] . أما عامة المصريين فقد ذكروا صراحة في قتالهم الصليبيين والمغول وطردهم ، وهؤلاء يأتون من مختلف أقاليم مصر وتؤخذ لهم ضريبة خاصة ، وحين يرغبهم السلطان بالجهاد فأنه يوزع عليهم الغنائم[٣١] .

وقبل الخوض في تفاصيل عناصر الجيش المملوكي ، لابد من الحديث عن الفئات والجنسيات التي شاركت في الجيش المملوكي .

- **الاتراك** : وهي تسمية خاصة لدولة المماليك البحرية وهو اسم جنس للماليك الذين جاءوا من القبجاق[٣٢] من شمالي آسيا في حوض نهر الفولغا شمالي البحر الاسود وفي القوقاز ، إذ تعيش قبائل متنوعة من الاتراك

---

[٣٠] القلقشندي ، صبح الاعشى ، ص ١٠٥ .

[٣١] ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ١ ، ص ١١٠ .

[٣٢] القفجاق : أو القبجاق هم فرع من المغول يقطنون في المناطق الواقعة بالقرب من بحر قزوين في حوض نهر الفولغا ، وعرفت دولتهم باسم القفجاق أو القبيلة الذهبية نسبة إلى اللون الذهبي الذي اشتهرت به مخيماتها ، شبارو ، عصام : تاريخ المشرق العربي الإسلامي ، دار الفكر اللبناني (بيروت : ١٩٩٩م) ، ص٢١٢ .

والروس والمجر[٣٣] . بمعنى أن هؤلاء الاتراك هم عماد دولة المماليك البحرية ، ومعظم السلاطين منهم .

- **الوافدية** : يطلق عليهم اسم المستأمنين أو المستأمنة وهي طوائف تترية قامت بالهجرة من تلك المناطق نتيجة المعارك والصراعات التي جرت على يد (باتوخان) حفيد جنكيز خان ، فاضطروا للهجرة الى مصر وبلاد الشام ، والتحقوا بالجيش المملوكي وهم أحرار ، وكانت ترقيتهم في الجيش شديدة نوعا ما ولم يصلوا الى ما وصل إليه نظراؤهم من المماليك السلطانية [٣٤] .

ولعل السبب الوحيد في عدم ترقيتهم لتلك المناصب هو بسبب أنهم جنسيات دخيلة على المماليك ، فتم تفضيل بني جنسهم على غيرهم ؛ ولكثرة هؤلاء الوافدين على مصر .

ومن ضمن فئات الوافدية الاخرى الخوارزميون الترك الذين وفدوا الى مصر ، وعملوا في الجيش المملوكي منذ فترة مبكرة من الدولة المملوكية ، ومنهم الامير بيدمر بن عبد الله الخوارزمي الذي كان من كبار الامراء ، وتولى نيابة حلب حتى وفاته سنة ٧٨٩ هـ[٣٥] . ومن العناصر الوافدية ،

---

[٣٣] المرجع نفسه ، ص ٢١٢ .

[٣٤] المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ص ٥١٢ .

[٣٥] ابن تغري بردي ، أبو المحاسن جمال الدين يوسف (ت٨٧٤ هـ) : المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي ، تحقيق أحمد يوسف نجاشي ، مطبعة دار الكتب المصرية (القاهرة : ١٩٥٦م) ، ج ٣ ، ص ٤٩٨ .

الاكراد الشهرزورية الذين سمح لهم الظاهر بيبرس بالدخول الى القاهرة وأقطعهم الاقطاعات[٣٦] .

ـ **الجراكسة** : هم عنصر قوقازي الجنس جيء بهم من بلاد القسم الشمالي الغربي من القوقاز ، أي بمعنى حوض نهر قوبان وقسما من الشاطئ الشرقي للبحر الاسود الى أطراف بلاد الانجاز ، ومن فروعهم السركس ، والأركس ، والكسا والآص[٣٧] .

ويعد السلطان المنصور قلاوون (٦٧٨ - ٦٨٩ هـ) أول من اشتراهم بكثرة وأسكنهم في أبراج القلعة وسموا بالبرجية لينافسوا قوة المماليك الاتراك ؛ وأصبح الجراكسة قوة لايستهان بها في الجيش المملوكي ولاسيما في عصر السلطان خليل قلاوون (٦٨٩ - ٦٩٣ هـ) الذي جعل منه فرق خاصة[٣٨] .

- **التركمان** : يرجع استخدام التركمان الى عصر صلاح الدين الايوبي في حروبه ، وفي العصر المملوكي استعان بهم السلطان الظاهر بيبرس في

---

[٣٦] ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، مطبعة دار الكتب المصرية ، ط١ (القاهرة : ١٩٣٢م) ، ج ٧ ، ص ١٠١ .

[٣٧] النويري ، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٣هـ) : نهاية الارب في فنون الأدب ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر (القاهرة : د. ت) ، ج ١ ، ص ٢٤٦ .

[٣٨] المقريزي ، الخطط ، ج ١ ، ص ٣ ، ص ٣٩١ . ، ص ٣٤٨ .

حروبه ضد الصليبيين ، وأنزلهم بالبلاد الساحلية لحمايتها بعد السيطرة على مدينة يافا سنة ٦٦٦ هـ [٣٩] .

– **العرب** : على الرغم من أن المماليك كانوا لايسمحون لأي شريحة أن تكون ضمن مؤسستهم العسكرية ، إلا أن ذلك يعني عدم اشتراك الفئات الاخرى في القتال الى جانبهم ضد أعداء الاسلام . ومن هذه الفئات المهمة القبائل العربية التي لم تكن مسجلة ضمن الجيش المملوكي إلا أنها شاركت بقوة في تلك المعارك ، ومن هذه القبائل آل فضل المنتشرون بين العراق والشام على جانبي الفرات ، الذين وقفوا مع قطز في معركة عين جالوت ضد المغول ، وقد أكرمهم قطز على وقفتهم[٤٠] . وشاركت القبائل العربية في الحملات الحربية ضد قبائل البجة جنوب مصر[٤١] ، وقام عرب بني كنانة بحماية الثغور أمثال دمياط والمنصورة [٤٢] .

– **عناصر الجيش المملوكي**

١ – **الجند السلطانية :**

وهم أعظم الاجناد شأنا وارفعهم قدرا ، وأطلق عليهم السلطانية لانهم خاصة السلطان ، وسموا بالجلبان أو الاجلاب ، وهو المسؤول المباشر

---

[٣٩] بيبرس ، زبدة الفكرة ، ص ١٦٣ .

[٤٠] أبو الفدا ، عماد الدين إسماعيل (ت ٧٣٢هـ) : المختصر في أخبار البشر ، المطبعة الحسينية ، ط١ (القاهرة : د. ت) ، ج ٣ ، ص ١١٤ .

[٤١] المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ص ٧٤٦ .

[٤٢] ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ١ ، ص ٦٩ .

عنهم ، على اعتبار أنه هو الذي يقوم بشرائهم وتربيتهم واقامتهم وتدريبهم ، حتى أنهم مقيمون في مكان السلطان في طباق القلعة ، ومن مهامهم الرئيسة حراسة السلطان والقلعة والمناوبة عليهما[٤٣] .

وهؤلاء عبارة عن خليط من قوميات مختلفة بحسب المكان الذي يؤتى بهم من قبل التجار ، ويتم استيعابهم على وفق نظام معين وتربية خاصة مبني على التدرج الى أن يصبحوا فرسانا أشداء كقوة خاصة للسلطان ، وجل هؤلاء هم من الاكراد والتركمان[٤٤]. وتطور الامر الى مجيء مماليك من قوميات مختلفة كالشراكسة والروس والروم ، وقد بلغ عدد المماليك السلطانية في عهد السلطان المنصور قلاوون ستة الاف وسبعمائة مملوك[٤٥] .

وكان لهم سجل خاص في ديوان الجند يسمى (**جريدة أرباب النفوذ**) تضم أسماءهم ومخصصاتهم من الرواتب[٤٦] . ولهؤلاء امتيازات خاصة في الاقطاعات ، فقد بلغ متوسط دخل نائب المقدم نحو (١٢٠٠) دينار في السنة[٤٧] .

---

[٤٣] الكاتب ، ناصر الدين شافع بن علي بن عباس بن إسماعيل (ت ٧٣٠هـ) : الفضل المأثور في سيرة السلطان الملك المنصور ، تحقيق الدكتور عمر عبد السلام تدمري ، المكتبة العصرية ، ط ١ (بيروت : ١٩٩٨ م) ، ص ١٢٨ .

[٤٤] بيبرس ، مختار الاخبار ، تاريخ الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية حتى سنة ٧٠٢هـ ، تحقيق الدكتور عبد الحميد صالح حمدان ، الناشر الدار المصرية اللبنانية ، ط١ (القاهرة : ١٩٩٣م) ، ص ٢٧ .

[٤٥] المقريزي ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٣٤٨ .

[٤٦] القلقشندي ، صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ١٥ .

[٤٧] النويري ، نهاية الارب ، ج ٨ ، ص ٢٠٤ .

٢ – أجناد الحلقة :

جاءت هذه التسمية في أطار العلاقة مجموعات متفرقة من الدولة المملوكية ، كما أن هناك علاقة بين المسمى والارض المقطعة لهم ، حتى انهم سموا بذلك بمعنى الجنود التابعين لحلقات الامراء الاقطاعيين (٤٨) .

تكونت هذه الفرقة في العصر المملوكي من محترفي الجندية من مماليك السلاطين السابقين وأولادهم ، وهذا يعني أنهم جيش الدولة الذي لايتغير ولا يتبدل ، وهو صمام الامان للنظام العسكري المملوكي ، ويشرف على كل ألف منهم أحد الامراء المئتين ، وكان لكل مائة منهم نقيب ويشترط فيه الالمام بمحل اقامتهم لجمعهم عند الطلب ، ويتم اختيار مقدمي الحلقة بدقة وعناية فائقة ويشترط فيهم القوة والاخلاق العالية (٤٩) .

وكانت مرتباتهم تصرف من ديوان الجيش(٥٠) ، وسمي قادة الحلقة بمقدمي الحلقة وتبوؤوا مراكز مهمة في الجيش المملوكي وكانت اسماؤهم تظهر جليا مع أسماء الامراء في الحفلات الرسمية (٥١) . ومقارنة مع بقية عناصر الجيش المملوكي نجد أن راتب مقدم جند الحلقة أقل بكثير من راتب

---

(٤٨) المقريزي ، الخطط ، ج ١ ، ص ٢٥٠ .

(٤٩) ابن تغري بردي ، حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور، تحقيق وليم بوير (كاليفورنيا : ١٩٣١م) ، ص ١٤٢ .

(٥٠) ابن الاثير ، عز الدين علي بن محمد (ت ٦٣٠هـ) : الكامل في التاريخ ، تحقيق الدكتور عمر عبد السلام تدمري ، الناشر دار الكتاب العربي ، ط٤ (بيروت : ٢٠٠٤م) ، ج ١١ ، ص ٣٤٩ .

(٥١) ابن تغري بردي ، المنهل الصافي ، ج ٢ ، ص ١٦ .

الامير الذي كان راتبه من السلطان (١٠٠٠٠) درهم تقريبا ، في حين أن راتب الحلقة (٥٠٠) درهم[٥٢].

ودخل ضمن أفراد جند الحلقة أولاد الناس وهم وحدة خاصة ينتمي اليها أولاد الأمراء والمماليك ، وهؤلاء الاولاد ولدوا وتربوا مسلمين ويحملون أسماء عربية ، وهم النخبة الممتازة لإفراد الحلقة ، وكانوا يلقبون بأولاد الناس[٥٣] . والمقصود بالناس هم الشعب أو الجمهور ودخلوا في الحلقة بأسلوب تدريجي مع التدريب ، وعندما يبلغ ابن الامير سنا معينة يزوده أبوه براتب ومؤن[٥٤] .

وهؤلاء يقسمون الى أقسام فمنهم من يقسمون الى ألف فيسمون بالفرسان[٥٥] ، ومنهم الى مائة عليهم باش أو باشن العسكر[٥٦] .

وبلغت هذه الطبقة من الجند اتصالها في عهد السلطان الناصر محمد قلاوون (٦٩٣ – ٦٩٤ هـ) فوصلت أعدادهم في مصر الى أربعة وعشرين ألفا في مصر ، وستة وعشرين ألفا في الشام[٥٧] .

---

[٥٢] ابن كثير ، عماد الدين إسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤هـ) : البداية والنهاية ، دار أبي حيان ، ط١ (القاهرة : ١٩٩٦م) ، ج ١٢ ، ص ٢٦٤ .

[٥٣] المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ص ٧٨٩ .

[٥٤] القلقشندي ، صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ٥١ .

[٥٥] المقريزي ، الخطط ، ج ١ ، ص ١٥٣ .

[٥٦] بيبرس ، زبدة الفكرة ، ص ١٠٦ .

[٥٧] المصدر نفسه ، ص ١١٦ .

٣ – أجناد الامراء :

يقصد بهم سماليك الامراء ، وهؤلاء مسجلون في ديوان الجيش وموزعون على جميع أنحاء الدولة المملوكية ، وهم من جنسيات مختلفة ففيهم العرب والتركمان والجركس والروم والاكراد ،وغالبيتهم من المماليك المبتاعين وهم طبقات أكابرهم من له مائة فارس وتقدمة ألف فارس[٥٨] .

وهؤلاء يتلقون أوامرهم من أمرائهم وليس من السلطان ومسجلون في الديوان تحت اسم أميرهم ، ولا يستطيع الجندي تغيير تبعيته الا بأمر سلطاني ، وهم أكثر عددا من الجند السلطانية والحلقة فقد بلغ عدد الجند الكلي في عهد السلطان الناصر قلاوون أربعة وعشرين ألفا وكان أكثرهم جند الامراء فقد بلغوا قرابة نصف العدد وحدهم[٥٩] .

وأمراء الاجناد كانوا بالأصل مماليك صغارا ثم أنعم عليهم السلطان لكفاءتهم القتالية وأعطاهم صلاحيات وإمرة وتشريفة خاصة ، والرتبة التي يحصل عليها الامير تجعله سلطانا مصغرا له اسطبل ومخازن ومجموعة من المباني فضلا عن اقتنائه عدد من المماليك يسمون بأجناد الامراء[٦٠] .

– الاسلحة المملوكية وأنواعها

عرف الجيش المملوكي بكثرة أسلحته وتطورها التي كانت سائدة في ذلك العصر ، فقد كان السلطان المملوكي يتابع بنفسه صناعة الاسلحة ،

---

[٥٨] المقريزي ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٢١٥ .

[٥٩] المقريزي ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٢١٧ .

[٦٠] القلقشندي ، صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ٥٤ .

ومن ضمن اهتمامات الدولة تسخير نفقاتها على السلاح حتى في أوقات السلم[٦١] . فكان السلاح يصنع في أماكن خاصة ويحمل لتخزينه في القلعة بالقاهرة ، وتسمى تلك الاماكن التي يوضع فيها السلاح بخزائن السلاح أو السلاح خاناه أو حواصل الذخيرة[٦٢] .

ويشرف على هذه المهمة أمير من كبير اسمه أمير السلاح أو السلاح دار[٦٣] ، وهو يلي أتابك العسكر في المرتبة أحيانا ، الامر الذي يدلل على مكانته حتى أن السلطان كان يلقبه بالأخ[٦٤] .

ولهذا الامير عدد من الموظفين يعملون تحت إمرته منهم ناظر خزانة السلاح والمباشرون[٦٥] وشاد[٦٦] ، ويقوم صناع كل صنف من الاسلحة العمل باستمرار في انتاجه وإصلاحه[٦٧] .

ومن تقاليد صنع السلاح في ذلك العصر الذي يحمله العتالونعلى رؤوسهم ، أن يعمل له حفل ويزف الى القلعة في يوم مشهود[٦٨] .

---

[٦١] المقريزي ، السلوك ، ج ٢ ، ص ١٨ .

[٦٢] ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ٣ ، ص ١٦ .

[٦٣] القلقشندي ، صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ١٨ .

[٦٤] ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٨٤ .

[٦٥] المباشرون : موظف إداري مهمته مناداة صاحبي العلاقة للوقوف أمام القاضي . دهمان ، معجم الالفاظ ، ص ١٣٤ .

[٦٦] شاد : وظيفة إدارية تعني المفتش . المرجع نفسه ، ص ٩٥ .

[٦٧] بيبرس ، زبدة الفكرة ، ص ١٢٢ .

[٦٨] النويري ، نهاية الارب ، ج ٨ ، ص ٣٢٧ .

ومن أبرز أسلحة المماليك النمشاة وتعرف بالنمجاة وهو عبارة عن خنجر مقوس[٦٩] ، والطبر وهي ما تعرف بالفؤوس ، والسيوف بأنواعها الطويل والقصير والعريض والدقيق[٧٠] .

وكذلك الدبوس وهو عبارة عن عمود له رأس مضرسة ، والنشاب وهي سهام خشبية صغيرة ذات نصول مثلثة الاركان [٧١] . والتركاش وهي عبارة عن جعبة توضع فيها النشاب ، والخناجر والرماح والسكاكين فضلا عن أنواع الاقواس المختلفة التي تتألف من عمود وقضيب ومفتاح ، والسهم يوضع في القضيب ؛ ومنها قوس اليد التي تشد باليد فتخرج منها سهام تشبه الجراد دفعة واحدة في جهات متعددة ، وقوس الرجل التي تشد بدفعها من الرجلين ، وقوس اللولب التي تشد بواسطة لولب ، وقوس الركاب التي تشد من ركاب الخيل[٧٢].

كذلك عرف المماليك أسلحة الحصار الثقيلة كالمنجنيق وهي عبارة عن الات من الخشب لها دفتان قائمتان ، بينهما سهم طويل رأسه ثقيل وذنبه خفيف ، وفيه تجعل كفة المنجنيق التي يجعل فيها الحجر يجذب حتى ترفع أسافله على أعاليه ثم يرسل فيرتفع ذنبه الذي فيه الكفة فيخرج الحجر منه وما أصاب شيئا الا هلكه[٧٣] .

---

(٦٩) ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ١ ، ص ٢٧٣ .

(٧٠) القلقشندي ، صبح الاعشى ، ج ٢ ، ص ١٣٢ ، ص ١٣٥ .

(٧١) ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ٣ ، ص ٢٠ .

(٧٢) ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ٣ ، ص ٢٠ ؛ المقريزي ، الخطط ، ج ٢ ، ٢٦٨ .

(٧٣) القلقشندي ، صبح الاعشى ، ج ٢ ، ص ١٥٢ .

وتعدى الامر الى القذف فضلا عن الحجر واللهب بالزرنيخ والافيونو لعل المراد منها خنق العدو[٧٤] . حتى أن أحد المنجنيقات كان قد حمل على مائة عجلة وكان يسمى بالمنصوري[٧٥] .

كذلك كانت المجانيق تجرها الابقار بعد فصل أجزائها عن بعض ثم تركب عند الحصار[٧٦] . ومما يلاحظ في استخدام المنجنيق أن المماليك اعتمدوا عليه بشكل رئيس في حروبهم ولاسيما ضد الصليبيين ، وذلك لن معظم المدن المحتلة من قبل الصليبيين كانت محصنة مما يعطي للمنجنيق قوة ضاربة في دك معاقلهم[٧٧] .

فضلا عن تطور صناعة الدبابات في عصرهم فأصبحت أشيه بالبروج المتحركة ، تتكون من عدة طبقات تسير على عجلات بقصد تسلق الحصون ونقب الاسوار[٧٨] . وعرف الجيش المملوكي الخوذ للاتقاء من ضربات العدو ، فكانت منها البيض وهي التي على شكل البيضة وعادة ما تصنع من الجلد أو الحديد[٧٩] ، كذلك تم استخدام الترس أو ما يعرف بالدرقة لاتقاء

---

[٧٤] ماجد ، عبد المنعم (دكتور) : نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر ، مكتبة الانجلو المصرية ، ط ٢ (القاهرة : ١٩٧٩ م) ، ص ١٦٩ .

[٧٥] أبو الفدا ، المختصر في أخبار البشر ، ج ٤ ، ص ٢٥ .

[٧٦] ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٢٥٦ .

[٧٧] المقريزي ، السلوك ،ج ٢ ، ص ٢٠ .

[٧٨] حسن ، علي إبراهيم (دكتور) : المماليك البحرية ، مكتبة النهضة المصرية ، ط٤ (القاهرة : ١٩٦٧م) ، ص ٣١٠ .

[٧٩] ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٢٥٦ .

قذائف العدو ويكون من جلد البقر[٨٠] . أما على أجسادهم فكانوا يلبسون الدروع التي تسمى بالفارسية الزرديات ولها أسماء متعددة منها زرديات مسبلة تغطي الجسم كله[٨١] ، وقرقلات أو كزاغندياتوتعرف أيضا بكايز وهي أسماء دروع تكون عادة مبطنة[٨٢] ، كذلك الجوشن الذي هو عبارة عن صدر بغير ظهر[٨٣] ، ويضعون المغفر الذي هو خوذة مسدولة على قفا العسكري وأذنيه للوقاية من الضربات[٨٤] .

كذلك استخدموا المثلثات وهي قطع حديدية دفاعية تلقى في طريق الاعداء وتكون بمثابة الالغام ، وهي مختلفة الصنوف والضروب ومن خلالها يأمن العسكر اذا تأخر العون والمدد ، فضلا عن سرعتها في النكاية بالأعداء حتى أنها تسقط الخيول بمن عليها ، وتلقى على الارض التي يسبر عليها الاعداء فتدخل في قدم الفرس فينقلب وراكبه الذي سيقع على أحد المثلثات الملقى على الارض[٨٥] .

---

[٨٠] القلقشندي ، صبح الاعشى ، ج ٢ ، ص ١٣٦ .

[٨١] المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ص ٦٠٨ .

[٨٢] المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ص ٢٥٣ ؛ ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ٣ ، ص١٦ .

[٨٣] ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ٣ ، ص ١٦ .

[٨٤] القلقشندي ، صبح الاعشى ، ج ٢ ، ص ١٣٥ .

[٨٥] الطرسوسي ، مرضي بن علي بن مرضي (ت ٥٨٩ هـ) : تبصرة أرباب الالباب في كيفية النجاة في الحروب من الاسواء ونشر أعلام الاعلام في العدد والآلات المعينة على لقاء الاعداء ، تحقيق كلود كاهين (بيروت : ١٩٤٨ م) ، ص ٢٠ .

ومن بين الاسلحة التي استخدمها الجيش المملوكي النفط لتوفره في مصر فكان منه الاسود الذي يوجد على ساحل البحر الاحمر وكان يجمع في خزائن السلاح السلطانية [٨٦] .

وكان هذا السلاح المؤثر (النفط) له فرقة خاصة تتولى استخدامه تعرف بالزراقين نسبة الى قذف النفط بالمزارق الذي هو الرمح ، وكانوا يلقونه بالنشاب والاقواس والمجانيق [٨٧] . وبرع المماليك في استخدام النفط حتى أنهم كانوا يلقونه مشتعلا في كل وقت ، وتعدى الامر حتى في سقوط المطر واشتداد الريح [٨٨] .

ولعل السلاح الفتاك الذي اشتهر به المماليك وأحدث طفرة نوعية في مجال الصناعة العسكرية ، هو البارود بظهوره أول مرة على أيديهم ، بدليل أن مادته الاساسية (**النطرون**) موجودة في مصر[٨٩] .

وترتب على اختراع البارود ظهور المدفع أو المكحل وهي كلمات مترادفة ، فقيل المكاحل بالمدافع وهي أنواع صغيرة وكبيرة [٩٠] .

---

[٨٦] القلقشندي ، صبح الاعشى ، ج ٣ ، ص ٢٨٨ .

[٨٧] المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ص ٨٧٧ .

[٨٨] ماجد ، نظم المماليك ، ص ١٧١ .

[٨٩] القلقشندي ، صبح الاعشى ، ج ٣ ، ص ٤٦٠ .

[٩٠] ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ١ ، ص ٩٦ ؛ ج ٣ ، ص ١٢٤ .

ويوصف المدفع بأنه الة من نحاس ورصاص وقد تكون من حديد يوضع فيها الحجر أو البندق وهو من الحديد ، ينبعث من خزانة أمام النار الموقد في البارود[91] .

وفيما يخص السنة التي استخدم فيها المدفع فعلى الارجح أنه كان ما بين السنوات **٧٦٠ هـ** أو **٧٥٣ هـ** أو **٧٤٣ هـ**[92] .

كذلك تم ذكر اسم البندقية على ألسن المؤرخين في ذلك العصر التي كانت تسمى آنذاك قوس البندق أو الجلاهقأو الزبطانة ، اذ كانت تطلق الرصاص[93] ، بدليل أنه كان لها سوق خاص في مصر يسمى بسوق البندقانيين وحدث فيه حريق سنة **٧٥١ هـ**[94] .

---

(٩١) ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨ هـ) : تاريخ ابن خلدون ، المسمى العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ، ضبط المتن الأستاذ خليل شحاذة ، مراجعة الدكتور سهيل زكار ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، ط٢ (بيروت : ١٩٨٨م) ، ج ٤ ، ص ٦٩ .

(٩٢) العمري ، شهاب الدين أبي العباس احمد بن يحيى (ت ٧٤٩هـ) : التعريف المصطلح الشريف ، تحقيق محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية (بيروت : ١٩٨٨م) ، ص ٢٠٨ .

(٩٣) القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج ٢ ، ص ١٣٨ .

(٩٤) المقريزي ، الخطط ، ج ٣ ، ص ١٦٩ .

- القدرات التنظيمية والتعبوية والقتالية :

- الخطط العسكرية والاساليب القتالية والتعبوية :

يعد الجيش المملوكي امتدادا للجيوش الاسلامية السابقة له من حيث تكوينه وبناؤه وتكوين خططه ، بمعنى أنه لم يكن بدعا من النظم العسكرية ، وكان السلطان المملوكي يضع الخطط العسكرية عن طريق مجلس الشورى الذي ينعقد كلما اقتضت الحاجة ، وترسم تلك الخطة قبل مغادرة الجيش وهذا ما فعله السلطان قطز في معركة عين جالوت عندما جمع المراء المماليك واستشارهم في أن يتقدم جيشه لملاقاة المغول أم يقاتلهم في مصر عند عودتهم ، وأجمعوا على ملاقاة المغول ، وانطلق قطز من تلك المشورة بإعدام رسل المغول ، وأرسل الفرق الاستطلاعية بقيادة بيبرس ليجمع له أخبار المغول[٩٥] . كذلك عمل السلطان الظاهر بيبرس (٦٥٨ . ٦٧٦ هـ) تلك الخطط ، وتوسعت في عصر السلطان المنصور قلاوون فعندما أراد أن يقاتل المغول في أحد المعارك قرر مجلس الشورى أن يقاتلهم بالقرب من دمشق لاحتمال عدم النصر ، وأعطى كل أمير رأيه في القتال فمنهم من اقترح تقسيم الجيش لقسمين في حال انتكاس قسم من هذين القسمين ، ومنهم من خالف ذلك الرأي[٩٦] .

ويمكن القول أن الخطط العسكرية للجيش المملوكي كانت ترتكز على عدة أمور منها ، التعرف على أخبار العدو قبل البدء بالقتال وذلك من خلال

---

[٩٥] ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٠١ .

[٩٦] الكاتب ، الفضل المأثور ، ٦٧ .

الفرق الاستطلاعية ، وتطبيق مبدأ الخديعة في القتال ، فضلا عن الاستعدادات المتعلقة بالجيش وتقسيماته[٩٧] . وبنى المماليك خطتهم على استدراج العدو للمكان والزمان المناسب ، وهذا ما طبقه قطز عندما كلف بيبرس بتقدم العسكر ليتعرف على أخبار العدو[٩٨] ، فكان يستدرج المغول ويناوشهم الى أن أوصلهم للمكان الذي أراده السلطان وكان النصر حليفا للماليك[٩٩] . كذلك قام بإظهار قوة وهيبة الجيش المملوكي أمام الاصدقاء والاعداء سواء في أوقات السلم والحرب من خلال لبس أفخر الملابس والاسلحة ، فضلا عن العرض العسكري الذي يقوم به الجيش عند مجي الضيوف[١٠٠] .

وكانت تجمعات الجيش المملوكي تكون في حلقة أو في صف أو صفين أو في مستطيل أو في مربع وغير ذلك ويترك ذلك لقائد الصف [١٠١]. وهناك خطة اشتهرت في زحف المماليك عرفت بالمصاف أو الصفوف ، وعبر عنها ابن خلدون [١٠٢] بقوله ((**وبلغنا أن أمم الترك لهذا العهد كان**

---

[٩٧] شلبي ، أحمد : الجهاد والنظم العسكرية في التفكير الاسلامي ، مكتبة النهضة ، ط ٢ (مصر : ١٩٧٤ م) ، ص ٨٨ .

[٩٨] المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ص ٤٣ .

[٩٩] اليونيني ، أبو الفتح قطب الدين موسى بن محمد (ت ٧٢٦هـ) : ذيل مرآة الزمان ، دائرة المعارف العثمانية ، حيدر آباد ، ط ١ (الدكن : ١٩٥٤م) ، ج١ ، ص٣٦٦ .

[١٠٠] ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٨ ، ص ١٣٥ .

[١٠١] المقريزي ، الخطط ، ج ٣ ، ص ٢٢٤ .

[١٠٢] ابن خلدون ، المقدمة ، دار صادر ، ط٢ (بيروت : ٢٠٠٩ م) ، ص ٢١٧ .

قتالهم مناضلة بالسهام ، وأن تعبئة الحرب عندهم بالمصاف ويقصد بها الصفوف ، وإنهم يقسمون ثلاثة صفوف ، يضربون صفا وراء صف ويترجلون من خيولهم ، ويفرغون سهامهم بين أيديهم ، ثم يناضلون جلوسا ، وكل رد للذي أمامه ان يكسبوا العدو الى أن يتهيأ النصر لإحدى الطائفتين على الاخرى ، وهي تعبئة محكمة غريبة)) .

والمقصود بالمصاف هو تشكيل القتال قبل المعركة يدخل بها القائد للمعركة ، وهو عبارة عن تنظيم وترتيب الجنود للسير في الصفوف القتالية ، ويتكون تشكيل المعركة من ثلاثة مصاف أو أنساق حتى اذا وصل الى أماكن تمركز العدو وكان في مرمى السهام ترجلوا لسببين ، الاول ليكون مختف ومستور من سهام العدو ، والثاني حتى يتمكنوا من رمي سهامهم بدقة وتلافي الاهتزازات التي يمكن أن تحدث ، وبالتالي ضمان وقوع أكبر خسائر ممكنة في قوات العدو قبل الاقتحام(١٠٣) .

وتكون موزعة بين قلب وميمنة وميسرة ، ويكون السلطان في القلب(١٠٤)، وتوضع حوله المصاحف وكان كل أمير يرتب عسكره على حسب الخطة العامة (١٠٥) . وعمل المماليك في كل المعارك التي خاضوها ضد أعداءهم وهم صفوف ، وتوعد السلطان لكل من يخرج عن الصف بأقصى العقاب ، ففي سنة ٧٠٢ هـ من حكم السلطان الناصر محمد قلاوون للمرة الثانية

---

(١٠٣) فهيم ، محمود نديم أحمد : الفن الحربي للجيش المصري في العصر المملوكي البحري ، الهيئة المصرية العامة للكتاب (القاهرة : ١٩٨٣ م) ، ص ١٥١ .

(١٠٤) النويري ، نهاية الارب ، ج ٣٠ ، ص ٨ .

(١٠٥) ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ٣ ، ص ٤٦ .

عندما خرج لقتال المغول أمر ((**من خرج من الاجناد عن المصاف فاقتلوه ولكم سلاحه وفرسه**))[١٠٦] ، بل إن الامراء والاكابر بقوا طوال الليل دائرين على الاجناد يرصونهم ويرتبونهم ، ويكثرون عليهم من التأكد في التيقظ وأخذ الحيطة والحذر ، فلما طلع الفجر اجتمع شمل العساكر ووقف كل واحد في مصافه[١٠٧].

وعرف الجيش المملوكي نظام الكراديس وهي ذات فائدة كبيرة مع قلة أعدادهم ، بحيث اذا انسحب أو هزم كردوس يبقى كردوس اخر يقاتل وبذلك يخفف عب القيادة ، لان كل كردوس له قائده الخاص ، ولعل السبب في اختيار نظام الكراديس هو لكثرة جنود الدول فخشي أن يضرب بعضهم رقاب بعض ،فجعلوا كل كردوس له قائد وراية [١٠٨] . وهذا ما تحقق فعلا في معركة حمص[١٠٩] عندما طبقوا نظام الكراديس رغم كثرة أعداد الجيش المغولي[١١٠] .

---

[١٠٦] المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ص٩٣٣ .

[١٠٧] المصدر نفسه ، ج ١ ، ص٩٣٣ .

[١٠٨] ابن خلدون ، المقدمة ، ص٢٧٢ .

[١٠٩] معركة حمص : وقعت سنة ٦٨٠هـ بين المماليك والمغول ، وسيأتي الحديث عنها في موضعها .

[١١٠] اليافعي ، عبد الله بن أسعد بن سليمان (ت ٧٦٨ هـ) : مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة مايعتبر من حوادث الزمان ، مؤسسة الاعلمي للمطبوعات (بيروت : ١٩٧٠ م) ، ج ٤ ، ص ١٩١ .

وكان ترتيب الجيش المملوكي مقسما الى قسمين ، الاول هناك قسم ثابت يشمل توزيع الجيش الى قلب وميمنة وميسرة ، أما القسم الاخر فهي الاجنحة والطلائع والكمائن[١١١] ، وقسم الجيش في معظم معاركه الى ثلاث فرق ، وهناك فرق خاصة لتنفيذ مهمات خاصة كتسلق الجبال وفتح الحصون واختراق صفوف العدو[١١٢] . وهناك وحدات خاصة تعمل تنكرات في استخدام عملياتهم العسكرية ، من ذلك ما فعلته أحد الفرق من التنكر بزي فرسان الاستبارية والداوية الصليبية الامر الذي أدى هزيمة الصليبيين في عكا واجبارهم على القبول بعقد المعاهدات والاتفاقيات المذلة[١١٣] .

وعلاوة على ما تقدم نجد أن الجيش المملوكي قد عرف نظام الاطلاب وهو قائم على أساس تقسيم الجيش الى كتائب ، يكون على رأس كل كتيبة أمير مقدم ، والكتيبة الواحدة مكونة من سبعين الى مائتي فارس[١١٤] . والاطلاب بلغة الترك يعني الامير أو المقدم وله علم معقود وبوق مضروب[١١٥] . ومن خلال تتبع سير المعارك التي خاضها الجيش المملوكي

---

[١١١] الكاتب ، التبصرة ، ص ٢٤ .

[١١٢] بيبرس ، التحفة الملوكية ، ص ٦١ .

[١١٣] قاسم ، قاسم عبدة (دكتور) وعلي ، السيد علي (دكتور) : الايوبيون والمماليك ، عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية ، ط ١ (القاهرة : ١٩٩٥ م) ، ص١٦١ .

[١١٤] المقريزي ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٢١٣ .

[١١٥] المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٨٥ .

نجد أنه لم يدخل بكل أطلابه في المعركة ، وإنما يكون حسب الحاجة [116]. وهذا من باب الحفاظ على القدرة الوقائية للجيش ، فضلا عن أنه صمام أمان ضد أي محاولة انقلاب داخل الجيش المملوكي ، لذلك نجد أن قائد الجيش يطلب الاطلاب أذا لزم الامر[117] .

ويعتمد الجيش المملوكي على صنفين أساسيين في القتال فضلا عن ما سبق من أصناف ، وهما : الفرسان (الخيالة) : يد عصب الجيش المملوكي ، وتكون مهمته الاساسية القتال والاستطلاع والاستكشاف ، ويمتاز بسرعة الحركة ولا يشترط فيها أن تقابل العدو وجها لوجه لأنها فرقة خاصة لها مهماتها ؛ والصنف الثاني الرجالة (المشاة) وهم القسم الاكبر من الجيش المملوكي ويقومون بأعباء القتال وتحمل أعباءه [118] .

واعتمد الجيش المملوكي على فرق خاصة من الماهرين في القتال ففي سنة ٦٧٠ هـ أرسل بيبرس فرقة من فرسان الجيش مكونة من ثلاثة الاف فارس الى دمشق لقتال المغول ، وبعد مدة اثني عشرة يوما وصلوا اليها قاموا بقتالهم وقضوا عليهم[119] . واعتمد التنظيم العسكري المملوكي على أن يجعل المشاة أمام الفرسان الخيالة لوقايتهم من ضربات العدو ، وينصب أمام

---

[116] ابن أجا ، محمد بن محمود الحلبي (ت ٨٨١ هـ) : العراك بين المماليك والعثمانيين الاتراك (مع رحلة الامير يشبك بن مهدي الدوادار) ، صنعة محمد أحمد دهمان ، دار الفكر ، ط ١ (دمشق : ١٩٨٦ م) ، ص ٩١ .

[117] المصدر نفسه ، ص ٩٣ .

[118] فهيم ، الفن الحربي ، ص ١٥١ .

[119] بيبرس ، التحفة الملوكية ، ٧٣ .

كل راجل ستارة تكف عنه شر من يرميه برمح أو سهم ، ويعطى هذا الراجل نبالة ليرمي بها حين تحين له الفرصة[١٢٠] . وعرف الجيش المملوكي النفير العام في المعارك الكبيرة لاسيما مع المغول ، فكانت الاوامر المملوكية تصدر باستدعاء جميع العساكر ومن مختلف مناطق الدولة وكل من لديه فرس ، وكان رجال قرى الشام مأمورين بتجهيز أنفسهم للقتال[١٢١] . واستخدم الجيش المملوكي نظام المباغتة في حروبه ، ففي سنة ٦٦٣ هـ سار بيبرس الى الساحل ونزل بقيسارية ونازلها بمن معه من العساكر المتواجدة ونصبوا المجانيق الكثيرة وأحاط الفرسان بخيولهم المدينة ، وضربت المجانيق المدينة وشددوا حصارهم على المدينة ، وصنع المماليك سكك للخيول كالأوتاد على سور قيسارية وانهالت الخيول على المدينة لاقتحامها من خلال الجسور التي ضربها المماليك على سور المدينة ، وبذلك حل الوهن والضعف في قلوب الصليبيين من أهل قيسارية الامر الذي قادهم الى التسليم[١٢٢] . كذلك اعتمد المماليك في قتالهم على الخيالة ، لذلك عنوا كثيرا بأمر الخيول واتخذوا لها كل الادوات الفاخرة من اللجم والسروج التي صنعت من القماش الموشى بالذهب والمطرز والمزركش بالحرير[١٢٣] . وهذا ما تحقق في معركة مرج دابق[١٢٤] التى كانت من الاهمية بمكان فقد كان الخيالة مستعدين ومطيعين

---

[١٢٠] الكاتب ، التبصرة ، ص ٢٤ .

[١٢١] بيبرس ، مختار الاخبار ، ص٥١ .

[١٢٢] بيبرس ، التحفة الملوكية ، ص٥٣ .

[١٢٣] المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ص٩٣٣ .

[١٢٤] مرج دابق : هي المعركة التي وقعت سنة ٧٠٢ هـ بين المماليك بقيادة السلطان الناصر قلاوون وبين المغول بقيادة قازان .

لأوامر قادتهم ولم يزالوا على ذلك حتى انتهت المعركة والكل ماسك بزمام فرسه[١٢٥] .

وتعد التشكيلات التعبوية للجيش المملوكي من أهم التشكيلات القتالية للجيوش العالمية بدليل أن الجيوش في الوقت المعاصر تستخدم تلك التعبئة وتطبق ما جاء في تلك التشكيلات للجيوش الاسلامية على مر عصورها سيما الجيش المملوكي ، الذي ظهرت فيه تلك التشكيلات بشكل أوسع ومتطور نتيجة الخبرة القتالية .

فمن هذه التعبئات تعبئة الصف المستوي ، وهو ما يعرف بتشكيل نسق واحد لتطهير المواقع المحتلة على عجل وبقوات قليلة العدد وغير كافية لصد هجوم العدو ، وهناك تعبئة السوران بمعنى الاسوار ويكون على شكل رأس سهم معكوس ، وتستخدم هذه الطريقة في عمليات التطويق والالتفاف لنقطة منفصلة أو مستقلة ، وتعبئة الصف الخارج الصدر الذي يعرف بتشكيل نسق واحد مع حماية الاجناب ، وتستخدم هذه الطريقة في حالة توقع هجوم مفاجئ للعدو من أحد الاجناب ، وتعبئة الظامتر ويعرف بتشكيل ثلاثة أنساق الذي يستلزم في حالة تركيز العدو بقوات كثيرة العدد ويحتاج الى قوات كثيرة لتدميره ، وتعبئة السماوي الذي يقصد به بتشكيل رأس سهم ويستخدم للوصول الى العمق في دفاعات العدو ، وتعبئة الدبزان وهو على شكل رأس سهم ويستخدم لتطويق أحد الاجناب فقط ، وتعبئة شهروان وهو ما يعرف بالتشكيل الصندوقي ، وتعبئة ذات الدوائر أي التشكيل الدائري ويستخدم

---

[١٢٥] النويري ، نهاية الارب ، ج ٣ ، ص ٣٣٦ .

لتحقيق القيادة والسيطرة والتأمين من جميع الجهات لتأمين من الهجمات المفاجئة [١٢٦] .

ويعد الاستطلاع من أهم المرتكزات الاساسية للجيش المملوكي ، ويتطلب لتحقيق هذا الاجراء عدة أمور منها أهمية الاختيار بأن يكون صاحب الطلائع رجلا بصيرا ، ناضجا أمينا ، جسورا حذرا ، وينبغي ان يكون أهل الطليعة من ذوي النصيحة والخبرة والتجربة بالحروب ، وأن تكون خيولهم سوابق وجيدة ، وأن لا يكون مع هؤلاء الطلائع ما يثقلهم من سلاح سوى قوس وجعبة من النشاب ، وأن لا يباشروا العدو الا في حالة الضرورة [١٢٧] .

وحرص الجيش المملوكي على إرسال معلومات مغلوطة للعدو ، ومن مهارات القائد العسكري أن يريك العدو بأخبار غير صحيحة من خلال أخبار غير صحيحة تكتب على السهام تطابق ما وصل إليه من الجواسيس ويرمى بها في جيش العدو ؛ وكانت فرق الاستطلاع سياسة سلاطين المماليك اهتم بها بشكل كبير الظاهر بيبرس فبعد فتح قيسارية أرسل فرقة استطلاعية الى

---

[١٢٦] حسام الدين الطرابلسي ، لاجين بن عبد الله الذهبي (ت ٧٣٨ هـ) : تحفة المجاهدين في العمل بالميادين ، دراسة وتحقيق الدكتور محمد عيسى صالحة ، مجلة معهد المخطوطات العربية (الكويت : ١٩٨٤م) ، مج ٢٨ ، ج٢، ص٤٠٠ وما بعدها .

[١٢٧] منكلي المصري ، محمد بن محمود (ت ٧٧٨ هـ) : التدبيرات السلطانية في سياسة الصناعة الحربية ، تحقيق صادق الجميلي ، منشور في مجلة المورد (العراق : ١٩٨٣ م) ، مج ١٢ ، ع ٤ ، ص ٣٣٣ .

عتليت ، وكانت تتظاهر بأنها تريد الصيد فنزل أحد أفراد الفرقة وتسلل بين البساتين وتمكن منقتل فارسا صليبيا ، ورجع بالأخبار الى الجيش المملوكي مما كان له الاثر في تحرير المدينة [١٢٨] . ويعد السلطان المنصور قلاوون من السلاطين الذين شجعوا على الفرق الاستطلاعية وزيادتها ، فكان لا يخرج الى معركة الا بعد الحصول على معلومات استطلاعية دقيقة سيما في حروبه مع المغول[١٢٩] .

واتبع الجيش المملوكي سياسة خطف جنود المغول ، عندما كانوا يتجولون للبحث عن المراعي والمروج لتزويد خيولهم وحيواناتهم ، وكان يتم التحقيق مع هؤلاء الجنود للحصول على أكبر قدر من المعلومات حول الجيش المغولي من عدده وأسلحته وخططه العسكرية وأسماء أمراءه [١٣٠] . وهناك فرقة من الجيش تسمى (السرايا) وهي عبارة عن طائفة مختارة من الجيش ترسل قبل الاشتباك بالعدو لإرهاب العدو أو استعلام خبره ، وتكون إما خيالة أو مشاة[١٣١] .

كذلك كان جمع المعلومات عن العدو بواسطة الجواسيس والعيون ، وما لهذه المهمة من أثر في صفوف العدو كان قائد الجيش يختار منهم العارف

---

[١٢٨] بيبرس ، التحفة الملوكية ، ص ٥٤ .

[١٢٩] الكاتب ، الفضل المأثور ، ص ٥٤ .

[١٣٠] بيبرس ، التحفة الملوكية ، ص ٩٨ .

[١٣١] منكلي ، التدبيرات السلطانية ، ص ٣٤٤ .

بلسان المكان الذاهب اليه وعالما بتكوينات الجيش ، فضلا عن معرفته بأسماء قادة جيش العدو وأبرز المؤثرين هناك (١٣٢) .

ولم يدع الجيش المملوكي وسيلة قتالية الا استخدمها سواء كانت من ابتداعاته أم من الوسائل العسكرية التي سبقته ، من ذلك أسلوب المكر والخديعة في القتال كما فعل ذلك في عين جالوت ضد المغول ، وكان يستخدم الذكاء فقد نفخ القرب وجعلها تحت بطون الخيل ليعبر الفرات (١٣٣) . وكان لا يتوانى في حرق الارض أمام العدو لإعاقة تقدمه (١٣٤) ، وكانوا يستخدمون لذلك الثعالب والكلاب بعد أن يعلقوا النار في أذنابهما (١٣٥) . وكان الجيش يستخدم أماكن مرتفعة على رؤوس الجبال توقد فيها النار ليلا ولهم فيها أدلة يتعارفون عليها بها في حالة رؤية العدو(١٣٦) .

وفيما يخص التحصينات التي اتخذها الجيش المملوكي فكانت على أساس بناء القلاع الحصينة وتحصينها بكامل العتاد ، ومنها ما تم تجهيزها بالمنجنيقات كما فعل ذلك في المدن التي تقع على الثغور(١٣٧) . ومن المدن

---

(١٣٢) المصدر نفسه ، ص٣٤٥ .

(١٣٣) ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج١ ، ص ٣٠٢ .

(١٣٤) المقريزي ، السلوك ، ج١ ، ص ٤٧٣ .

(١٣٥) القلقشندي ، صبح الاعشى ، ج ١٤ ، ص ٤٠١ .

(١٣٦) المصدر نفسه ، ج ١٤ ، ص ٣٩٦ .

(١٣٧) المقريزي ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٨٣ .

التي اهتم فيها سلاطين المماليك بيت المقدس والخليل في فلسطين ، ودمياط والاسكندرية ورشيد في مصر على اعتبارها مدن ثغورية [١٣٨] .

وتمتعت القلاع في العصر المملوكي بأسوارها العالية المنيعة والابواب التي تفتح بالنهار وتغلق في الليل ، ولا تفتح خارج ذلك الا في أوقات الضرورة[١٣٩] . وكان لأهالي المدن الشامية أثر كبير في الدفاع عن قلاعهم بشكل لا يقل عن جهود الجيش النظامي[١٤٠] .

وتطلبت حصانة القلاع بناء سور عالي وضخم مع الاخذ بنظر الاعتبار البيئة الطبيعية المحيطة بمكان السور ، فمثلا المنطقة المفتوحة كان يحاط بها خندق[١٤١] .

وكانت القلعة تقوم على مرتفع من الارض ، وهو عبارة عن مبانٍ دفاعية محصنة بالأسوار ، وأبواب محكمة وبروج وخنادق تدخل فيها البحر وقت الضرورة[١٤٢] . وفي الايام الاخيرة من عصر دولة المماليك زادت

---

[١٣٨] العيد روسي ، محيي الدين عبد القادر الشيخ بن عبد الله (ت ١٠٣٨ هـ) : النور السافر عن أخبار القرن العاشر ، دار الكتب العلمية ، ط ١ (بيروت : ١٩٨٥ م) ، ص ١٧ .

[١٣٩] الكاتب ، الفضل المأثور ، ص ١٢٨ .

[١٤٠] عبد السيد ، حكيم أمين : قيام دولة المماليك الثانية ، المكتبة العربية ، الدار العربية للطباعة (القاهرة : ١٩٦٦ م) ، ص ١٣٦ .

[١٤١] بيبرس ، مختار الاخبار ، ص ٢٣ .

[١٤٢] بيبرس ، زبدة الفكرة ، ص ٣٩ .

حصانة القلاع ، ذلك أنه كان ينصب في أبراجها المكاحل والمدافع[١٤٣] . وبخصوص تموين هذه القلاع فكان يجري وفق نظام معين ، فمن الضروري أن تحتوي القلاع على مخازن لخزن الغلال وغيرها، فقد خزنت فيها أعداد كبيرة من القمح سنويا ، ويشترط في الغلال أن تكون سمراء اللون وأن يجف القمح في سنبله ، وتكون الارض ناشفة لعملية الخزن ، ولا توجد نداوة في حيطانها[١٤٤] .

ويعتمد أسلوب حراسة القلاع على نظام صارم يكلف بهذه المهمة جنود ملتزمون بها مع عدم الاخلال بالحراسة ، وينتشر داخل كل قلعة دوريات راجلة لمراقبة الاسوار والشوارع[١٤٥] .

- تدريب الجيش :

بما أن نشأة المماليك هي عسكرية بحتة ، فمن البديهي أن تهتم الدولة بتدريب جنودها على أتم الاستعداد وبمختلف الانشطة العسكرية التي من شأنها أن تزيد من قابليات الجنود ورفع معنوياتهم .

وأول خطوات إعداد الجندي تبدأ بأرساله الى الطباق[١٤٦]التي عاش فيها هؤلاء الجنود حياة منضبطة تستند الى برنامج محكم ، وخير من وصفه

---

[١٤٣] ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ١ ، ص ١٩٦ .

[١٤٤] القلقشندي ، صبح الاعشى ، ج ١٣ ، ص ٩٦ .

[١٤٥] الكاتب ، الفضل المأثور ، ص ١١٩ .

[١٤٦] الطباق : عبارة عن ثكنات المماليك السلطانية ، وهي بمثابة مدارس عسكرية موزعة على مناطق مختلفة من القاهرة وغيرها سيما القلعة ، وكان قسم من هذه الطباق يضم ألف مملوك . المقريزي ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٣٢٧ .

المؤرخ المقريزي[١٤٧] عندما استرسل في ذكر ذلك النظام قائلا ((... **فأول ما يبدأ به تعليمه ما يحتاج اليه من القرآن الكريم ، وكانت كل طائفة لها فقيه يحضر اليها كل يوم ويأخذ في تعليمها كتاب الله تعالى ومعرفة الخط والتمرين بآداب الشريعة وملازمة الصلوات والاذكار . وإذا ركبوا الى لعب الرمح أو رمي النشاب لا يجسر جندي ولا أمير أن يحدثهم أو يدنو منهم ، فينقل حينئذ الى الخدمة وينتقل في أطوارها رتبة بعد رتبة الى أن يصير من الامراء ، فلا يبلغ هذه الرتبة إلا وقد تهذبت أخلاقه وكثرت آدابه، وامتزج تعظيم الاسلام وأهله بقلبه واشتد ساعده في رماية النشاب ، وحسن لعبه بالرمح ومرن على ركوب الخيل ، ...**)) .

ويتم التدريب العسكري المملوكي على وفق أربع مراحل ، ركوب الخيل والكر والفر ، الرمي بالقوس ، الطعن بالرماح ، الضرب بالسيف[١٤٨] .

يبدأ التدريب على ركوب الفرس ، وذلك بأن يقوم المعلم بصنع تمثال للفرس من خشب أو طين ، ويعلمهم كيفية الركوب والجلوس ، ويأمر أحدهم بالركوب عليه ليتمرنوا على ركوب الفرس الحقيقي ؛ ثم تأتي مرحلة وضع السرج على ظهر التمثال ويدربهم على الوثوب بخفة ورشاقة حاملين معهم سلاحهم ومعدات القتال ، وبعد أن يطمئن المعلم لوعي جنوده يدربهم

---

[١٤٧] المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٢١٣ .

[١٤٨] ابن القيم الجوزية ، شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد (ت ٧٥١هـ) : الفروسية ، تحقيق عزت العطار (القاهرة : ١٩٤٢ م) ، ص ٢١ .

علـى فـرس حقيقـي ، ويقـوم بتـدريبهم علـى الضـرب بـالقوس فـي حـالتي الكـر والفر[149] .

لقد مرت الثقافة العسكرية المملوكية بثلاثة أدوار : دور الصرامة وفيها أن الجندي لا يسمح له بالتحرك خارج الطباق ، وتفرض عليه واجبات قوية ؛ دور التساهل وفيه بعض الحرية للجندي بالتمتع ؛ دور الاهمال ويعني أنه لم توجه اليهم العناية الدقيقة كما كانت توجه لهم من قبل[150] .

ونـتج عـن هـذا النظـام العسـكري الصـارم نتيجتـان ، الاولـى أن الجمـع بـين التربيـة الدينيـة والتـدريب العسـكرية جعـلا المماليـك يتميـزون بالحماسـة والغيـرة علـى الـبلاد والمقدسـات الاسـلامية ؛ والثانيـة هـو أن رابطـة الزمالـة (الخشداشية) التي تربط الجنود فيما بينهم ، كانت أقوى من الروابط القائمة علـى الـولاء الشخصـي فـي الدولـة[151] . لـذلك قيـل أن بسـبب هـذه التربيـة الصـارمة جعلت المماليك ((**سادة يدبرون الممالك ، وقادة يجاهدون في سبيل الله ، وأهل سياسة يبالغون في اظهار الجميل ، ويردعون من جار أو تعدى ...**))[152] .

---

(149) ابن القيم ، الفروسية ، ص ٨ .

(150) سليم ، محمود رزق : عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والادبي مكتبة الآداب ، ط ٢ (القاهرة : ١٩٦٢ م) ، ، ج ١ ، ص٧٧ ، ص ٨٠ .

(151) قاسم ، قاسم عبدة (دكتور) : عصر سلاطين المماليك ، عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية ، ط ١ (القاهرة : ١٩٩٨ م) ، ص ٣٠ .

(152) المقريزي ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٢١٤ .

وفيما يخص دور الاهمال فجاء بنتائج وخيمة على المماليك إذ عصفت تلك المرحلة بدولتهم ، نتيجة الاهمال في الاشراف الدقيق عليهم منذ نشأتهم ، واختلاط أجناسهم ، والبخل بالإنفاقعليهم ، فكثرت ثوراتهم على السلطان وانصرفوا في التفكير بالمصلحة الخاصة دون العامة ، وضعفت فيهم الروح العسكرية(١٥٣) .

وفيما يخص الزي العسكري فكان متميزا في ذلك العصر ، واختلف زيهم من مدة لأخرى واتخذ شكلا متطورا في عصر الناصر قلاوون(١٥٤) . ويتكون زيهم بالنسبة للجسد من أربعة أثواب ، فالأول قطني والثاني هندي والثالث حريري والرابع سمباك ؛ وفي وسطه شدوه بحزام وتسمى منطقة ، ويعلق في الجانب الايمن منها حقيبة كبيرة تسمى الصولقشت فيها منديل(١٥٥) . وأما على الرأس فتوضع الطاقية (كلوته) يلف حولها شاش (عمامة) ، ويكون المهماز الذي هو آلة من حديد يلبسها الفارس في رجله فوق الكعب ، وتلبس فوق الخف(١٥٦) .

وفي حالة استدعاء الجنود للقتال فكانوا يلبسون آلة الحرب(١٥٧) ، ويلبسون على رؤوسهم الخودات المصنوعة من الجلد ومن الحديد(١٥٨) .

---

(١٥٣) سليم ، عصر سلاطين المماليك ، ج ١ ، ص ٨٣ .

(١٥٤) القلقشندي ، صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ٣٩ .

(١٥٥) المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ١٢٧ .

(١٥٦) المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ١٢٩

(١٥٧) ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ١ ، ص ٣٠ .

(١٥٨) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٢٥٦ .

كذلك لبسوا الترس (الدرقة) بجانب القفاز للاتقاء من ضربات العدو[١٥٩] . واختلفت ملابسهم في الصيف عن الشتاء ، ففي الصيف يكون الغالب على ملابسهم اللون الابيض ، وفي الشتاء تكون الفوقانيات من الصوف والحرير وتحتها فراء السنجاب[١٦٠] .

وكانت الراية السمة البارزة التي لم تفارق ذلك الجيش لأنها في نظرهم رمزه وقوة نصره ، وتعد كثرة الرايات وتعدد ألوانها ذات رموز معينة ودلالات يعلمها أفراد الجيش[١٦١] .

ولسلطان المماليك ثلاثة أعلام ، أحدها من الحرير الاصفر المطرز بالذهب ينقش عليه ألقاب السلطان واسمه ويسمى العصابة ويحمله العلم دار[١٦٢] . والثاني كبير من اللون الابيض تعلق في أعلاه خصلة من الشعر ويسمى الشاليش[١٦٣] ؛ والثالث راية صفراء صغيرة الحجم تسمى السنجق ،

---

[١٥٩] القلقشندي ، صبح الاعشى ، ج ٢ ، ص ١٣٦ .

[١٦٠] المقريزي ، الخطط ، ج ٣ ، ص ٣٥٢ .

[١٦١] الكاتب ، الفضل المأثور ، ص ٧٢ .

[١٦٢] العلم دار : مصطلح مركب من لفظين ، الاول علم وهو كلمة فارسية تعني الراية ، والثاني دار ، فيكون معناها حامل العلم . ينظر القلقشندي ، صبح الاعشى ، ج ٥ ، ص ٤٥٦ .

[١٦٣] الشاليش : أو الجاليش راية عظيمة وتعد شعار السلطان . ينظر ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٢٦٠

والذي يحملها يدعى السنجقدار ، وفي حالة الحرب يخرج السلطان بهذه الرايات الثلاث[١٦٤] .

- استراتيجية المعارك المملوكية تجاه المغول والصليبيين

- معارك المماليك ضد الصليبيين :

لعل أولى بدايات الصراع المملوكي - الصليبي تمثل في معركة المنصورة سنة ٦٤٨ هـ أبان الحملة الصليبية السابعة على مصر بقيادة الملك الفرنسي (لويس التاسع) ، وكان النصر حليفا لماليك بقيادة القائد المملوكي آنذاك (بيبرس) الذي نظم الدفاع عن المدينة بشكل جيد وأمر أهالي مدينة المنصورة بعدم الخروج من منازلهم دون حركة مع سرعة الانقضاض على تلك القوات في اللحظة المناسبة ، ولما دخلت تلك القوات المدينة وجابت شوارعها ظنوا أن الحامية والاهالي قد فروا منها ، وبينما هم كذلك أطبق عليهم فرسان المماليك واهالي المنصورة والمتطوعون من كل ناحية ، فضلا عن وضع الاهالي المتاريس الخشبية والحجرية والطينية لعرقلة الصليبيين ، وجاءت نتيجة المعركة بأعداد كبيرة من قتلى الصليبيين بينهم شقيق الملك ، ولم ينجوا من الهرب سوى عدد قليل من الفرسان الذين غرقوا في مياه النيل بعد أن طاردهم المصريون بالسهام وغيرها[١٦٥] . فضلا

---

[١٦٤] بيبرس ، التحفة الملوكية ، ص ٩٥ .

[١٦٥] ابن واصل ، جمال الدين محمد بن سالم بن نصر الله المازني (ت ٦٩٧هـ) : مفرج الكروب في مناقب بني أيوب ، تحقيق الدكتور حسنين محمد ربيع ، مطبعة دار الكتب (القاهرة : ١٩٧٢م) ، ج ٥ ، ص ٣٦٦ .

عن وقوع الملك (لويس) أسيرا بيد المماليك وتم إطلاق سراحه بعد مفاوضات تعهد فيها بعدم تسيير حملة صليبية أخرى[١٦٦] .

كانت سياسة السلطان الظاهر بيبرس تجاه الصليبيين تقوم على أساس أن لا يبدأ بقتالهم حتى يعيد إحياء الخلافة العباسية ، ولما تحقق له ذلك قام بمهاجمة إمارة أنطاكية الصليبية سنة ٦٦٠ هـ وبعد حصار طويل عليها غادرها دون السيطرة عليها ، ولكنه تمكن من أسر (٣٠٠) أسير[١٦٧] . وفي سنة ٦٦١هـ قام بمهاجمة مدينة عكا وحاصرها ، وعلى الرغم من قيام الصليبيين بحفر خندق حولها وتحصينها ، إلا أن قوة الجيش المملوكي وعزيمة بيبرس مكنت الجيش من دخول المدينة والسيطرة عليها[١٦٨] . وفي سنة ٦٦٣ هـ سيطر السلطان على قيسارية ، وكان يحث الصناع على

---

[١٦٦] من شروط تلك الاتفاقية : اطلاق سراح الملك الفرنسي والتعهد بعدم محاربة المسلمين ، تسليم مدينة دمياط للمسلمين فدية عن نفسه ، يدفع لويس مبلغ ثمانمائة الف قطعة ذهبية فدية لأسرى الصليبيين ، اطلاق سراح المسلمين الذين بحوزته واسرى المسلمين في الشام منذ صلح يافا ، يعمل الصليبيون على حفظ الامن والاستقرار في جميع البلاد التي تحت ايدي الصليبيين في بلاد الشام . اما من الجانب الاسلامي فتم الاتفاق على اطلاق الاسرى الصليبيين ، يقوم السلطان (توران شاه) بحماية العتاد الحربي الذي يتواجد في دمياط بعد رحيل الحملة ، يمنح السلطان الامان لمن يبقى من الصليبيين في دمياط حتى رحيلهم . عمران ، محمود سعيد (دكتور) : تاريخ الحروب الصليبية ، دار المعرفة الجامعية (القاهرة : ٢٠٠٠ م) ، ص ٣١٤ .

[١٦٧] عاشور ، سعيد عبد الفتاح : الحركة الصليبية ، صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد العربي في العصور الوسطى ، ط ٢ (القاهرة : ١٩٧١ م) ، ج ٢ ، ص١١٤٢ .

[١٦٨] المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ص ٤٨٩ .

عمل المنجنيق ، ودخل الجيش المدينة فهرب الصليبيون الى القلعة وهي حصينة جدا ، فهاجمها الجيش بالمنجنيق والدبابات ولاسيما وأن السلطان كان يصعد في الدبابة ويراقب حركة الصليبيين ، وفي النهاية سلم الصليبيون المدينة بعد طول حصار(١٦٩) . وفي السنة نفسها قام بمهاجمة أرسوف بنفسه وظهرت عليه ملامح القائد الشجاع حتى تمكن من السيطرة عليها(١٧٠) . وفي سنة ٦٦٤ هـ قام بالسيطرة على مدينة صفد التي طال حصارها حتى تمكن من دخولها بطلب من الصليبيين على أن يخرجوا سالمين منها ، وزفت البشرى الى مصر بهذا الانتصار ، وأمر السلطان بعمارة صفد حتى قيل **((ونقل الذخائر اليها والاسلحة ، وأزال دولة الكفر منها ولله الحمد))**(١٧١). وبسبب تحالف مملكة أرمينية الصغرى مع المغول ضد المماليك ، وفرضها الحصار الاقتصادي عليها ، هاجم السلطان بيبرس تلك البلاد وأستطاع من دخول مدنها ومقتا أحد أبناء ملك أرمينية الصغرى (هيثوم الاول) وكان ذلك سنة ٦٦٤ هـ (١٧٢) . وفي سنة ٦٦٦ هـ عاود السلطان لمهاجمة أنطاكية وتمكن منها بعد حصار طويل أثبت فيها شجاعته ومقدرته العسكرية ، وكان من نتائج السيطرة على أنطاكية فك الاسرى المسلمين ، وضعف شوكة الصليبيين في المنطقة باعتبارها ثاني إمارة أسسها الصليبيون

---

(١٦٩) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢٤٤ .

(١٧٠) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢٤٥ .

(١٧١) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٣٨ .

(١٧٢) المصدر نفسه ، ج ١١ ، ص ٥٥١ .

في المشرق[١٧٣] . وكان له موقف عظيم أثناء الحملة الصليبية على تونس سنة ٦٦٨ هـ فقد أرسل الى السلطان المستنصر الحفصي يعلمه بجاهزيته للدفاع عن تونس من خلال تسيير عساكره اليه[١٧٤] . وتمكن من فتح حصن الاكراد من أيدي الصليبيين سنة ٦٦٩ هـ [١٧٥] . وكان دائما يردد هذه العبارة التي تدل على حبه للجهاد وعدم تركه ((**الحمد لله منذ ملكني الله تعالى ما خذلت لي راية ...**))[١٧٦] .

وقد أحسن ابن تغري بردي[١٧٧] حين وصفه قائلا ((**وكان الملك الظاهر رحمه الله ملكا شجاعا مقداما غازيا مجاهدا مرابطا خليقا بالملك ، خفيف الوطأة سريع الحركة يباشر الحروب بنفسه**)) .

وفي عهد السلطان المنصور قلاوون استمر قتال الصليبيين ، وكانت خطته تقتضي فصل المغول عن الصليبيين بمعنى عدم قيام تحالف فيما بينهما ، فقام بمهادنة الصليبيين سنة ٦٨٠ هـ لمدة عشر سنوات [١٧٨] . وفي سنة ٦٨٤ هـ قام بفتح حصن المرقب نتيجة كثرة اعتداءات الصليبيين على المسلمين ، فهاجمه بمختلف الاسلحة وحاصره حتى تمكن منه[١٧٩] وعندما

---

[١٧٣] ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢٥٢ .

[١٧٤] المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ص ٥٩٠ .

[١٧٥] ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢٥٩ .

[١٧٦] المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٥٩٤ .

[١٧٧] النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٧٧ .

[١٧٨] النويري ، نهاية الارب ، ج٢٩ ، ص٢٧٨ .

[١٧٩] أبو الفدا ، المختصر ، ج٤ ، ص٢١ .

نقض الصليبيون هدنة طرابلس مع المسلمين توجه السلطان المنصور قلاوون سنة ٦٨٨ هـ اليها بعساكره الكبيرة وجهز أربع سفن فضلا عن ضربها بالمنجنيق حتى فتحها عنوة[١٨٠] .

وفي سنة ٦٩٠ هـ تم تحرير عكا في سلطنة الاشرف خليل بعد كثرة اعتداءاتهم على المسلمين هناك[١٨١] ، وقد كلفت هذه الحملة السلطان الاشرف أعدادا كبيرة من الجيوش حتى قيل ((**فاجتمع عنده على عكا من الامم ما لا يحصى كثرة ، وكان المطوعة أكثر من الجند ومن في الخدمة**))[١٨٢] .

وفي عهد السلطان برسباي (٨٢٥ . ٨٤١ هـ) تمكن المماليك من السيطرة على قبرص سنة ٨٢٩ هـ بعد محاولات عديدة ، أسر فيها أعداد كبيرة من الصليبيين من ضمنهم ملك قبرص (جانوس)[١٨٣] .

- **معارك المماليك ضد المغول :**

تعد معركة عين جالوت سنة ٦٥٨ هـ أول مواجهة عسكرية بين المماليك والمغول ، التي انتهت بهزيمة المغول وطردهم من بلاد الشام ،

---

(١٨٠) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص٣٢١ .

(١٨١) الذهبي ، محمد بن احمد بن عثمان (ت ٧٤٨هـ) : تاريخ الاسلام ووفيات المشاهير والأعلام ، تحقيق عمر عبد السلام تدمري ، الناشر دار الكتاب العربي ، ط١ (بيروت : ١٩٨٨م) ، ج ٢ ، ص ١٨٩ .

(١٨٢) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٨ ، ص ٥ .

(١٨٣) ابن حجر العسقلاني ، شهاب الدين أحمد بن علي (ت ٨٥٢هـ) : أنباء الغمر بأنباء العمر ، تحقيق حسن حبشي (القاهرة :١٩٦٩م) ، ج ٢ ، ص ١١١ .

وكان قطز قد شحن الهمم في تلك المعركة بعد أن رأى تهاونا من بعض الامراء مخاطبهم ((**يا أمراء المسلمين لكم زمان تأكلون أموال بيت المال ، وأنتم للغزاة كارهون ، وأنا متوجه فمن اختار الجهاد يصحبني ، ومن لم يختر ذلك يرجع الى بيته ، فأن الله مطلع عليه وخطيئة حريم المسلمين في رقاب المتأخرين**))(١٨٤) .

لم يرتدع المغول بما حل لهم بل شنوا عدة حملات لاحتلال بلاد الشام وحصلت معارك بذلك الخصوص منها في عصر السلطان الظاهر بيبرس ، إذ وقعت معركة حمص الاولى سنة ٦٥٩ هـ ورغم تفوق المغول في العدة والعدد الذي بلغ تعدادهم ستة آلاف فارس بينما المماليك نحو ألف وأربعمائة فارس ، إلا أن المماليك بعزيمتهم وإصرارهم تمكنوا من سحق الجيش المغولي ، ويشير الذهبي(١٨٥) الى ذلك بقوله ((**فحمل المسلمون حملة صادقة فكان النصر ، ووضعوا السيف في الكفرة حتى حصدوا أكثرهم ، وأنهزم مقدمهم بيدرا بأسوأ حال ، والعجب أنه ما قتل من المسلمين سوى رجل واحد**)) . وتكررت اعتداءات المغول على الشام ففي سنة ٦٧١ هـ قاموا بالهجوم على البيرة ونصبوا المنجنيق لحصارها ، لكن حسن تنظيم بيبرس لقواته مكنته من صد هجوم المغول وكسرهم(١٨٦).

---

(١٨٤) المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ص ٤٢٩ .

(١٨٥) دول الاسلام ، تحقيق حسن إسماعيل مروة ، دار صادر ، ط١ (بيروت : ١٩٩٩م) ، ج ٢ ، ص ١٦٥ .

(١٨٦) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢٦٣ .

وفي عصر السلطان المنصور قلاوون كانت هناك معارك بين الطرفين منها ، معركة حمص الثانية سنة ٦٨٠ هـ فعندما سمع المنصور بتحركات المغول تجاه الشام ، قام بأرسال الكشافة لاستطلاع اخبارهم وتحركاتهم ، وعلى الرغم من تقدم المغول في بادئ الامر وكسر بعض جبهات المماليك إلا أن النصر كان حليفا للماليك في نهاية الامر ، فقد تم ترتيب جبهاتهم والالتفاف على المغول ، وقد زفت البشرى بهذا النصر الى كافة النواحي[١٨٧] .

وفي عصر السلطان الناصر قلاوون (٦٩٨ . ٧٠٨هـ) كانت هناك معارك ضد المغول منها معركة الخازندار سنة ٦٩٩ هـ عند الوادي بين حمص وحماة ، وهاجم جيش المغول بقيادة قازان القوات الإسلامية فانهزمت ميمنة المسلمين والميسرة ولم يثبت منها إلاّ القلب، و فرسان المغول بقوات القلب إلى أن كسروهم وتعقبوهم بالضرب والقتل، ولما رأى أهالي حمص ما حل بالجيش الإسلامي وهم في مدينتهم يقتتلون ، ابتهلوا بالدعاء إلى الله سبحانه ونادوا ((**يا مسلمون الرجعة الرجعة لا تسلمونا إلى العدو فتباكوا وبكى السلطان الناصر**))[١٨٨] . لكن الأمر لم يدم طويلاً في صالح المغول ، إذ تم في هذه السنة استرجاع بلاد الشام من أيدي المغول وشاركت في هذه العملة الجيوش الحلبية والحمصية والحموية، وكان ذلك في العشر

---

[١٨٧] الذهبي ، دول الاسلام ، ج ٢ ، ص ١٤١ .

[١٨٨] العيني ، بدر الدين محمود بن احمد (ت ٨٥٥هـ) : عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان ، تحقيق محمد محمد أمين ، الهيئة العامة للكتاب (القاهرة : ١٩٨٨م) ، ج١، ص ٣٥٤ .

الأخير من شهر شعبان[189] . ثم كانت معركة المرج سنة ٧٠٢ هـ في حمص فقد عاث المغول في أراضيها فسادا ، فاجتمع الامراء على قتالهم وجاءتهم الامدادات من السلطان الذي حشد الجيوش المصرية والشامية وتم النصر عليهم[190] .

وفي سنة ٨٠٣ هـ قام تيمورلنك باحتلال المدن الشامية أمثال حلب وحماة ودمشق ، وعاث فيها فسادا وحلت الكارثة بالمدن الشامية مع غياب السلطان والامراء ، ومما يذكر من موقف للسلطان الناصر فرج (٨٠٨ – ٨١٥ هـ) أنه بعد عودته للقاهرة قام بجمع الاموال لبناء جيش يصد هجوم المغول ، لكن الامير شيخ المحمودي نائب طرابلس الذي فر من أسر تيمورلنك أخبرهم بأنه رحل الى بلاده ، فأمر السلطان بأبطال السفر ورجع كل أمير الى داره [191] .

---

[189] الصفدي العباسي ، الحسن بن أبي محمد بن عبد الله الهاشمي (ت بعيد ٧١٧هـ) : نزهة الممالك والمملوك في مختصر سيرة الملوك ، تحقيق الدكتور عمر عبد السلام تدمري ، المكتبة العصرية ، ط١ (بيروت : ٢٠٠٣م) ، ص ١٨٢ .

[190] الداوداري ، أبو بكر عبد الله بن أيبك (ت ٧٣٦هـ) : كنز الدرر وجامع الغرر (الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر) : تحقيق هاسن رويرت رويمر ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر (القاهرة : ١٩٦٠م) ، ص ٨٥ .

[191] ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ١٢ ، ص ٣٤٢ .

الخاتمـــة :

بعد هذا العرض المختصر للتنظيمات العسكرية للدولة المملوكية كان لابد من التطرق لأهم النقاط التي لوحظت في هذه الدراسة .

- طبيعة المماليك العسكرية جعلتهم يعشقون القتال ويتفننون في ادارته ، وهم عسكريو النشأة والتكوين .
- كان للإقطاع أثر كبير في رسم السياسة العسكرية المملوكية ، واندفاع المقاتلين نحو الانخراط في تلك المؤسسة .
- لم يقتصر تكوين الجيش المملوكي على بني جنسهم - على الرغم من كثرتهم فيه - بل تعداه الى فئات أخرى أمثال الوافدية والجراكسة والتركمان فضلا عن القبائل العربية التي ساندت الجيش في معاركه .
- ارتكز الجيش السملوكي على ثلاثة عناصر رئيسة هي الجند السلطانية ، وأجناد الحلقة ، وأجناد الامراء .
- تنوعت الاسلحة المملوكية ابتداء من السيوف والمنجنيق وتطورا ذلك الى استخدام الدبابات والبارود ، وعد ذلك تطورا فريدا من نوعه في السياسة العسكرية في أرجاء العالم أبان تلك الحقبة الزمنية .
- تميز الجيش المملوكي بقدراته التنظيمية والتعبوية ، وهذا ما تم ملاحظته في معاركهم وخططهم التي فاقت خطط الصليبيين والمغول ، فكانوا يتفننون في تلك الخطط من واحدة لأخرى ، الامر الذي أثار دهشة الاعداء .

- جاءت معارك المماليك مبنية على وحدة أراضي الدولة وتطهير المدن المحتلة من قبل الصليبيين والمغول ، فضلا عن استخدام سياسة الصلح المؤقتة التي تضمن لملمة قواتهم لشن هجمات واسعة ضد الاعداء ، وهذا الأمر انطبق على كافة معاركهم .

المصادر والمراجع

المصادر الأولية :

ابن الاثير ، عز الدين علي بن محمد (ت ٦٣٠هـ) :

الكامل في التاريخ ، تحقيق الدكتور عمر عبد السلام تدمري ، الناشر دار الكتاب العربي ، ط٤ (بيروت : ٢٠٠٤م) .

ابن أجا ، محمد بن محمود الحلبي (ت ٨٨١ هـ) :

العراك بين المماليك والعثمانيين الاتراك (مع رحلة الامير يشبك بن مهدي الدوادار) ، صنعة محمد أحمد دهمان ، دار الفكر ، ط ١ (دمشق : ١٩٨٦ م) .

ابن اياس ، محمد بن أحمد الحنفي (ت ٩٣٠هـ) :

بدائع الزهور في وقائع الدهور ، تحقيق محمد مصطفى زيادة (القاهرة : ١٩٦٣م) .

البدري ، أبو البقاء عبد الله (ت في القرن التاسع الهجري) :

نزهة الانام في محاسن الشام ، الناشر دار الرائد العربي ، ط ١ (بيروت : ١٩٨٠ م) .

بيبرس المنصوري (ت ٧٢٥هـ) :

زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ، تحقيق دونالد س . ريتشاردز ، المؤسسة الألمانية للبحث العلمي ، ط١ (بيروت : ١٩٩٨م) .

التحفة الملوكية في الدولة التركية ، نشر وتقديم الدكتور عبد الحميد صالح حمدان ، الناشر الدار المصرية اللبنانية ، ط١ (القاهرة : ١٩٨٧م) .

مختار الاخبار ، تاريخ الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية حتى سنة ٧٠٢هـ ، تحقيق الدكتور عبد الحميد صالح حمدان ، الناشر الدار المصرية اللبنانية ، ط١ (القاهرة : ١٩٩٣م) .

ابن تغري بردي ، أبو المحاسن جمال الدين يوسف (ت ٨٧٤ هـ) :

المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي ، تحقيق أحمد يوسف نجاشي، مطبعة دار الكتب المصرية (القاهرة : ١٩٥٦م) .

النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، مطبعة دار الكتب المصرية ، ط١ (القاهرة : ١٩٣٢ م) .

حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور ، تحقيق وليم بوير (كاليفورنيا : ١٩٣١م) .

ابن حجر العسقلاني ، شهاب الدين أحمد بن علي (ت ٨٥٢هـ) :

أنباء الغمر بأنباء العمر ، تحقيق حسن حبشي (القاهرة : ١٩٦٩م) .

ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨ هـ) :

تاريخ ابن خلدون ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، ط٢ (بيروت : ١٩٨٨م) .

المقدمة ، دار صادر ، ط٢ (بيروت : ٢٠٠٩ م) .

الداوداري ، أبو بكر عبد الله بن أيبك (ت ٧٣٦هـ) :

كنز الدرر وجامع الغرر (الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر) : تحقيق هاسن روبرت رويمر ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر (القاهرة : ١٩٦٠م) .

الذهبي ، محمد بن احمد بن عثمان (ت ٧٤٨هـ) :

تاريخ الاسلام ووفيات المشاهير والأعلام ، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، الناشر دار الكتاب العربي، ط١ (بيروت : ١٩٨٨م) .

دول الاسلام ، تحقيق حسن إسماعيل مروة ، دار صادر ، ط ١ (بيروت : ١٩٩٩م) .

السيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن (ت ٩١١هـ) :

حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط١ مطبعة عيسى البابي الحلبي (القاهرة: ١٩٦٧م) .

الصفدي العباسي ، الحسن بن أبي محمد بن عبد الله الهاشمي (ت بعيد ٧١٧هـ) :

نزهة الممالك والمملوك في مختصر سيرة الملوك ، تحقيق الدكتور عمر عبد السلام تدمري ، المكتبة العصرية، ط١ (بيروت: ٢٠٠٣م).

حسام الدين الطرابلسي ، لاجين بن عبد الله الذهبي (ت ٧٣٨ هـ) :

تحفة المجاهدين في العمل بالميادين ، دراسة وتحقيق الدكتور محمد عيسى صالحة ، مجلة معهد المخطوطات العربية (الكويت : ١٩٨٤ م) .

الطرسوسي ، مرضي بن علي بن مرضي (ت ٥٨٩ هـ) :

تبصرة أرباب الالباب في كيفية النجاة في الحروب من الاسواء ونشر أعلام الاعلام في العدد والآلات المعينة على لقاء الاعداء ، تحقيق كلود كاهين (بيروت : ١٩٤٨ م) .

العمري ، شهاب الدين أبي العباس احمد بن يحيى (ت ٧٤٩هـ) :

التعريف المصطلح الشريف ، تحقيق محمد حسين شمس الدين ، دار الكتب العلمية (بيروت : ١٩٨٨م) .

العيد روسي ، محيي الدين عبد القادر الشيخ بن عبد الله (ت ١٠٣٨هـ):

النور السافر عن أخبار القرن العاشر ، دار الكتب العلمية ، ط ١ (بيروت : ١٩٨٥ م) .

العيني ، بدر الدين محمود بن احمد (ت ٨٥٥هـ) :

عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان ، تحقيق محمد محمد أمين ، الهيئة العامة للكتاب (القاهرة : ١٩٨٨م) .

أبو الفدا ، عماد الدين إسماعيل (ت ٧٣٢هـ) :

المختصر في أخبار البشر، المطبعة الحسينية ، ط١(القاهرة : د. ت).

القلقشندي ، أبو العباس أحمد بن علي (ت ٨٢١هـ) :

صبح الأعشى في صناعة الانشا ، المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة والطباعة والنشر (القاهرة : د. ت) .

ابن القيم الجوزية ، شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد (ت ٧٥١ هـ) :

الفروسية ، تحقيق عزت العطار (القاهرة : ١٩٤٢ م) .

الكاتب ، ناصر الدين شافع بن علي بن عباس بن إسماعيل (ت ٧٣٠هـ) :

الفضل المأثور في سيرة السلطان الملك المنصور ، تحقيق الدكتور عمر عبد السلام تدمري ، المكتبة العصرية ، ط ١(بيروت : ١٩٩٨م) .

ابن كثير ، عماد الدين إسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤هـ) :

البداية والنهاية ، دار أبي حيان ، ط١ (القاهرة : ١٩٩٦م) .

المقريزي ، تقي الدين أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ) :

المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار المعروف بالخطط المقريزية ، مكتبة الثقافة الدينية (القاهرة : ١٢٩٤هـ) .

السلوك في معرفة دول الملوك ، تحقيق محمد مصطفى زيادة ، مطبعة لجنة التأليف والنشر (القاهرة : ١٩١٤م) .

منكلي المصري ، محمد بن محمود (ت ٧٧٨ هـ) :

التدبيرات السلطانية في سياسة الصناعة الحربية ، تحقيق صادق الجميلي ، منشور في مجلة المورد (العراق : ١٩٨٣ م) .

ابن واصل ، جمال الدين محمد بن سالم بن نصر الله المازني (ت ٦٩٧هـ) :

مفرج الكروب في مناقب بني أيوب ، تحقيق الدكتور حسنين محمد ربيع ، مطبعة دار الكتب (القاهرة : ١٩٧٢م) .

النويري ، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٣هـ) :

نهاية الارب في فنون الأدب، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر (القاهرة : د. ت) .

اليافعي ، عبد الله بن أسعد بن سليمان (ت ٧٦٨ هـ) :

مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان ، مؤسسة الاعلمي للمطبوعات (بيروت : ١٩٧٠ م) .

اليوسفي ، موسى بن محمد بن يحيى (ت ٧٥٩ هـ) :

نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر ، تحقيق الدكتور أحمد حطيط ، عالم الكتب ، ط ١ (بيروت : ١٩٨٦ م) .

اليونيني ، أبو الفتح قطب الدين موسى بن محمد (ت ٧٢٦هـ) :

ذيل مرآة الزمان ، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد ، ط١(الدكن : ١٩٥٤م) .

المراجع الحديثة :

حسن ، علي إبراهيم (دكتور) :

المماليك البحرية ، مكتبة النهضة المصرية ، ط٤ (القاهرة : ١٩٦٧م) .

دهمان ، محمد أحمد :

معجم الالفاظ التاريخية في العصر المملوكي ، دار الفكر ، ط١ (دمشق : ١٩٩٠ م) .

سليم ، محمود رزق :

عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والادبي مكتبة الآداب ، ط ٢ (القاهرة : ١٩٦٢ م) .

شبارو ، عصام :

تاريخ المشرق العربي الإسلامي ، دار الفكر اللبناني (بيروت : ١٩٩٩م) .

شلبي ، أحمد :

الجهاد والنظم العسكرية في التفكير الاسلامي ، مكتبة النهضة ، ط ٢ (مصر : ١٩٧٤ م) .

عاشور ، سعيد عبد الفتاح :

الحركة الصليبية ، صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد العربي في العصور الوسطى ، ط ٢ (القاهرة : ١٩٧١ م) .

عبد السيد ، حكيم أمين :

قيام دولة المماليك الثانية ، المكتبة العربية ، الدار العربية للطباعة (القاهرة : ١٩٦٦م) .

عمران ، محمود سعيد (دكتور) :

تاريخ الحروب الصليبية ، دار المعرفة الجامعية (القاهرة : ٢٠٠٠م) .

فهيم ، محمود نديم أحمد :

الفن الحربي للجيش المصري في العصر المملوكي البحري ، الهيئة المصرية العامة للكتاب (القاهرة : ١٩٨٣م) .

قاسم ، قاسم عبدة (دكتور) :

عصر سلاطين المماليك ، عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية ، ط ١ (القاهرة : ١٩٩٨م) .

قاسم ، قاسم عبدة (دكتور) وعلي ، السيد علي (دكتور) :

الايوبيون والمماليك ، عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية ، ط ١ (القاهرة : ١٩٩٥م) .

ماجد ، عبد المنعم (دكتور) :

نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر ، مكتبة الانجلو المصرية ، ط ٢ (القاهرة : ١٩٧٩م) .

Army Divisions of Mamalik Period
648-923 H

Dr. Ammar Mardhi Alawi
College of Arts / The Iraqi University

Abstract:

The research discusses the regulatory procedures of the military establishment; it begins with military feudality and its importance, and army personnel according to the Mamalik's vision, declaring the groups and social members that took part in that army, besides the most important arms used at battles. Then it expresses the regulatory capabilities, meaning the plans followed in battles and how to deploy troops and the operation of army training that undergo a long and hard process.

Finally, the paper discusses the strategy of battles and its importance for the Mamalik leaders in their wars against Crusaders and Mongols and what they had dedicated to the Islamic world through fighting on their behalf.

Stylistic Structures in "A Strange on The Gulf" poem of Badr Shakir Al-Sayyab

Dr. Lateef Younis Hamadi
Institute of Fine Arts / Diyala Governorate

Abstract:

The modern world variables necessitated a new style of poetry in the early twentieth century after the narrowed expression templates by modern topics, so a new pattern of Arab poem appeared which is the poem of free verse.

In this study, the researcher tries to stand on the structural stylistic poetic modern free text as the main feature of modernity, including the elements of surprise, paradox, shifts and wide imagination that open the horizons of the recipients for multi- readings.

The researcher chose Badr Shakir Al-Sayyab's poem: (A Strange on The Gulf), as it is one of the important poems in its stylistic and natural characteristics.

The research is divided into three sections:

The first is the phonetic level.

The second one is the formation of the image.

The third is the synthetic (structural) level.

Climate Changes in Iraq (132-656H / 749-1258) – A Historical Study -

Dr. Nahidha Mutr Hassan
College of Education/ University of Wasit

Abstract:

There is no doubt that the study of the climate in Iraq during the Abbasid period helps us to develop a clear vision to see the changes that have occurred on the climate first, and second to predict weather phenomenon in the future; as what we are seeing today of significant changes requires us to go back to the history of the study, so that we can say that it is natural or that it changes of human- induced, which had varied motives and orientations to control that climatic phenomena.

The research is divided into three paragraphs which included the first paragraph: definition of weather, climate and interest of human in them since ancient times. The second paragraph is allocated to mention the various climatic changes that have occurred

in Iraq and perhaps the most notable high volatility in the amounts of rain, and falling snow as well as rising temperatures, storms and wind. The third paragraph mentions the most important effects of such climatic changes and phenomena. The research is appended with tables that support the research results to increase the interest.

The Influence of The Western Literature on Aldiwan School

Alsayed Abo Alfadhil Almosawee
Dr. Mohammed Ali Talibi
Murtadha Baqiri

Abstract

The one who reads about the Diwan school discovers that this school has contributed to the steering of Arabic literature, in the first decade of the twentieth century, to a new distinguished direction that was affected by the foreign arts, especially the English ones. The renewal process was done at the hands of the pioneers of the Diwan school, so we cannot determine the aspects of this school, only by cultures that benefited from it. In this study, we refer to the most important features of influence of the Diwan school by some known foreign arts.

Corrugating Stage in the Movement of People in Baghdad Big City
- Prosperity and Decline –
170-656 H / 786-1258
656-1286 H / 1258-1869

Dr. Abid Ali Alkhafaf
University of Kufa
Alfarabee Institute of Higher Studies / Al-Najaf

Abstract:

This research deals with a long period from the date of the population, "the demographic history" of Baghdad city that spreads to more than a thousand years, and it is difficult to search for the reality of the population, "the demographic reality" because of the lack of sources and references.

This period is tackled in two phases: corrugating stage in the movement of people, and the decline stage that is marked by the continued decline of the reality of population.

Renewable and New Energies

Prof. Dr. Dakhil Hassan Jerew
Member of the Academy of Science

Abstract:

Renewable energy is derived directly from heat generated from solar, wind, ocean, hydropower, biomass, geothermal resources, and biofuels and hydrogen derived from renewable resources. Renewable energy replaces conventional fuels in four distinct areas: electricity generation, hot water/space heating, motor fuels, and rural energy services. Renewable energy is environmentally a friendly energy source which causes no damage to human health, and does not contribute to climate changes; furthermore it is a sustainable source of energy. This paper examines the state of the art of the renewable and new energies in the modern world.

// Journal
Of the
ACADEMY OF SCIENCES

Quarterly Journal – Established on 1369H- 1950

E-mail: iraqacademy@yahoo.com

journalacademy@yahoo.com

Annual Subscription : In Iraq (20000) I.D.

Outside Iraq (100 Dollars)

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد ١٩٧٦ لسنة ٢٠١٥م



Journal
Of the
ACADEMY OF SCIENCES

Quarterly Journal – Established on 1369H- 1950

No. 2

Vol. 62

1436H - 2015